

تأليف

عارف عبد الغني

دار كنان
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - شارع بغداد - مقابل معهد الحرية -
هاتف ٨١٤٧٤٢ - ٤٢٧٣٢١ - ص.ب: ٤٩٢٦



نظم التعليم

عند المسلمين

الطَّبْعَةُ الأُوْلَى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين، ومن سار على نهجه الى يوم الدين وبعد، فيتحدث هذا الكتاب «نظم التعليم عند المسلمين» عن فترة زمنية طويلة، منذ بدايات دخول الكتابة الى الجزيرة العربية الى ما قبل العهد العثماني، ويحتوي في ثناياه وفصوله على الكثير من الآراء والنظم التعليمية والتربوية عند المسلمين، والتي تدل بالمقارنة مع الدراسات الحديثة في هذا المجال عن مستوى فكري وأخلاقي ومهني ونفسي راقٍ،وصل إليه التعليم آنذاك، حيث هي مجال فخر واعتزاز لنا.فقد كان المعلم والمدرس مثالاً وأنموذجاً فريداً للعطاء يصلح لكل عصر وزمن،يقابله على الطرف الآخر في المجتمع بعض الصور النادرة من الجد والاجتهاد لدى طلاب العلم، بالاضافة الى صور أخرى من البذل والعطاء لكل غالٍ ونفيس في سبيل الإنفاق على التعليم ابتغاء وجه الله ورضاه، من خلال الوقف الذي يوقف لطلبة العلم والمعلمين، وبناء المدارس لقاء الدعاء للواقف وعائلته، وأولاده في حياته ومماته بعد كل صلاة، وهو جهد أسهم بقسط وافر ومساحة واسعة من الإنفاق على التعليم، وهو في حاجة الى دراسة هذه الظاهرة وإحلالها المكان اللائق بها من خلال الباحثين والمختصين.

وقد نحونا في هذا الكتاب نحواً يختلف عن مناهج الكثير من الكتب والتآليف، حيث قدمنا النصوص الحية من خلال مواردها في بطون الكتب

والمصادر والمراجع التي تتحدث في هذا المجال، مغفلين في كثير من الأحيان التعليق عليها. لاعتقادنا أن النص هو هدف الباحث والقارىء، فقد جعلنا لهما مساحة واسعة للتفكير والتعمق والتدبر، دون أن نفرض عليها رأينا الذي قد يتفق معهما أو يختلف.

كما اننا لم نقم بتخريج الاحاديث النبوية، حيث اكتفينا بنقلها من مواردها كا هي، وهو موضوع أحببنا التنويه به. ولم نتقيد في كثير من الأحيان بالتسلسل التاريخي للمعلومات، وخاصة لدى علماء التربية المسلمين لأن هدفنا هو المادة العلمية والفائدة في النهاية، ولم نقم بايراد تراجم لهؤلاء العلماء في ثنايا الكتاب تاركين ذلك للقارىء والباحث، وقد نقوم بذلك في طبعة ثانية إن شاء الله، ولم نعط موضوع الترجمة من اللغات الأجنبية للعربية أي اهتمام لأن الموضوع يحتاج الى كتب عديدة، واقتصر كتابنا على العلوم الإنسانية دون أن نبحث في تعليم وتحصيل العلوم العلمية كالرياضيات والفلك. . . لأن الموضوع بحاجة الى بحوث مستقلة بالاضافة الى تصرفنا في بعض الأحيان بالنصوص من حيث التقديم والتأخير، خروجاً على السياق العام الذي رتبت فيه أصلاً بمصادرها، وذلك لتنسيق المعلومات وفقاً لما نراه مناسباً خدمة للقارىء، ونضيف الى ذلك أننا اقتبسنا من بعض الكتب أكثر من غيرها، وذلك اعتقاداً منا بأهمية ما ورد بها من معلومات وخاصة كتاب التذكرة لبدر الدين ابن جماعة الذي نعتبره مصدراً فريداً وغنياً بالمعلومات حول التعليم عند المسلمين ونعتذر للقارىء عن أي تقصير أو أخطاء ترد في ثنايا الكتاب سواء من حيث ترتيب المادة، واختيار النصوص. . . أو أية أخطاء أخرى لأن من أسباب ضعف الانسان عدم ثبات أفكاره وبلوغه حد الكمال.

وفي الختام أحب أن أشكر الاستاذ الدكتور بكري الشيخ أمين الذي أشرف على هذا الكتاب، وقام ببذل جهد مشكور. وقدم ملاحظات قيمة أسهمت في ترتيب فصول هذا الكتاب وأبوابه. راجين أن يلقى هذا الكتاب الذي بذلنا فيه لسنوات خلت من الجهد المتواصل والعمل الدؤوب،

والبحث الدقيق رضى الله والقارىء والباحث، فإن نجحنا فهو ما نسعى إليه وان أخفقنا فذلك وسعنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دمشق في ٢٥ جمادي الاولى ١٤١٠
٢٣ كانون الأول ١٩٩٠

عارف عبد الغني

مقدمة عامة عن العصر الجاهلي:

عاش العرب في الجاهلية خاضعين للخرافات والأوهام، عبدوا الأصنام، ووكلوا الهياكل أمورهم، كما لجأوا إلى الكهانة والعرافة لفض منازعاتهم، ولم تكن القراءة منتشرة في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام الانتشار الواسع - بالرغم من المستوى العقلي الذي وصل إليه العرب،متمثلاً بالشعر الجاهلي ونوادر العرب وأمثالهم وما يُروى عنهم من قصص وأخبار،وكلها تنم عن مستوى عقلي رفيع، لكن ظل حفظ هذا التراث يتم بواسطة المشافهة دون كتابته في كتب، بل حُفِظ في الصدور وجرى تناقله من جيل لجيل،ومن مكان لآخر،دون تحريف أو تغيير.

وسنعمد إلى ذكر بعض الآراء والمعلومات عن كيفية الوصول إلى الخط العربي بصورته الراهنة عبر التاريخ الطويل للغة العربية، وهو ليس موضوع بحثنا، ولكنه يشكل مدخلاً لا بد منه لفهم نظام التربية عند العرب والمسلمين وكيف وصل إلى صورته الناصعة التي أثرت الإنسانية بتجربة فريدة تميزت عن غيرها من تجارب الإنسانية فيما حولها.

الآراء حول الخط العربي وظهور الكتابة العربية بالصورة الحالية:

هنالك آراء متباينة في أصل الخط العربي وكيفية تطوره يمكن تلخيصه بالفقرات التالية:

١ - إن الخط العربي نزل توقيفياً من الله تعالى مع سائر الخطوط والكتابات،

وأول من استخدمه هو آدم عليه السلام، كتبه في الطين ثم طبخه، وقيل إن النبي إدريس أول من كتب بعد آدم أو أن إسماعيل بن إبراهيم أول من وضع الكتابة العربية[1].

٢ ـ إن أشخاصاً مُعينين هم الذين كتبوا بالعربية ووضعوا حروفها، فقيل إن عبد ضخم ابن آرم بن سام بن نوح وولده هو أول من كتب بالعربية، ووضع حروف المعجم وقيل إن أول من وضع ذلك هم قوم من العرب العاربة نزلوا في عدن فابن أدد بن أبجد وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت وضعوا الحروف العربية على أسمائهم ثم وجدوا أن حروفاً لم تذكر ضمن حروف أسمائهم فألحقوها بها وسموها بالروادف[2].

٣ ـ يقول الدكتور عبد العزيز الدوري:

وفي القرن السادس ظهر الخط العربي وبدأ استعماله في الكتابة، وكان العرب من قبل يستعملون الخط المسند والأرامي في الكتابة، ويلاحظ أن الكتابة كانت شائعة بين عرب الشمال منذ القرن الثاني ق. م. فاللحيانيون [١/٢ ق. م. ـ ٣/٤ م.) وموطنهم الرئيسي شمال الحجاز قرب الساحل ومدينتهم ديدان، كانت كتابتهم بخط من المسند، والثموديون [٢/٣ ق. م. ـ ٦ م]، الذين كانوا في شمال الجزيرة وخاصة شمال الحجاز ونقوشهم في أنحاء مختلفة من الجزيرة وخاصة في الشمال والوسط، كانوا يستعملون خطاً من المسند. والصفائيون [٢ ق. م. ـ أوائل ٦ م.]، وموطنهم بادية الشام بين حلب وتدمر، ومركزهم حوران الشرقية، كتبوا بخط يشبه المسند ولغتهم من العربية، أما الأنباط فاستعملوا الخط الأرامي، ثم إن اللخميين كانوا يكتبون بالخط الأرامي النبطي، ومن هذا الخط تطور الخط العربي. وللخط العربي أهمية في الكتابة وفي تكوين الثقافة، كما لعب دوراً في النواحي الفنية في المستقبل[3].

---

(١) حضارة العراق جـ ٩ ص ٤٤٨.

(٢) نفس المصدر جـ ٩ ص ٤٤٨.

(٣) التكوين التاريخي للأمة العربية د. عبد العزيز الدوري ص ٣١.

٤ ـ آراء الباحثين الذين اعتمدوا على الشواهد الأثرية[١]:

تتركز آراؤهم على أن الخط العربي متخلف عن الخط النبطي، فدرسوا النصوص النبطية الآرامية القديمة وكيف تغيرت وتطورت بمرور الزمن حتى ظهرت فيها الحروف العربية المتميزة، والمعروف أن الأنباط أو النبط من الأقوام العربية أطلق عليهم النبط لاستنباطهم ما يخرج من الأرض هاجروا من شمال الجزيرة العربية واستقروا في الأردن وبلاد الشام قبل الميلاد بقرون واتخذوا البتراء مركزاً رئيساً لهم وظهروا على مسرح التاريخ قبل الميلاد بقرون سنة ٣١٢ ق. م. في عهد أنتيجون اليوناني عندما تصدوا لحملاته واستمروا إلى سنة ١٠٦ م عندما استولى الرومان على البتراء فانقرضت مملكة الأنباط إلا أن الشعب العربي النبطي ظل مؤثراً في الحياة العامة ووصلنا الكثير من آثاره[٢].

استعمل الأنباط الحروف الآرامية في أول الأمر، وأقدم كتابة نبطية أرامية مؤرخة سنة ٣٣ ق. م. واستمر استعمالهم لها إلى القرن الثاني للميلاد. إلا أننا سنجد ضمن الكتابات النبطية الآرامية بعضاً من الحروف العربية القريبة من الحروف الآرامية. وقد توسع ظهور الحروف العربية في الكتابات النبطية الآرامية[٣].

ويمكن أن نقول إن أقدم نص كتابي ظهرت فيه حروف عربية هو نقش أم الجمال الأول الذي يعود إلى منتصف القرن الثالث الميلادي، ونقش النمارة الذي كتب سنة ٣٢٨ ميلادي، والذي عده بعضهم أقدم نص عربي كامل في كل تعابيره وكلماته ونقش حرّان الذي كتب سنة ٥٦٨ م.

كما أن هنالك نصوصاً نبطية عربية أخرى تظهر لنا شكل الحرف العربي قبل الإسلام منها نقش أسيس وزبد وأم الجمال الثاني وغيرها[٤].

---

(١) حضارة العراق جـ ٩ ص ٤٤٩.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.

ويمكننا القول بعد هذا إن العرب الأنباط منذ محاكاتهم للخط الآرامي وأثناء قيام مملكتهم وبعد زوالها لم ينقطعوا عن تطوير كتابتهم حتى ظهر عندهم الحرف العربي وتكاملت صوره في القرن السادس للميلاد واستخدمه عرب الشمال وانتقل إلى العراق والحجاز وأسهم في تكوين الخط العربي الذي عرف في الجاهلية وصدر الإسلام[1].

إن الآراء الواردة في الفقرتين الأولى والثانية تفتقر إلى الأدلة والاثباتات الدقيقة وهي لا تعدو كونها أقاويل تم نقلها عبر كتب الأقدمين دون تمحيص أو تدقيق.

أما الآراء الواردة بالفقرتين الثانية والثالثة فهي تستند إلى دراسات أثرية بموجب اكتشافات تم العثور عليها وجرى مقارنتها وحل رموزها من قبل علماء موثوقين ونخص بالذكر (نقش النمارة).

فكرة عن اللغة العربية:

قبل أن نبدأ بحثنا عن النشاط التعليمي عند العرب والمسلمين علينا أن نقدم صورة موجزة عن اللغة العربية والخط العربي اللَّذَيْنِ هما أساس من أسس التعليم.

فاللغة العربية قديمة جداً في الجزيرة العربية، وكانت عامة عند العرب، وأنه شارك في استعمالها ونموها جميعهم، ولا ريب في أن الأسواق المتعددة التي روت المصادر، أن الشعراء كانوا ينشدون فيها شعرهم، لا يمكن عدها مراكز ثابتة للحركة التعليمية والفكرية؛ وذلك لأن الأصل في هذه الأسواق أنها مراكز مؤقتة لمبادلة السلع، وأنها ليست مراكز سكن دائمة للناس، وأن الشعراء كانت تؤم هذه الأسواق أياماً معدودة ثم ينفضون ويعود كل منهم إلى مقامه الأصلي، ومن المعروف أن عدداً من الشعراء كانوا يؤمّون بلاط ملوك المناذرة

---

(١) حضارة العراق جـ ٩ ص ٤٥٠.

في الحيرة، ولكن هذا مظهر لتشجيع الشعراء، وليس مظهرا لوجود مركز فكري ينمي الشعر، والشاعر الحيري الوحيد الذي نعرفه هو زيد بن عدي العبادي. ويلاحظ أن شعراء المعلقات هم من مناطق متفرقة في شبه الجزيرة، فمن شرقي الجزيرة ظهر طرفة[1] بن العبد، والحارث بن حلزة وهما ينتسبان إلى قبائل تقيم في البحرين، وعمرو بن كلثوم من تغلب التي كانت تقيم في البحرين هاجرت إلى الأطراف الشمالية من الفرات، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني وعنترة العبسي من قبائل غطفان المقيمة في شمال شرقي الجزيرة، وامرؤ القيس عاش في البحرين وفي أواسط الجزيرةويكاديكون لكل قبيلة عدة شعراء وكل هذا يظهر عدم وجود مركز واحد أو مراكز محدودة للنشاط الفكري في شبه الجزيرة العربية.

رأي المستشرق الفرنسي أرنست رنان في موضوع اللغة[2] العربية:

«من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء بدء فبدت فجأة في غاية الكمال سلسة غنية وأي غنى... لم يدخل عليها أدنى تعديل مُهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة وظهرت لأول أمرها، تامة، ولا أدري إن وقع ذلك للغة أخرى من لغات الأرض، دون أن تدخل في أطوار وأدوار مختلفة.

---

(١) إن قصة مقتل طرفة بن العبد تدل على أن الكتابة كانت مدونة في عصره بشكل واضح.

(٢) خطط الشام جـ ١ ص ٤٢.

الرواية العربية عن كيفية دخول الخط إلى الجزيرة العربية

حدثني عباس بن هشام بن السائب الكلبي، عن أبيه: عن جده، وعن الشرقي بن القطامي قال: اجتمع ثلاثة نفر من طيىء ببقّة وهم مرامر بن مُرَّة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جَدَرة فوضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار، وكان بشر بن عبد الملك أخو أُكَيْدِر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي ثم السَّكوني صاحب دومة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين، وكان نصرانياً. فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة.

ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس ابن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، يكتب، فسألاه أن يعلمهما الخط، فعلمهما الهجاء، ثم أراهما الخط فكتبا.

ثم إن بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غَيْلان بن سلمة الثقفي فتعلم الخط منهم.

وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر فتعلم الخط منه عمرو بن زُرَارة بن عَدس فسُمي عمرو الكاتب. ثم أتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك.

وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخة كلب، فَعلمه رجلاً من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فأقام بها وعلم الخط قوماً من أهلها[1].

---

(١) فتوح البلدان ص ٥٧٩.

قال وهب: أول من خط بالقلم إدريس.

وحدثني سهل بن محمد، عن الأصمعي أو غيره قال: أول من كتب بالعربية (مُرامر بن مرة) من أهل الأنبار، ومن الأنبار انتشرت في الناس. وقال الأصمعي: ذكروا أن قريشاً سئلوا من أين لكم الكتاب. قالوا: من أهل الحيرة وقيل لأهل الحيرة من أين لكم الكتاب قالوا: من الأنبار. وقال غيره: كان بشر ابن عبدالملك العبادي، علم أبا سفيان بن أمية، وأبا قيس بن عبد مناف بن زهرة الكتاب فعلما أهل مكة(١).

وحدثني الوليد بن صالح ومحمد بن سعد قالا: حدثنا محمد بن عمر الواقدي عن خالد بن إلياس عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم العدوي قال: دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة، ويزيد ابن أبي سفيان، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو أخو سهيل بن عمرو العامري من قريش، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأبان بن سعيد ابن العاص بن أمية، وأمية بن سعيد أخوه، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وحويطب بن عبد العزّى العامري، وأبو سفيان بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي(٢).

وقال الواقدي: كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قِلَّةً. وكان بعض اليهود قد تعلم كتاب العربية، وكانت تعّلم الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون وهم: سعد بن عبادة بن دُلَيْم، والمنذر بن عمرو، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت. فكان يكتب العربية والعبرانية، ورافع بن مالك، وأسيد ابن حُضَير، ومعن بن عدي حليف الأنصار،

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٥٥٢.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٠.

وبشير بن سعد، وسعد بن الربيع، وأوس بن خَوَلي، وعبد الله ابن أُبي المنافق[1].

قال: فكان الكملة منهم - والكامل من يجمع إلى الكتاب الرمي والعوم - رافع بن مالك، وسعد بن عبادة، وأُسيد بن حُضير، وعبد الله ابن أبيّ، وأوس ابن خولي، وكان من جمع هذه الأشياء في الجاهلية من أهل يثرب سُويد بن الصامت، وحُضر الكتائب[2].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٣.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٣.

التعليم في صدر الإسلام:

إن نزول القرآن الكريم ومجيء الإسلام حدث فاصل في تاريخ العرب وتطورهم الفكري فقد أكد أهمية المعرفةوالعلم، وحض على الاستزادة منها، ودعا الإنسان إلى استعمال البصر والنظر والعقل والفكر، لدراسة أحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل وإلى التأمل في ظواهر الدين والتفكير فيها، وقدم نظرة كونية ذات سمات معينة، وبذلك خلق دوافع وحوافز قوية، وقدم صورة جديدة ووضع إطاراً عاماً لآفاق الفكر، وحدد هيكلاً فكرياً إسلامياً جديداً صارت فيه معارف العرب وخبراتهم السابقة مجرد مادة أولية في بناء هذا الهيكل. وليس أدل على ذلك أن أول كلمة نزل بها القرآن الكريم على الرسول ﷺ: ﴿ اقرأ. . . وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

ويمكن تبيان أهمية العلم وتعلمه وتعليمه وفضل العلماء في:

١ - القرآن الكريم.

٢ - الأحاديث النبوية عن الرسول ﷺ.

٣ - في كلام الصحابة وبعض العلماء.

١ - في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[1].

---

(١) سورة المجادلة الآية ١١ .

وقال تعالى: ﴿شهد الله أنه لاآله إلا هو والملائكة وأُولو العلمِ قائماً بالقِسْط﴾[1].

بدأ سبحانه بنفسه، وثنى بملائكة قدسه، وثلث بأهل العلم وكفاهم ذلك شرفاً وفضلاً وجلالة ونبلاً.

وقال تعالى: ﴿قلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كنتم لا تَعلَمون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وما يَعقِلها إلا العالِمون﴾[4].

وقال تعالى: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾[5].

وقال تعالى: ﴿إنما يخشَىٰ اللّهَ من عبادِه العلماءُ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَن عنده عِلمُ الكتاب﴾[7].

وقال: ﴿قالَ الذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أنَا آتِيْكَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[8].

٢ ـ في الأحاديث النبوية عن الرسول ﷺ:

١ ـ عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُـرد الله به خيـراً يُفَقِّهْه في الـدين»، ورواه الـطبـراني في الكبيـر، ولفـظه: سمـعت

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨ .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٩ .
(٣) سورة النحل، الآية ٤٣ .
(٤) سورة العنكبوت ، الآية ٤٣ .
(٥) سورة العنكبوت ، الآية ٤٩ .
(٦) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .
(٧) سورة الرعد آية ١١ .
(٨) سورة النمل آية ٢٧ .

رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه، ومن يُرِدِ الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ»[1].

٢ ـ وعن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وألهمه رشده»[2].

٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع»[3].

٤ ـ وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع»[4].

٥ ـ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «قليل العلم خير من كثير العبادة، وكفى بالمرء فقهاً إذا عَبَدَ الله، وكفى بالمرء جهلاً إذا أُعجِبَ برأيه»[5].

٦ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان[6].

---

(١) الترغيب والترهيب ص ٩٢.
(٢) الترغيب والترهيب ص ٩٢.
(٣) الترغيب والترهيب ص ٩٤.
(٤) الترغيب والترهيب ص ٩٤.
(٥) الترغيب والترهيب ص ٩٤.
(٦) الترغيب والترهيب ص ٩٤.

٧ ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس، في الوحشة والصاحب في الغربة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة قائمة تُقْتَنَصُ أثمارهم ويُقتدى بفعالهم، وينتدب إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلقهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر، وهوامه، وسباع البر، وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تَعْدِل القيام، به تُوصَل الأرحام، وبه يُعرف الحلال من الحرام، وهو أمام العمل، والعمل تابعه، يُلهَمه السعداء، ويُحرَمه الأشقياء[1]».

٨ ـ ورُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب»[2] رواه ابن ماجه وغيره.

٩ ـ ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة»[3] رواه الطبراني في الأوسط.

١٠ ـ وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اكتسب مكتسب مثل

---

(١) الترغيب والترهيب ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) الترغيب والترهيب ص ٩٦.
(٣) الترغيب والترهيب ص ٩٨.

فضل علم يَهدي صاحبَه إلى هـدى، أو يرده عن ردى، ومـا استقام دينـه حتى يستقيم عمله»[1] رواه الطبراني في الكبير واللفظ له.

١١ - وروي عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قـالا: لَبَابٌ يتعلمـه الرجل أحب إليّ من ألف ركعة تطوعـاً، وقالا: قـال رسول الله ﷺ: «إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالـة مات وهـو شهيد»[2] رواه البزار والطبراني في الأوسط.

١٢ - وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيـه رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «من علم علماً فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل شيء»[3] رواه ابن ماجه.

١٣ - عن أبي أمامة قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجـلان: أحدهمـا عابـد والآخر عـالم، فقال عليـه أفضل الصـلاة والسلام: فضـل العـالم على العـابـد كفضلي على أدنـاكم، ثم قال رسـول الله ﷺ: «إن الله وملائكتـه وأهل السموات والأرض حتى النملة في جُحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»[4] رواه الترمذي.

١٤ - وروي عن أبي مـوسى قال: قـال رسول الله ﷺ: «يَبْعَثُ الله العبـاد يـوم القيـامة، ثم يميـز العلم فيقول: يـا معشر العلمـاء إني أضع علمي فيكم لأعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم»[5] رواه الطبراني في الكبير.

١٥ - وروي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بـالعالم والعـابد، فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعـالم قف حتى تشفع للنـاس»[6] رواه الأصبهاني وغيره.

---

(١) الترغيب والترهيب ص ٩٨.
(٢) الترغيب والترهيب ص ٩٨.
(٣) الترغيب والترهيب ص ١٠١.
(٤) الترغيب والترهيب ص ١٠١.
(٥) الترغيب والترهيب ص ١٠١.
(٦) الترغيب والترهيب ص ١٠١ - ١٠٢.

وعنه ﷺ: «يُوزَن يوم القيامة مِدادُ العلماء ودم الشهداء»[1].

في كلام الصحابة وبعض العلماء:

قال علي رضي الله عنه: (كفى بالعلم شرفاً أن يدَّعيه من لا يحسِنه ويفرح به إذا نُسِب إليه وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه)[2].

وقال أبو مسلم الخولاني: (العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا)[3].

وقال أبو الأسود الدؤلي: (ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك)[4].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وبَذله قربة، وتعليمه من لا يعلمه صدقه)[5].

وقال الشافعي رضي الله عنه: (إن لم يكن للفقهاء العاملون أولياء الله فليس لله ولي)[6].

وعن ابن عمر: (مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة)[7].

الترغيب في مجالسة العلماء وإكرامهم ونشر العلم والدلالة عليه عند الرسول ﷺ:

١ - عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مررتم

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ٨.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٠.
(٣) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٠.
(٤) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٠.
(٥) تذكرة السامع والمتكلم ص ١١.
(٦) تذكرة السامع والمتكلم ص ١١.
(٧) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٢.

بـرياض الجنة فـارتعوا، قـالوا: يـا رسول الله ومـا رياض الجنـة؟ قال: مجالس العلم»[1] رواه الطبراني في الكبير.

٢ - وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لقمان قال لابنه يا بني، عليك بمجالسة العلماء واسمع كلام الحكماء، فإن الله لَيُحيـي القلبَ الميتَ بنور الحكمـة، كما يحيـي الأرضَ الميتـةَ بوابـل المطر»[2] رواه الـطبراني في الكبير.

٣ - عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُد (يعني في القبر) ثم يقول: أيهما أكثر أخذاً للقرآن، فإن أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد[3]. رواه البخاري.

٤ - وروي عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «مـا تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر»[4] رواه الطبراني في الكبير.

٥ - وروي عن أنس بن مـالك رضي الله عنـه قال: قـال رسـول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن الأجود الأجود.اللهُ الأجودُ. وأنا أَجْود ولد آدم، وأَجْـودكم من بعدي رجل علم،علّم علماً فنشر علمه يُبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جادَ بنفسه لله عز وجل حتى يقتل»[5] رواه أبو يعلى والبيهقي.

٦ - وروي عن أبي أمامة رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «أربعة تجري عليهم أجورهم بعد المـوت: رجل مـات مرابـطاً في سبيل الله، ورجل علَّم علماً فأجره يجري عليه ما عُمل به،ورجل أجـرى صدقـة فأجرها له ما جرت، ورجل ترك ولداً صالحاً يدعو له»[6] رواه الإمام أحمد.

---

(١) الترغيب والترهيب ص ١١٢.
(٢) الترغيب والترهيب ص ١١٢.
(٣)الترغيب والترهيب ص ١١٣.
(٤)الترغيب والترهيب ص ١١٩.
(٥) الترغيب والترهيب ص ١١٩.
(٦) الترغيب والترهيب ص ١٢٠.

معلم القرآن الكريم في صدر الإسلام عن طريق الحفظ دون الكتابة:

في صدر الإسلام عن طريق الحفظ دون الكتابة:

ذكر أبو الفرج الجوزي - رحمه الله تعالى - في كتابه (مشكل الصحيحين) عبادة بن الصامت[1] - رضي الله عنه - وقال: شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان يعلم أهل الصُفَّة[2] القرآن، وهو أحد النقباء الاثني عشر[3].

«في السير لابن إسحاق - رحمه الله تعالى: ولما انصرف عن رسول الله ﷺ - القوم: يعني الذين بايعوه في العقبة الأولى قال: وهم اثنا عشر - بعث معهم مصعب[4] بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن

---

(١) في الاستيعاب، الطبقات لابن سعد، سير أعلام النبلاء: عبادة بن الصامت الأنصاري السالمي، يكنى: أبا الوليد، كان نقيباً وشهد العقبة الأولى والثانية، وشهد بدراً والمشاهد كلها، ووجهه عمر إلى الشام قاضياً ومعلماً، فأقام في حمص، ثم انتقل إلى فلسطين، وكان معاوية قد خالفه في شيء أنكره عليه عبادة بن الصامت فأغلظ له معاوية في القول، فقال له عبادة: لا أساكنك بأرض واحدة أبداً، ورحل إلى المدينة، فقال له عمر: ما أقدمك فأخبره، فقال: ارجع إلى مكانك، فقبح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك. وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه، توفي سنة ٣٤ هـ بفلسطين. وخرج أبو داود في سننه عن عبادة بن الصامت قال: علمت ناساً من أهل الصُفة الكتاب والقرآن، فأهدى إليّ رجل منهم قوساً، فقلت ليست! فقال ارم عليها في سبيل الله فقلت: لآتينَّ رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتيته، فقلت يا رسول الله: رجل أهدي لي قوساً فيمن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال أوَأرمي عليها في سبيل الله؟ قال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاحملها».

(٢) الصفة: بضم الصاد وتشديد الفاء ظُلة في مؤخر مسجد النبي ﷺ يأتي إليها المساكين وإليها ينسب أهل الصفة على أشهر الأقاويل.

(٣) تخريج الدلالات السمعية ص ٦٥.

(٤) تخريج الدلالات السمعية ص ٦٦ - ٦٧: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصي حسبما ذكره ابن حزم في الجماهر.

يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكان يسمى المقرىء بالمدينة.

- ومنهم معاذ[1] بن جبل - رضي الله عنه -.

«في كتاب الاكتفاء» استخلف رسول الله ﷺ عَتَّاب بن أُسِيد على مكة، وخَلَّفَ معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن.

وفي الاستيعاب: «بعثه رسول الله ﷺ قاضياً إلى الجند من اليمن يعلم

وفي الاستيعاب، يكنى: وكان من جلة الصحابة وفضلائهم، بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو للإسلام في دار الأرقم، فدخل وأسلم وكتم إسلامه خوفاًمن أُمه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً فبصُر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر به قومه فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوساً إلى أن خرج إلى أرض الحبشة في أول من هاجر إليها، وشهد بدراً ولم يختلف أهل السير أن راية رسول الله ﷺ [يوم بدر ويوم أحد] كانت بيده، فلما قتل يوم أُحد أخذها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وكان رسول الله قد بعثه إلى المدينة قبل الهجرة بعد العقبة يقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، وكان يدعى القارىء المقرىء، ويقال: إنه من جَمَّع الجمعة بالمدينة قبل الهجرة

وقال الواقدي: كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال وكان رسول الله ﷺ يذكره فيقول: «ما رأيت بمكة أحسن لِمَّة، ولا أرق حُلَّة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير»، وقتل يوم أحد شهيداً، وهو يومئذٍ ابن أربعين سنة

وعن خبَّاب - رضي الله عنه - قال: قتل مصعب بن عمير يوم أُحد، ولم يكن إلا نَمِرة، فإذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا بها رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غطوا رأسه واجعلوا على رجليه من الإِذْخر».

النَمِرة: جمعها نمار شملة مخططة.

(١) صحابي جليل.

الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن عام فتح مكة»[١].

ـ ومنهم عمرو[٢] بن حزم:

في «الاستيعاب»: استعمل رسول الله ﷺ عمرو بن حزم بن زيد بن لَوذ ابن الخزرجي البخاري من بني مالك على نجران، وهم بلحارث بن كعب، ـ وهو ابن سبع عشرة سنة ـ ليفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن، ويأخذ صدقاتهم، وذلك سنة عشر بعد أن بعث إليهم خالد بن الوليد فأسلموا[٣].

في معلم الكتابة (الخط) في صدر الإسلام وهذه أوليات مبكرة لتعليم الكتابة:

في ذكر من يعلم ذلك في زمن الررسول ﷺ.

في ذكر المعلم من الرجال:

«ذكر أبو عمر بن عبد البر ـ رحمه الله في «الاستيعاب»[٤] ـ عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وقد كان اسمه في الجاهلية: الحكم فسماه رسول الله ﷺ: عبد الله، وأمره أن يعلم الكتاب بالمدينة، وكان محسناً، قتل يوم بدر شهيداً، وقيل: بل قتل يوم مؤتة شهيداً، وقال أبو معشر: استشهد يوم اليمامة، رحمه الله تعالى[٥].

المعلم الكافر:

في الروض الأنف[٦] للسهيلي في الكلام على غزوة بدر قال: وكان في الأسرى يوم بدر من يكتب، ولم يكن في الأنصار أحد يحسن الكتابة، فكان منهم من لا مال له فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ويخلي سبيله فيومئذٍ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار[٧].

---

(١) تخريج الدلالات السمعية ص ٦٧.
(٢) الاستيعاب جـ ١ ص ٣٩٤.
(٣) تخريج الدلالات السمعية ص ٧٠.
(٤) الاستيعاب جـ ١ ص ٣٩٤ تخريج الدلالات السمعية ص ٧٠.
(٥) تخريج الدلالات السمعية ص ٧٠.
(٦) الروض الأنف جـ٢ ص ٩٢.
(٧) تخريج الدلالات السمعية ص ٧١.

في اتخاذ الدار ينزلها القراء، ويتخرج منه اتخاذ المدارس:

ذكر أبو عمر بن عبد البر - رحمه الله تعالى - في باب العبادلة من «الاستيعاب»[1] عبد الله بن أم مكتوم الأعمى القرشي العامري، وقال: كان قديم الإسلام بمكة، هاجر إلى المدينة، واختلف في وقت هجرته إليها، فقيل: كان ممن قدم المدينة مع مصعب بن عمير قبل رسول الله ﷺ وقال الواقدي: قدمها بعد بدر بيسير فنزل دار القُرَّاء.

وهذه إشارة واضحة إلى البدايات المبكرة للمدرسة التي أخذت فيما بعد صورتها الواضحة لتقوم بأداء رسالتها.

ذكر من كان يترجم للرسول ﷺ باللسان [دراسة اللغات الأجنبية غير العربية]:

في العمدة للتلمساني[2]: زيد بن ثابت الأنصاري البخاري - رضي الله عنه - كان يكتب للملوك ويجيب بحضرة النبي ﷺ وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن.

ذكر من كان يترجم له بالكتاب (كتاب السريانية):

في الاستيعاب[3] كانت ترد على رسول الله ﷺ كتب بالسريانية فأمر زيد ابن ثابت فتعلمها في بضعة عشر يوماً.

وفي مختصر الطحاوي[4] - رحمه الله - عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتحسن السريانية إنه تأتيني كتب؟» قال: قلت: لا، قال: فتعلمتها في سبعة عشر يوماً.

وفي «الأحكام الصغرى»[5] ذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده - رحمه

---

(١) الاستيعاب جـ ١ ص ٣٤٧.
(٢) تخريج الدلالات السمعية ص ٢٠٨.
(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٠٨.
(٤) نفس المصدر السابق ص ٢٠٨.
(٥) نفس المصدر السابق ص ٢٠٨.

الله تعالى ـ عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قـال: قال رسـول الله ﷺ: «إنه تأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تَعَلَّم كتابة السريانية؟» قال: قلت: نعم فتعلمتها في سبعة عشر.

كتـاب اليهـود:

في الصحيح للبخاري[1] ـ رحمه الله تعالى ـ في الشواهد، وفي التاريخ لـه: والنص من التاريخ، عن زيد بن ثـابت أن رسول الله ﷺ قـال له: «تعلم كتاب يهود، فإني ما آمن يهود على كتابي» فتعلمت في نصف شهر حتى كتبت إلى يهود، وأقرأ له إذا كتبوا إليه.

في معنى نهي عمر ـ رضي الله عنه ـ عن رطانة الأعاجم وكراهة مالـك ـ رحمه الله تعالى ـ تعلم خطهم، وأن ذلك غير مخالف للحـديث الثابت بـالأمر بتعلم ذلك[2]:

في «البيان والتحصيل»[3] قال مالك ـ رحمه الله ـ أكره للرجل المسلم أن يطرح ابنه في كتاب العجم: أن يتعلم الوقف: كتاب العجميـة، وأكره للمسلم أن يعلم أحداً من النصارى الخط أو غيره.

وفي التهذيب للبرادعي[4]: ونهى عمر عن رطانة[5] الأعاجم، وقال: إنها خِبٌّ[6].

وقال ابن رشد في (البيـان والتحصيل)[7] في الكـلام على قول مـالك ـ رحمه الله تعالى ـ الكراهة في ذلك كله بينة، أما تعليم الرجل ابنه كتاب العجم

---

(١) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٢١٤ وتخريج الدلالات السمعية ص ٢٠٩.
(٢) تخريج الدلالات السمعية ص ٢١٠.
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) الرطانة: الكلام بالأعجمية، تقول رطنت له، وراطنته إذا كلمته بها.
(٦) الخب: الخداع.
(٧) تخريج الدلالات السمعية ص: ٢١٠ ـ ٢١١.

فللاشتغال بما لا منفعة له، ولا فائدة له عما لـه فائـدة ومنفعة، مـع ما فيـه من إدخال السرور عليهم بإظهار المنفعـة، بكتابهم والـرغبة في تعلمـه، وذلك من توليهم وقد قال الله عز وجل: ﴿ ومن يَتَولَّهم منكم فإنه منهم ﴾[1].

وأما تعليم المسلم النصراني فلما فيه من الذريعة إلى قراءتهم القرآن مع ما هم عليه من التكذيب له، والكفر به، وقد قال ابن حبيب في الواضحة: إن ذلك ممن فعله مُسقِط لأمانته وشهادته[2].

قلت: وقد تبين من كلامه أن الذي يُكْرَه من تعلم خطهم وكتابهم هو ما لا يكون في تعلمه منفعة، وأما ما في تعلمه منفعـة للمسلمين كتعلمه لتـرجمة مـا يحتاج إليه الإمام كما تعلمه زيد ـ رضي الله عنه ـ بأمر النبي ﷺ أو لما يحتـاج إليه القاضي للفصل بين الخصوم، وإثبات الحقوق، أو للعاشر الذي يعشر أهل الذمة وتجار الحربيين لطلب ما يتعين عندهم لبيت المال، أو لما يحتاج إليه في فكاك الأسارى، وما أشبه ذلك مما تدعو إليه الضرورة فغير مكروه[3].

فيمن كان يكتب أموال الصدقة:

قال القاضي محمد بن سلامـة القضاعي ـ رحمـه الله تعالى ـ في كتابه (أنباء الأنبياء). كـان الـزبيـر بن العـوام، وجهم بن الصلت يكتبـان أمـوال الصدقات[4].

وقال أبو محمد بن حزم في كتاب (جوامع السيرة والعدل)، وكان كـاتب رسول الله ﷺ في الصدقات الزبير بن العوام ، فإن غاب واعتذر كتب جهم بن الصلت ، وحذيفة بن اليمان[5].

---

(١) سورة المائدة آية ٥١.
(٢) تخريج الدلالات السمعية ص ٢١١.
(٣) تخريج الدلالات السمعية ص ٢١١.
(٤) تخريج الدلالات السمعية ص ٥٥٥.
(٥) تخريج الدلالات السمعية ص ٥٥٥.

في ذكر كُتَّاب الرسائل والإقطاع:

في «الاستيعاب»[1] أن عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب القرشي، أسلم عام الفتح، وكتب للنبي ﷺ، ثم لأبي بكر واستكتبه عمر أيضاً، واستعمله على بيت المال، وعثمان بعده، حتى استعفى عثمان من ذلك فأعفاه[2].

«وروى ابن القاسم عن مالك قال: بلغني أنه ورد على رسول الله ﷺ كتاب فقال: من يجيب عني؟ فقال عبد الله بن الأرقم: أنا.فأجاب عنه، وأتى به فأعجبه وأنفذه. وذكر محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير أن رسول الله ﷺ استكتب عبد الله بن الأرقم فكان يجيب عنه، وبلغ من أمانته عنده أنه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك، فيكتب ويأمره أن يطينه ويختمه وما يقرأه لأمانته عنده»[3].

«وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار: أن عثمان استعمل عبد الله ابن الأرقم على بيت المال، فأعطاه عثمان ثلاثمائة درهم فأبى أن يأخذها، وقال: إنما عملت لله، وإنما أجري على الله. وروى أشهب عن مالك عن عمر ابن الخطاب أنه كان يقول: ما رأيت أحداً أخشى لله من عبد الله بن الأرقم.

وقال له عمر: لو كان لك مثل سابقة القوم،ما قدَّمتُ عليك أحداً»[4].

كُتَّاب الوحي:

١ - في ذكر أسمائهم:

قال القاضي محمد بن سلامة القضاعي - رحمه الله - في كتابه «أنباء الأنبياء عليهم السلام وتواريخ الخلفاء وولايات الملوك والأمراء»: كان عثمان بن

---

(١) الاستيعاب جـ١ ص ٣٤٨.

(٢) تخريج الدلالات السمعية ص ١٧٣. والاقطاع: قطع جزء من مال المسلمين لمن هو أهل لذلك.

(٣) تخريج الدلالات السمعية ص ١٧٣.

(٤) تخريج الدلالات السمعية ص ١٧٣.

عفان وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ يكتبان الوحي ـ فإن غابا كتب أُبَيّ ابن كعب وزيد بن ثابت[1].

وقال أبو عمر بن عبد البر ـ رحمه الله ـ في «الاستيعاب»[2]: كان أُبَيّ بن كعب ممن كتب لرسول الله ﷺ الوحي قبل زيد بن ثابت ومعه أيضاً، وكان زيد ألزم الصحابة لكتابة الوحي، وكان أبيّ وزيد يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ[3].

قال القاضي محمد بن سلامة: فإن لم يحضر أحد من هؤلاء الأربعة كتب مَنْ حضر من الكتاب وهم: معاوية بن أبي سفيان، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد، والعلاء الحضرمي، وحنظلة بن الربيع. وكان عبد الله بن أبي سرح يكتب الوحي أيضاً ـ فارتد عن الإسلام ولحق ـ بالمشركين، فلما فتحت مكة استأمن له عثمان بن عفان ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ فأمنه رسول الله ﷺ وحَسُن إسلامه . ولاه [فيما بعد عمر] مصر ثم أقره عثمان عليها، وخرج عنها حين تأمّر عليها محمد بن حذيفة، ومات بعسقلان، فهؤلاء كتاب الوحي. انتهى ما قاله القضاعي[4].

ـ منع الرسول ﷺ كتابة الحديث في البدء

وقد نهاهم الرسول عن الكتابة خوفاً من انكباب الناس على كتب الحديث دون القرآن.

ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن»[5]، وفي رواية: عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ

---

(١) تخريج الدلالات السمعية ص ١٥٩.
(٢) الاستيعاب جـ ١ ص ٢٥.
(٣) تخريج الدلالات السمعية ص ١٥٩.
(٤) تخريج الدلالات السمعية ص ١٥٩.
(٥) تقييد العلم ص ٢٩ ـ ٣٠.

قال: «لا تكتبوا عني شيئاً، فمن كتب عني شيئاً فَلْيَمْحُه. ومن كذب عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار».

- عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: «ما هذا الذي تكتبون؟» قلنا: أحاديث سمعناها منك. قال: «أكتاباً غير كتاب الله تريدون، ما أضلَّ الأممَ من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله»، قال أبو هريرة فقلت: أنتحدث عنك يا رسول الله؟ قال: «نعم تحدثوا عني ولا حرج، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

- بعض الذين رخص لهم رسول الله ﷺ الكتابة:

- عن أبي هريرة قال: كان رجل يشهد حديث النبي ﷺ، فلا يحفظه فيسألني، فأحدثه، فشكا قلة حفظه إلى رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «استعن على حفظك بيمينك»[2] يعني الكتاب.

- أخبرنا الحسن بن أبي بكر ومحمد بن عمر الفرسي قالا: أخبرنا محمد ابن عبد الله بن إبراهيم الشافعي، حدثنا محمد بن بشر بن مطر، وحدثنا عبد العزيز بن علي الوراق لفظاً، حدثنا محمد بن أحمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني قالا: حدثنا سعيد بن سليمان عن عبد الله بن مؤمل عن ابن جُريج عن عطاء عن عبد الله بن عمرو قال: قلت: يا رسول الله أقيِّد العلم؟ قال: «نعم»، قلت: ما تقييده؟ قال: «الكتاب»[3].

- عن عباية بن رافع بن خديج عن رافع قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: «اكتبوا ولا حرج»[4].

- حدثنا عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قلنا يا رسول الله، إنا نسمع منك أشياء لا نحفظها أفنكتبها؟ قال: «بلى اكتبوها».

---

(١) تقييد العلم ص ٣٣.
(٢) تقييد العلم ص ٦٥.
(٣) تقييد العلم ص ٦٨.
(٤) تقييد العلم ص ٧٢.

ـ عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله بشر، يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا حق»[1].

التفقه في الدين:

١ ـ في الحض على التفقه في الدين:

ـ فمن ذلك قول رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم ويعطي الله» رواه مسلم .

ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ: «نَضَّرَ الله أمرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فَرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»[2] رواه الترمذي.

ـ كيف كان الناس يسألون رسول الله ﷺ في أمور الدين، وقد جاءت بذلك آيات وأحاديث. فمن الآيات قول الله عز وجل: ﴿يَسْألونَكَ ماذا أُحِلَّ لهم قُلْ: أُحِلَّ لَكُمْ الطَيِّبات﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿يَسْألونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْألونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فاعْتَزِلُوا النِّساءَ في المَحِيضِ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿يَسْألونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾[6] إلى غير ذلك من الآي الشريفة.

---

(١) تقييد العلم ص ٨٠.
(٢) تخريج الدلالات السمعية ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٣) سورة المائدة آية ٤.
(٤) سورة البقرة آية ٢١٩.
(٥) سورة البقرة آية ٢٢٢.
(٦) سورة البقرة آية ١٨٩.

ومن أحاديث سؤال الرجال:

حديث أبي رفاعة العدوي: رواه مسلم والنسائي - رحمهما الله تعالى - والنص للنسائي عن حميد بن هلال قال: قال أبو رفاعة: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله! رجل غريب جاء يسألك عن دينه؟ لا يدري ما دينه؟ فأقبل رسول الله ﷺ وترك خطبته - حتى انتهى إليَّ - فأتى بكرسي - خِلْتُ قوائمه من حديد - فقعد رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله(١).

وحديث مسلم عن علي - رضي الله عنه - قال: كنت رجلاً مذَّاءً، فكنت أستحي أن أسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته [مني] فأمرت المقداد بن الأسود، فسأله فقال: «يغسل ذكره ويتوضأ»(٢).

في كُتَّاب العهود والصلح:

قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب(٣): كان الكاتب لعهوده ﷺ إذا عاهدوصلحه إذا صالح علي بن أبي طالب.

خَرَّج البخاري(٤) عن البراء: أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يَعْتَمِر أرسل إلى أهل مكة يستأذنهم ليدخل مكة، فاشترطوا عليه ألا يقيم بها إلا ثلاث ليال، ولايدخلها إلا بُجلْبان(٥) السلاح، ولايدعو منهم أحداً، فأخذ يكتب الشرط بينهم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فكتب: هذا ماقضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك، ولبايعناك، ولكن اكتب: هذا ما

---

(١) تخريج الدلالات السمعية ص ٧٦ - ٧٧.
(٢) تخريج الدلالات السمعية ص ٧٦ - ٧٧.
(٣) الاستيعاب جـ ٢ ص ٤٧٠.
(٤) البخاري (كتاب بدء الخلق) باب عمرة القضاء.
(٥) جلبان: هو قراب لحفظ السلاح وغمده وهو من جلد يعني يدخلوا مكة وأسلحتهم في أغمادها.

قاضى عليه محمد بن عبد الله قال: «أنا والله محمد بن عبد الله وأنا والله رسول الله» قال: وكان لا يكتب، فقال لعلي: امح رسول الله، فقال علي: والله لا محاة[1] أبداً، قال: فأريته؟ قال: فأراه، فمحاه النبي ﷺ[2].

---

(١) لا أمحوه.
(٢) تخريج الدلالات السمعية ص ١٧٤.



أسماء المعلمين المشهورين في الجاهلية وصدر الإسلام[1]:

- (بشر) بن عبد الملك السكوني أخو أكيدر صاحب دومة الجندل - جاهلي.

(سفيان) بن أمية بن عبد شمس، جاهلي.

- (أبو قيس) بن عبد مناف بن زهرة، جاهلي.

- (غيلان) بن سلمة بن متعب الثقفي، مخضرم.

- (عمرو) بن زرارة بن عدس بن يزيد، جاهلي. وكان يسمى الكاتب.

- (الضحاك) بن مزاحم معلم جماعة. ذكر الفضل بن دكين عن بشر بن سلمان قال كنت في كُتَّابه.

- (عامر) الشعبي معلم ولد عبد الملك.

- (أبو صالح) صاحب الكلبي.

- (باذام) مولى أم هانىء معلم، ذكر ذلك محمد بن بكار قال: حدثني عنبسة بن عبد الواحد القرشي عن إسماعيل بن أبي خالد.

- (أبو عبد الرحمن) السلمي ، وكان مكفوفاً.

- (عبد الله) بن حبيب معلم الحسن والحسين.

- (عبد الله) بن الحارث، معلم. روى عنه عاصم الأحول وعلي بن زيد بن جدعان، وقتادة.

- (عبيد) المتعب بن مهران. روى عن إبراهيم ومجاهد وغيرهما.

- (حسين) المعلم. روى عنه شعبة وعبد الوارث ويزيد بن زريع وغيرهم.

---

(١) المحبَّر ص ٤٧٥.

- (إسماعيل) بن عبد الله بن أبي المهاجر معلم ولد عبد الملك بن مروان.

- (أبان) بن تغلب. معلم. روى عنه شعبة، وسفيان بن عيينة.

- (عبد الواحد) بن قيس، معلم ولد يزيد بن عبد الملك. قال أبو مُسهر: حدثني صدقة بن خالد قال: حدثني مروان بن جناح عن عبد الواحد بن قيس قال: قلت ليزيد بن عبد الملك: إني لست آخذ منك على القرآن شيئاً، إنما آخذ منك على غيره.

- (أبو سعيد محمد) بن أبي الوضاح. روى عن علي بن بذيمة، وسالم الأفطس، وخُصيف.

(يونس) بن حبيب النحوي. روى عن حماد بن سلمة، وعن عبد الوارث، وحماد بن يزيد.

- (أبو إسماعيل إبراهيم) بن سليمان. روى عن عطية العوفي، والأعمش وغيرهما.

- (حبيب) بن أبي بقية، معلم روى عنه حماد بن سلمة، وعبد الوارث، وحماد بن زيد وغيرهم.

- (هارون) بن موسى الأعور القارىء، معلم. روى عنه عباد بن العوام.

- (عمر) بن الفضل البصري، معلم، روى عنه عبد الوارث.

- (محمد) بن شهاب الزهري، معلم.

- (إسماعيل) بن جعفر بن أبي كثير المدني.

- (حجاج) بن محمد الأعور، معلم. روى عنه يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل.

- (يونس) بن محمد، معلم.

- (سفيان) بن حسين، معلم.

- (شيبان النحوي) أبو معاوية، معلم.

- (قبيصة) بن ذؤيب الخزاعي، معلم جماعة. ذكر ذلك عثمان بن أبي شيبة عن إسحاق بن منصور عن محمد بن راشد عن جعفر بن عمرو بن أمية قال: كان قبيصة بن ذؤيب معلم كُتَّاب.

- (مسلمة) بن الفضل الأنصاري الأبرش. ولاه المهدي قضاء الري.

- (عبد الكريم) بن أمية بن أبي المخارق، معلم. روى عنه حماد بن سلمة.

- (صالح) بن كيسان. ضمه عبد العزيز بن مروان إلى عمر، ابنه. فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة، أمر عبد العزيز، وهو عامله على المدينة، أن ينفذه إليه. ففعل. فضمه إلى ابنه عبد العزيز بن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان.

- (علقمة) بن أبي علقمة المدني. روى عنه مالك بن أنس، ومحمد بن إسحاق، وكان روى عن أمه عن عائشة، وكان معلماً.

- (أبو عبيدة) بن محمد بن عمار بن ياسر كان مؤدّباً لعبد العزيز بن الوليد ابن عبد الملك بن صالح بن كيسان.

- (عون) بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. كان مؤدباً لأيوب بن سليمان وابن عبد الملك. فأتاه يوماً فاحتجب عنه، فقعد عون عن إتيانه، فغضب أيوب عليه فأتاه عون فعاتبه فعتب عليه. فدخل عون على سليمان فقال: ألزمتني إنساناً إن أتيته احتجب وإن قعدت عنه غضب وإن عتبت عليه عتب.

- (منذر) الأفطس الصنعاني.

- (وميمون) بن مهرا مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز.

- (عطاء) بن أبي رباح.

- (الحسن) بن عرفة. روى عن المبارك بن سعيد أخي سفيان الثوري، وعن خلف ابن خليفة.

- (عبيدة) بن حميد الحذّاء النحوي. كان معلماً لمحمد بن الرشيد أمير المؤمنين. أخبرني أبو توة النحوي ميمون بن حفص أن عبيدة علّم محمداً حتى بلغ سورة الحديد، فأمر له الرشيد بسبعين ألفاً فمات بعدما قبضها بأيام.

- (عبد الرحمن) بن هرمز.

- (شيبة) بن نصاح. وضم معاوية بن أبي سفيان.

- (دغفل) النسابة.

- (أبو عبد الله) المعلم.

- (ميمون) بن أبي شُراعة. روى عنه شعبة. ويزيد بن زريع، وغيرهما.

- (إسحاق) بن أبي إسرائيل. كان يعلم بالبصرة جماعة على باب حماد ابن زيد. ذكره القواريري.

- (معبد) الجهني القدري.

- (الكميت) بن زيد الشاعر. حدثني أبو حاتم عن الأصمعي، عن خلف الأحمر، قال: رأيت الكميت في مسجد (الكوفة) يعلم الصبيان.

- (الحجاج) بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي أمير العراق. كان يعلم بالطائف، واسمه كليب، وأبوه يوسف أيضاً كان معلماً. وقال مالك بن الريب في (الحجاج):

فما عسى الحجاج يبلغ جهده ... إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبداً من عبيد ابن إياد
زمان هو العبد المقر بذله ... يُراوح غلمان القرى ويغادي

وقال آخر فيه:

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما تُرى ... وآخر كالقمر الأزهر[1]

(١) يريد أن خبز المعلم مختلف.

تعليم المرأة في الاسلام ولمحة عن تعليمها بالعصور اللاحقة

عن النبي ﷺ: «من كانت له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، فعلمهن وأدبهن واتقى الله فيهن، حتى يغنينهن الله فله الجنة البتة، فسأله بعض الصحابة: أو بنتان أو أختان يا رسول الله؟ فأجاب: أو بنتان أو أختان»[1]. ثم قال: «أيما رجل كانت عنده وليدة (أي جارية) فعلمها، فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها، فله أجران»[2].

وروى الواقدي أن عائشة وأُم سَلَمة زوجتي الرسول عليه الصلاة والسلام قد تعلمتا القراءة والكتابة[3].

تعليم المرأة في صدر الإسلام

وبعض النساء المسلمات العالمات فيما بعد

ذكر المعلمة من النساء:

قال أبو عمر في «الاستيعاب»[4]: الشفاء[5] أم سليمان بن أبي

---

(١) شرح السنة للبغوي جـ١٣ ص ٤٤.

(٢) رواه البخاري في النكاح.

(٣) رواه مسلم وأبو داود برقم ٢٨٨٨.

(٤) الاستيعاب جـ ٢ ص ٧٦١.

(٥) في الاستيعاب: هي الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس بن خلف بن صَدَّاد ويقال ضِرار بن عبد الله بن قُرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشية العدوية من المبايعات.

قال أحمد بن صالح المصري: اسمها ليلى، وغلب عليها الشفاء، أسلمت قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأُوَل وبايعت النبي ﷺ وكانت من عقلاء النساء وفضلائهن، وكان رسول الله ﷺ يأتيها، ويقيل عندها في بيتها، وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه، فلم يزل ذلك عند ولدها حتى أخذه مروان. وقال لها رسول الله ﷺ: «علمي حفصة رُقْيَةَ النملة، كما علمتها الكتاب»، فأقطع لها رسول الله ﷺ دارها عند الحكاكين، فنزلتها مع ابنها سليمان، وكان عمر يقدمها في الرأي، ويرضاها، ويفضّلها، وربّما ولّاها شيئاً من أمر السوق».

حثْمة[1] قال لها رسول الله ﷺ: «عَلِّمِي حفصة رُقْيَةَ النملةِ كما علَّمْتِيها الكتاب».

وخرج أبو داوود ـ رحمه الله ـ عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليّ النبي ﷺ وأنا عند حفصة فقال: «ألا تعلمين هذه رُقْيَة النملة كما علمتها الكتابة[2]».

فائدة فقهية: قال أبو سليمان الخطابي في «معالم السنن»: في هذا الحديث دليل على أن تعلم النساء الكتابة غير مكروه.

ـ وحدثني بكر بن الهيثم قال: حدثنا عبد الرزاق عن مَعمر عن الزهري: عن عبيد الله بن عبد الله بن عقبة أن النبي ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب: «ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة؟ وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية»[2].

ـ وحدثني الوليد بن صالح، عن الواقدي، عن أسامة بن زيد: عن عبد الرحمن بن سعد قال: كانت حفصة زوج النبي ﷺ تكتب[3].

ـ وحدثني الوليد، عن الواقدي، عن ابن أبي سَبْرة، عن علقمة بن أبي علقمة: عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان أن أم كلثوم بنت عقبة كانت تكتب[3].

ـ وحدثني الوليد عن الواقدي، عن فروة، عن عائشة بنت سعد أنها قالت: علمني أبي الكتابة[4].

---

(١) الحثمة أكيمة صغيرة سوداء من حجارة، والحثمة: أرنبة الأنف، والحثمة: المهر الصغير، والجمع حثام. وأبو حثمة: رجل من جلساء عمر كنى بذلك.
(٢) تخريج الدلالات السمعيةص ٧١ ـ ٧٤.
(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٠.
(٤) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٠.
(٥) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨١.
(٦) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨١.

ـ وحدثني الوليد، عن الواقدي، عن موسى بن يعقوب، عن عمته، عن أمها كريمة بنت المقداد أنها كانت تكتب[1].

ـ وحدثني الوليد، عن الواقدي، عن ابن أبي سبرة، عن ابن عون، عن ابن ميَّاح، عن عائشة أنها كانت تقرأ المصحف ولا تكتب[2].

ـ وحدثني الوليد، عن الواقدي، عن عبد الله بن يزيد الهذلي، عن سالم سبلان، عن أم سلمة أنها كانت تقرأ ولا تكتب[3].

سؤال النساء للرسول ﷺ:

عن أم سلمة[4] ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاءت أُمُّ سُليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا رأت الماء»، فقالت له أم سلمة: يا رسول الله أو تحتلم المرأة؟ فقال: «تَرِبَتْ يداكِ ففيمَ يُشبِهُها ولدُها؟».

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن أسماء سألت النبي ﷺ عن غسل المحيض فقال: «تأخذ إحداكن ماءَها وسدرتها فتتطهر فتحسن الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً حتى تبلغ شؤون رأسها ثم تصب عليها الماء، ثم تأخذ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فتتطهر بها»، فقالت أسماء: وكيف أتطهر بها؟ فقال: «سبحان الله تطهرين بها؟» فقالت عائشة كأنها تخفي ذلك. تتبعين أثر الدم، وسألته عن غسل الجنابة فقال: «تأخذ ماء فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تفيض عليها الماء» فقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين[5].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨١.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨١.
(٣) تخريج الدلالات السمعية ص
(٤) صحيح مسلم: (باب وجوب الغسل).
(٥) تخريج الدلالات السمعية ص ٧٧.

لمحة عن تعليم المرأة في العصور اللاحقة:

اشتمل التعليم بالإضافة إلى الذكور الإناث، فقد كان كثير من العلماء والفقهاء يحضون على تعليم الفتاة، حتى نبغ في ديار الإسلام عدد كبير من العالمات، ويرى القابسي المتوفى سنة (٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م): [أن تعليم الأنثى القرآن والعلم حَسَنٌ ومن مصالحها][1].

فقد كان بوسع البنات التعلم في كتاتيب خاصة منفصلة عن كتاتيب الصبيان، خشية الفتنة، بالإضافة إلى ذلك فقد كان بإمكان المرأة التعلم والسماع على الشيوخ في بيوت خاصة، كانت تستخدم لهذا الغرض، وأغلب المتعلمات كن من بنات العلماء اللاتي يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوتهن لتعليم الطلاب، كما هو الحال مع ابنة القاضي المجاملي العلامة الشافعي، الذي كان يلقي دروسه في بيته، وقد بلغت هذه الطالبة من العلم مبلغاً عظيماً، حتى صارت تفتي إلى جانب أحد كبار العلماء، كما كانت حلقات نسائية خاصة بهن يلقيها بعض الشيوخ أو بعض الواعظات كالشيخة شهدة بنت الأبري المتوفاة سنة عام (٥٧٤ هـ - ١١٨٨ م) والتي كانت تدرس مختلف العلوم بعد أن تلقت العلم عن عدد كبير من الشيوخ، وكان والدها قد أحضرها مجالس السماع حتى صارت أسند أهل زمانها، وما إن أتمت علومهاواستوعبت فنونها حتى أخذت تنشر علمها بين الناس، وكانت دارها برحبة القصر خير مكان لتدريسها، وأصبح مركزاً للعلماء والعالمات فقد قصدها طلبة العلم من كل صوب، ودرس عليها أناس أصبحوا فطاحل العلماء وأئمة الحديث، كعبد الكريم السمعاني المتوفى سنة (٥٦٣ هـ - ١١٦٧ م) والمتوكل المشهور عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م) وغيرهما من العلماء[2].

---

(١) الحياة العلمية بالعراق ص ٢١٦.

(٢) الحياة العلمية بالعراق ص ٢١٦.

التعليم بالكتاتيب

ومفردها كُتَّاب.

«وقد عرف في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام، وكان لتعليم القراءة والكتابة، ويروى أن عدد القر شيين الذين كانوا يقرأون ويكتبون عندما جاء الإسلام، لم يتجاوز سبعة عشر رجلاً، ويلوح أنه كان هناك نوعان من الكتاتيب»(١).

«نوع يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة، وكان يقوم بالتعليم بعض الذميين ، في أحيان كثيرة، ولم يجلس لتعلم القراءة والكتابة من المسلمين في صدر الإسلام إلا عدد قليل جداً»(٢).

«ونوع ثانٍ كان مكاناً يتعلم فيه صبية الكُتَّاب القرآن الكريم والدين، وأصبح يطلق عليه اسم الكُتَّاب، على أن الظاهر من الشواهد التاريخية، أن كتاتيب حفظ القرآن، لم تظهر في العهد المبكر للإسلام، فقد كان الأطفال يندسون بين الكبار في مجالسهم وحلقاتهم بالمساجد، وتلقى بعضهم القرآن من آبائهم وذويهم أو من مدرسين خصوصيين، ولم تكن الكتاتيب في المساجد»(٣).

فقد نص على أنه لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد، لأن النبي ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين، لأنهم يسودون حيطانها، ولا يتحرزون

(١) تطور الفكر التربوي، ص ١٩١.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.

من النجاسات، بل يتخذون للتعليم حوانيت في الدروب، وأطراف السوق، وقد لجأ بعض المدرسين ـ على الرغم ـ من التحذيرات إلى اتخاذ زوايا من المساجد يعلمون بها أو غرفاً ملحقة بالمساجد»[1].

واختلف حجم الكتاب من حجرة واحدة إلى مكان متسع، فيروى عن ياقوت الحموي في (معجم البلدان): [أن كتاب أبي القاسم البلخي كان به ٣٠٠٠ تلميذ وكان فسيحاً يتسع لهذا العدد، ولهذا احتاج البلخي أن يركب حماراً ليتردد بين هؤلاء وأولئك، ويشرف على جميع تلاميذه][2].

وقد ازداد عدد الكتاتيب في القرن الثاني الهجري حتى أصبح بكل قرية كتاب، ويذكر ابن خلدون في مقدمته [أن ما درسه الولدان، اختلف من قطر إسلامي لقطر آخر]، ولكن يلوح أن الدراسة اشتملت على القرآن وأحاديث الأخبار، وبعض الأحكام الدينية، والشعر ومبادىء الحساب، وبعض قواعد اللغة العربية، هذا إلى جانب تعلم القراءة والكتابة، والخط الذي له مدرسون مختصون واستعمل الصبية الألواح في الكتابة[3].

والظاهر أن مكانة الكتاب في القرون الهجرية الأولى كانت عالية الشأن، فهو بداية الطريق إلى تعليم أبنائهم.

فإن الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: [كنت يتيماً في حجر أمي، فدفعتني في الكتاب، فلما ختمت القرآن، دخلت المسجد لطلب العلم، والتوسع في الثقافة الدينية][4].

ويروى عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه كان معلماً بأحد الكتاتيب، يعلم الأطفال، ويأخذ خبزاً، بينما كان عبد الله بن الحرث يعلم دون أن يأخذ أجراً[5].

---

(١) تطور الفكر التربوي جـ ١٩٠ وما بعدها.
(٢) حضارة العراق جـ ٩ ص ٤٤٨.
(٣) تطور الفكر التربوي جـ ١٩٠ وما بعدها.
(٤) تطور الفكر التربوي ص ١٩٠ وما بعدها.
(٥) نفس المصدر السابق.

سن الالتحاق ومدة الدراسة بالكُتَّاب:

«أغلب الأحيان كان الأطفال يلتحقون بالمدارس والمكاتب في سن تتراوح بين الخامسة والسابعة، وأن هذه السن كانت تمثل مرحلة التعليم الأولى. وكانت القاعدة الشرعية لدى معظم السلف رضي الله عنهم أجمعين، إنما كانوا يقرئون أولادهم في سبع سنين لأنه زمن يؤمر فيه الولي أن يكلف الصبي بالصلاة والآداب الشرعية. فإذا كان الصبي في ذلك السن فهو محتاج إلى من يأتي به إلى المكتب»[١].

«وهذا يؤيد ما أكدته الدراسات الحديثة حيث أن حدود هذه السن هي الفترة الزمنية الملائمة لتعلم القراءة والكتابة، وذلك لأن القراءة ما هي إلا عملية تناسق عضلي، بين ما تنظر إليه العين، وما ينطق به اللسان، وهذه الدقة في هذه العملية من التناسق تظهر في الغالبية العظمى من الأطفال في سن السادسة، يضاف إلى ذلك أن الدقة العضلية في أطراف الأنامل، وهي الشرط الأساسي للكتابة تظهر في حوالي هذه السن[٢]، على أن سن السابعة لم يكن القاعدة المطردة لإلحاق الصبي بالكتاب آنذاك. فقد يلتحق الصبي بالمكتب في سن الخامسة»[٣].

فقد ذكر السخاوي أن شيخه ابن حجر العسقلاني لم يدخل المكتب إلا بعد أن استكمل خمس سنين[٤]. على أنه في حالات كان بعض الأهالي يدفعون بأولادهم لهذه المكاتب، وهم دون سن الخامسة. حتى قال ابن الحاج عن هؤلاء الناس في وقته: [إن الغالب في هذا الزمان أنهم يدخلون أولادهم المكتب في حال الصغر، بحيث أنهم يحتاجون إلى من يربيهم ويسوقهم إلى المكتب. ويردهم إلى بيوتهم، بل بعضهم يكون سنه لا يقدر أن يمسك ضرورة

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٢ وعبد الغني عبد العاطي ص ١١ نقلاً عن حجة نصر بن عبد الله الجراكسي (٥٣٢) أوقاف.

(٢) ابن الحاج العبدري: مدخل إلى الشرع الشريف جـ ٢ ص ٣١٥.

(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٢ - ٧٣.

(٤) أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي ط. ٩ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ ص ١٨٠.

نفسه بل يفعل ذلك وفي المكتب ويلوث ثيابه ومكانه، فليحذر (أي المعلم) من أن يُقرىء هؤلاء إذ لا فائدة من إقرائه لهم إلا وجود التعب][1].

«والعبدري يشير بذلك إلى حقيقة هامة من حقائق علم النفس، وهي أن النضج أول شرط من شروط التعلم الهادف المقصود، وأن قدرة الطفل على التعلم مشروطة بنضجه المتعلق بنموه الجسمي لأعضاء الجسم المتصلة بالتعلم، ودرجة النمو العامة في الوظائف العضلية المختلفة»[2].

ويبدو أنه لم تكن هناك مدة محدودة للفترة التي يقضيها الطفل في المكتب، وإنما يرجع ذلك إلى مدى استعداد الطفل. وقابليته للتعلم، على أن هناك بعض الإرشادات لتمديد مدة الدراسة بالمكتب في هذه الفترة، فقد أشارت بعض المصادر، إلى أن الصبي إذا بلغ سن البلوغ ترك المكتب، وهذه السن تتراوح عند الذكور ما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، فالصبي إن ظل [بالمكتب حتى البلوغ دون أن يحفظ القرآن، فكان يصرف ليحل محله أحد صغار الأيتام،وكان الطبيب يزور المكتب كل شهر عند تنزيل الأيتام، ويكشف على من يظن به البلوغ منهم فمن وجده بلغ أخبر بحاله، فيقرر الناظر غيره مكانه][3].

وليست هذه الحادثة دائمة، بل قد تكون مدة إقامة الطفل، أقل وأكثر من هذه المرة. ولكنها في الغالب لم تكن لتزيد قليلاً عن ثماني سنوات أو سبع»[4]][5].

---

(1) علي سالم النباهين ص ٢٥٠ نقلاً عن السخاوي: الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والردة، تحقيق جودة هلال وأخوه، الدار المصرية للتأليف والترجمة (بدون تاريخ ص ٧٦.

(2) ابن الحاج العبدري، مدخل الشرع الشريف جـ ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

(3) أحمد زكي صالح علم النفس التربوي ص ٦٧٨.

(4) علي سالم البناهين ص ٢٥٠ نقلاً عن حجة وقف النوري رقم ٨٨٣ أرشيف وزارة الأوقاف القاهرة.

(5) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٣.

أنواع الكُتّاب من ناحية المادة التي تدرس به:

«كانت هناك كتاتيب لتعليم الخط والقراءة، وأخرى لتعليم القرآن، إذ ترد الإشارة إلى أن سعيد بن عطاف الهمذاني المتوفى سنة (٦٠٣ هـ - ١٢٠٦ م) كان يعلم الصبيان الخط، وله مكتب بقراح أبي الشحم في بغداد»[١].

«وأن يحيى بن المبارك الزبيدي البغدادي المتوفى سنة (٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م) كان له مكتب بشارع الرقيق، يعلم فيه الصبيان الخط والحساب»[٢].

«ويقول ابن جبير: وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط والأشعار وغيرها. تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة، والمُكَتِّبُ على حدة، فينفصل من التلقين إلى التكتيب. وعليه فهناك نوعان من الكتاتيب أحدها للقراءة والكتابة، والآخر لتلقين القرآن، وتعلم أصول الدين، ويؤكد ذلك ما رواه ابن خلدون [ولتعليم الخط عند أهل المشرق قانون خاص، ومعلمون له على انفراد] «أما ما يتعلمه الطفل في المكتب فكان القراءة والكتابة، والقرآن والإعراب والهجاء والنحو والعربية والحساب»[٣].

الكتاتيب عند ابن خلدون:

«كان الطفل يذهب إلى الكتاب في ما بين الخامسة والسابعة، ويظل بالكتاب إلى سن الرابعة عشرة إذا كان من أسرة ذات يسر، أما إذا كانت معوزة فيبقى سنتين أو ثلاث سنوات، ويبقى الطفل بالكتاب من شروق الشمس إلى آذان العصر، وكان الأطفال يدرسون بالكتاب القرآن الكريم، وهو بمثابة أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل من بعض الملكات [وسبب ذلك أن تعلم الصغر أشد رسوخاً، وهو أصل لما يعده، لأن السابق الأول للقلوب، كالأساس

---

(١) الحياة العلمية بالعراق ص ٢١٩.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.

للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال يبنى عليه]. إلى جانب حفظ القرآن مقسماً إلى أقسام، كان الطفل يتعلم قليلاً من الحساب واللغة والنحو والشعر»[1].

بناء الكُتّاب والنظام الداخلي له:

«يتم تعليم الصبيان في الكتاب، وهو مكان يستأجره المعلم للتعليم، ولا يجوز له تعليم الصبيان في المساجد، فقد سئل مالك: عن تعليم الصبيان في المسجد قال: [لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة، ولم ينصب المسجد للتعليم]، وعليه أي المعلم كراء الحانوت حيث يتوجب على المعلم قبل ممارسة التعليم إيجاد المكان الملائم للتعليم شرط أن لا يكون هذا المكان في مسجد، لأن التلميذ الصغير الذي لم يبلغ الحلم بعد لا يعي آداب المسجد»[2].

ويراعى المعلم في الكتاب الأمور التالية:

١ - «يحق له أن يعلم غير طلابه، إذا استطاع أن يقوم بواجبه خير قيام فإذا استأجر الرجل معلماً، على صبيان معلومين جاز للمعلم أن يعلم غيرهم، إذا كان لا يشغله ذلك عن تعليم هؤلاء الذين استؤجر لهم»[3].

٢ - «يسمح للمعلم الخروج بالصبيان أثناء الدوام الرسمي من الكتاب للمشاركة في قضايا المجتمع الحيوية»[4].

فهم جزء من هذا المجتمع الذي سيشاركون في تطوره وتقدمه، ويعطي نموذجاً عن القضايا الاجتماعية التي يحق للصبيان المشاركة فيها[5]:

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩.
(٢) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٨.
(٣) نفس المصدر السابق ص ٨٨.
(٤) نفس المصدر السابق. ص ٨٨.
(٥) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٨ وما بعدها.

[إذا أجدب الناس واستسقى بهم الإمام فأحب المعلم أن يخرج بهم من يعرف الصلاة منهم وليبتهلوا إلى الله بالدعاء ويرغبوا فيه][1].

٣ - يذهب الصبي إلى الكتاب ليقوم بمهمة واضحة وهي تلقي العلم [فلا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه][2].

منهاج التعليم بالكتاتيب:

«نظر المربون في هذا العصر إلى المنهج على أنه أداة لتنشئة الأطفال، التنشئة الصالحة، ومساعدتهم على تنمية استعداداتهم، وإعدادهم لممارسة حقوقهم وواجباتهم، وقد تضمن المنهاج المعارف الأساسية التي ينبغي أن يلم بها الطفل، وقد لخص لنا ابن الأخوة في معالم القربى المواد التي على المعلم أن يعلمها لتلاميذه فقال[3]:

١ - أن يعلمه السور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة الحروف وضبطاً بالشكل، ويدرجه بذلك حتى يألفه طبعاً[4].

٢ - يعرفه بعقائد أهل السنة[5].

٣ - أصول الحساب[6].

٤ - وما يستحسن من المراسلات وفي وقت البطالة يأمرهم بتجويد الخط على المثال ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظاً غائباً لا نظراً[7].

المنهج بهذه الصورة يحوي المواد الأساسية اللازمة لمرحلة التعليم الأولى، وهو وإن كان يغلب عليه الفرض الديني، وتصطبغ محتوياته بالصبغة

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٨.
(٢) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٨.
(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٥.
(٤) ابن الحاج العبدري جـ ٢ ص ٣٢٢.
(٥) نفس المصدر. جـ ٢ ص ٣٢٢.
(٦) نفس المصدر. جـ ٢ ص ٣٢٢.
(٧) نفس المصدر. جـ ٢ ص ٣٢٢.

الدينية، إلا أنه، كما يهتم ببناء العقيدة الصحيحة في نفوس التلاميذ (ثم يعرفه عقائد أهل السنة)، ويؤمن صلتهم بربهم، فإنه أيضاً يهتم بتنمية الجانب العقلي، وتنمية ما يرتبط بالعقل من استعدادات ومواهب عن طريق دراسة علوم عقلية كأصول الحساب وتنمية الجانب الذوقي واللغوي، عن طريق دراسة ما يستحسن من المراسلات، ودراسة الخط، وقد حرص المربون على توضيح خطة الدراسة آنذاك بالمكتب وحددوا مواعيد الدراسة بالمكتب فيما يشبه جدول الحصص»[1].

وقد استحبوا لصبيان المكتب [أن يكون، وقت كتبهم في الألواح معلوماً، ووقت تصويبها معلوماً، وكذلك قراءة الأحزاب حتى ينضبط الحال ولا يختل النظام][2].

واستحب المربون، راحة الطفل يومين في الأسبوع فقال العبدري: [انصراف الصبيان وراحتهم في الأسبوع أمر لا بأس به، بل ذلك مستحب لقوله عليه الصلاة والسلام [روحوا القلوب ساعة بعد ساعة]. فإذا استراحوا يومين في الجمعة نشطوا لباقيها][3]، هذا إلى جانب أن المعلم ينبغي له أن يصرف الصبيان لغذائهم، ويترك لهم مع ذلك وقتاً يستريحون فيه في بيوتهم»[4].

ولحفظ النظام بالمكتب رأى المربون «ألا يغيب المعلم» عن المكتب أصلاً، ما دام الصبيان فيه، إذ إنهم، لا عقل لهم يمنعهم مما يخطر لهم فعله، فلا بد لهم من راع يرعاهم، بنظره ويسوسهم بعقله ويؤدبهم بكلامه»[1]][5].

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٥.
(٢) ابن الأخوة معالم القربى ص ١٣٠. والأحزاب أجزاء القرآن.
(٣) ابن الأخوة معالم القربى ص ١٣٠.
(٤) ابن الحاج العبدري جـ ٢ ص ٣١٦.
(٥) ابن الحاج العبدري جـ ٢ ص ٣٢١. وفن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٥ وما بعدها.

طريقة التدريس في الكتاتيب:

كان المنهج الدراسي في الكتاتيب يبدأ بتعليم الحروف الهجائية ثم الحروف المحركة بالحركات المختلفة، ثم دراسة أرقام الحروف الأبجدية، ويتم ذلك بأن يقوم مدرس الكتاب بكتابة ثلاثة أو أربعة حروف من الحروف الهجائية على لوح الطالب، وكل حرف مكتوب ثلاث مرات، وعليه علامة التشكيل مثل: بَ، بُ، بِ، ويطلب من الطالب قراءة ذلك عدة مرات حتى يحفظها، فإذا حفظها قام المدرس بكتابة الحروف الأخرى لا حسب الترتيب السابق حتى يتم الطالب حفظ جميع الحروف الهجائية بالحركات، ويعرف ذلك بالقاعدة البغدادية[1].

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الكتابة وتركيب الكلمات، وفي نفس الوقت يقوم الطالب بتعلم بعض السور القصيرة من القرآن الكريم، وأول سورة يبدأ بقراءتها عادة سورة الفاتحة ثم سورة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ويستمر في قراءة قصار السور حتى يتم جزء عم، وبعدها ينتقل إلى الأجزاء التي تليه حتى نهاية القرآن الكريم، وتكون دراسته للقرآن الكريم بطريقة تنازلية، فيبدأ بالجزء الثلاثين، وينتهي بالجزء الأول من القرآن، علماً بأن الطفل قد لا يكتفي بدراسة القرآن فقط وإنما يقوم بحفظ جزء أو أكثر منه، وربما يقوم بحفظ القرآن بكامله، وهذا يعتمد على مقدرة الطفل على الاستيعاب، وإمكانيات والده المادية وفي معظم الكتاتيب يجب على الطالب أن يجيد القراءة والكتابة، ومعرفة مبادىء الحساب (كالأعداد، ومسائل الجمع والطرح، والضرب والقسمة) بجانب حفظه للقرآن بكامله أو أجزاء منه، وتجويده، وتكون الدراسة على شكل جماعات أحياناً، أو في شكل أفراد، على حسب إمكانيات معلم الكُتاب، أما بالنسبة لتعليم الخط حتى يجيده إجادة تامة ويقوم الطفل بالالتحاق بهذه الكتاتيب بعد أن يتم دراسة القرآن الكريم، على أن ذلك لم يكن قاعدة، وإنما وجدت كتاتيب وضعت ضمن مناهجها تدريس الطالب مادة تحسين الخط بجانب المواد الأخرى[2].

---

(١) الكتاتيب في الحرمين الشريفين ص ٤٧ ـ ٤٨ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق. ص ٤٧ ـ ٤٨ وما بعدها.

معلمـو الكتاتيـب:

«لم يكن معلمو المكاتب يُعدُّون في هذا العصـر إعداداً مهنيـاً لممارسـة التعليم، بل كانوا يتلقون معلومـاتهم التي يعتقد أنهـا ضروريـة لممارسـة مهنة التعليم، عن طريق اتصالهم الشخصي بالشيوخ وقد كان من أهم ما يتطلبه تعليم الصبيان في المعلم: أن يكون حافظاً لكتاب الله، مُلماً ببعض النحو، وأصول الحساب والخط[1] (عنده علم من العربية)[2].

وقد كان يعاون المعلم في تعليم الصبيان بالكتاتيب عريف، وقد اختلف العريف في الكتاتيب التي ينشئها المعلمون، عن العـريف في مكاتب السبيـل والأيتـام، ففي الأولى يكـون العـريف غـالبـاً أحـد الصبيـان الـذين انتهـوا من دراستهم، أو قاربوا على الانتهاء، ويدفعون لمعلمهم الأجرة عند قيامه بتعليمهم وقد عرفه أبو الحسن القـابسي بأنـه: [الذي ختم وعـرف القرآن، ومستغنٍ عن التعليم]، ويجـوز كمعلم أن يعين أكثر من صبي ليكـون عـريفـاً، وإن حـرص المربون في ذلك العصر، على تبـدل الصبيان على العرفاء، منعاً للمفاسد التي تنشأ بسبب الود بين الصبي وعريفه»[3].

وقد يهمل العريف في متابعة تعليمه ويخفي أمر إهماله عن معلمه. فقال ابن الحـاج العبـدري إن علم المعلم [أن يبـدل الصبيـان في كـل وقت على العرفاء، مرة يعطي صبيان هذا لهذا، ومرة يعطي صبيان هذا لهذا لأنه إذا كان لواحد صبيان معلومون فقد تنشأ بهم مفاسد، بسبب الود، لا يشعر بهـا المعلم فإذا فعل ما تقدم ذكره سلم من هذا الأمر»[4].

إلى جانب المعلم والعريف، عرفت الكتاتيب آنـذاك وظيفة معلم الخط وكان يعرف [بالمُكَتِّب] وقد وردت في بعض حجج الوقف هذه الوظيفـة، ومن ذلك ما جاء في حجة السلطان الغوري [ومن ذلك ثلاثمائة درهم تصرف لرجل

---

(١) ابن الحاج العبدري جـ ٢ ص ٣٢٢.

(٢) نفس المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٢٢.

(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦ وما بعدها.

(٤) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦ وما بعدها.

كاتب دَيِّن خَيِّر مأمونٍ عالمٍ بعلم الكتابة، مجاز بالأقلام السبعة، يقرره الناظر في وظيفة التكتيب بهذا الوقف، على أن يتردد للمكتب المذكور، أو الموضع الذي يعينه له الناظر يومين في كل أسبوع، ويعلم الناس من فنون الكتابة ما يرغبون في تعلمه منه على جاري عادة أمثالة في ذلك، غير أن هذه الوظيفة لم تكن منتشرة في مكاتب التعليم][1].

عدد التلاميذ بالكتاتيب:

«تفاوت عدد التلاميذ بالمكاتب، تبعاً لشهرة المعلم وقدرته على التعليم، وتمتعه بالصلاح والتقوى أحياناً، وأحياناً أخرى تبعاً لتحديد حجج الوقف لأعداد الأطفال في مكاتب السبيل، وتبعاً لريع الموقوف للصرف منه على التلاميذ، ومعلميهم بالمكتب عموماً، وقد رأى البعض أن متوسط عدد التلاميذ بالمكتب كان يتراوح ما بين ثلاثين أو أربعين طفلاً. على أن عدد التلاميذ تراوح في مكاتب السبيل ما بين خمسة أطفال وهو أقل عدد إلى مائة طفل وهو أقصى عدد. وكان بعضها يحوي عشرين يتيماً، وربما زاد عدد التلاميذ فيصل العدد إلى أربعين يتيماً»[2].

مكاتب المعلمين الخاصة:

«وهي مكاتب تم إنشاؤها من قبل بعض المعلمين أنفسهم، بهدف تعليم الطلاب القرآن والخط، حيث كان [أهلوهم يرسلونهم] إلى هذه المكاتب ليتعلموا نظير أجرة تدفع إلى صاحب المكتب من المعلمين. وكانت هذه المكاتب تقوم على استقلال المعلمين بفتح مكاتب لهم بعد أن يحترفوا التعليم، ويتقاضون من آباء الصبيان أجر تعليمهم لأبنائهم، وقد يقوم معلم واحد بفتح هذا المكتب، وقد يشترك مع غيره من المعلمين في فتحه»[3].

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦ وما بعدها.

(٢) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٤.

(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٥ وما بعدها.

«وقد ثار جدل حول شرعية أخذه الأجرة على التعليم أو عدم شرعية ذلك، فإن مبدأ تعليم الأطفال بأجرة كان فرض نفسه، واستقر الأمر في العصر الذي عاش فيه ابن جماعة على جواز ذلك في أنحاء العالم الإسلامي»[١].

«وراح الفقهاء يضعون لأجر التعليم للصبيان شروطاً وقواعد منظمة، كالإجازة، والإتاوة والاشتراط مع ضرب الأجل والمشاهرة وغيرها»[٢].

ومن الشروط الشرعية لهذه الأجرة أنهم طلبوا من المعلم أن يتأكد من أن المال الذي يتقاضاه، نظير تعليم الأطفال [وقد جاء من مصدر حلال]. فهذا ابن الحاج العبدري وهو من معاصري الشيخ ابن جماعة يحذر المعلم من أخذ الأجر من غير جهة الحلال، فإن تعذرت جهة الحلال فلا يأخذ شيئاً، ويحذر من هذا جهده، فإنه من أبواب أكل أموال الناس بالباطل»[٣].

وقد ذكر ابن الأخوة في معالم القربى قوله: لا يجوز تعليم الخط في المساجد لأن النبي ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها وينجسون أرضها، إذ لا يتحرزون من البول وسائر النجاسات، واستحب علماء هذا العصر، أن يكون موضع الكتاب بالسوق إن أمكن، فإن تعذر فعلى شوارع المسلمين، أو الدكاكين، ويكره أن يكون بموضع ليس بمسلوك للناس، والعِلة في ذلك فيما يراه ابن الحاج العبدري، حماية الأطفال «وفيه فائدة أخرى وهي إظهار الشعائر لأنه أصلها»[٤].

«ومع ذلك فقد ألصقت الكتاتيب بالمساجد آنذاك، أو بنيت إلى جوار الخوانق»[٥].

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٥ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٥ وما بعدها.
(٤) نفس المصدر السابق. ص ٧٥ وما بعدها.
(٥) نفس المصدر السابق. ص ٧٥ وما بعدها.

الرعاية الصحية للتلاميذ بالكتاتيب:

[في عصر ابن جماعة][1]:

«اهتم المربون في عصر ابن جماعة بصحة التلاميذ في المكاتب، فنصحوا بعزل الطفل المريض عن زملائه، حتى لا تنشر عدوى المرض بينهم، فقال ابن الحاج العبدري: [ينبغي إذا اشتكى أحد الصبيان، وهو في المكتب بوجع عينيه أو شيء من بدنه، وعلم صدقه، أن يصرفه (أي المعلم) إلى بيته، ولا يتركه يقعد في المكتب][2]، لتمكين والديه من معالجته، قبل أن يستفحل مرضه، وليمنع انتشار العدوى بين تلاميذ مكتبه»[3].

وإذا كانت الأمراض تنتقل إلى التلاميذ عن طريق أكل الطعام والحلوى المكشوفة من البائعين الجائلين، فقد كانت توجيهات المربين آنذاك للمعلم:

[ألا يدع أحداً من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان، إذ فيه من المفاسد إذا اشترى منه][4].

«هذا بالإضافة إلى ما ذكر من زيارة الطبيب لبعض مكاتب السبيل، حيث كان يوقع الكشف الطبي على التلاميذ بصفة دورية»[5].

وقد عرفت المكاتب آنذاك نظام الإجازة المرضية في حالة المرض حيث كان [يسمح للطفل بعدم الحضور لحين شفائه][6]، ومن ذلك ما تذكره بعض الحجج: ومن غاب عن حضور المكتب المذكور لمرض أو ضعف، أجيز وأُجْريَ عليه معلومه إلى حين حضوره»[7].

---

(١) ٧٣٣ هـ.

(٢) علي سالم النباهين ص ٢٥١ نقلاً عن حجة وقف الأشرف العبادي تحقيق المعهد العلمي الفرنسي ص ٣.

(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٤.

(٤) ابن الحاج العبدري جـ ٢ ص ٣١٢.

(٥) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٤.

(٦) ابن الحاج العبدري جـ ٢ ص ٣١٢.

(٧) نفس المصدر السابق. جـ٢ ص ٣١٢.

«واهتم المربون بنظافة المكتب والأدوات المستخدمة فيه منعاً للتلوث المسبب للأمراض فاشترطوا أن يكون لمسح الألواح موضوع طاهر، مصون نظيف، ويشترط في الخِرَقِ التي تمسح بها الألواح. أن تكون طاهرة، وأن يكون الماء الذي تبل منه حين يمسح به طاهراً، والأفضل أن يكون الماء غير مستعمل، ويتعين عليه (أي المعلم) أن يمنع الصبيان مما اعتاده بعضهم من أن يمسحوا الألواح أو بعضها ببصاقهم، وذلك لا يجوز لأن البصاق مستقذر»[1].

«إلى غير ذلك من توجيهات المربين في ذلك العصر [المتعلقة بنظافة الثوب، واليدين أثناء الكتابة، ونظافة وصيانة المكتب وغيرها][2]، وكذلك نظافة الأمكنة التي يقضي بها التلاميذ حاجتهم، ونظافة وطهارة الماء الذي يشربون منه خلال اليوم المدرسي»[3]][4].

العريف في الكتاتيب:

«يحظر على المعلم أن يعين عريفاً للصف، يتولى أمور الصبيان أثناء غيابه، إذ لا يجوز للمعلم التغيب عن الصف، ولا أثناء وجوده، لأنه الوحيد المسؤول عن الصبيان. لكن يتاح للمعلم أن يعين عريفاً للكتاب ضمن الشروط التالية»[5]:

١ - «إذا كان مثله في نفاذه فقد سهل في ذلك، إذا كان في ذلك للصبي منفعة»[6].

٢ - «ألا يجعل لهم عريفاً منهم إلا أن يكون الصبي قد ختم القرآن، وهو مستغن عن التعليم»[7].

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٥.
(٢) ابن الحاج العبدري مدخل الشرع الشريف جـ ٢ ص ٣١٧ - ٣١٨.
(٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٣١ - ٣٣٤ فصل (في تزويق الألواح).
(٤) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٥.
(٥) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٢٣٣.
(٦) نفس المصدر السابق.
(٧) نفس المصدر السابق.

٣ ـ «يشترط في العريف أن يكون قد أنهى تعليمه في الكتاب، فلا يضيع عليه شيء من الدروس أو أنه طالب متفوق، يتمتع بشخصية قوية قادرة على القيادة، فيحترس في هذا المجال تحت إشراف المعلم، فإن ذلك منفعة للصبي»[١].

العريف في مكاتب السبيل: يتم تعيينه من قبل صاحب الوقف بأجر معين وبشروط معينة:

«أما العريف في مكاتب السبيل، فقد كان رجلاً يعينه الواقف أو ناظر الوقف لمساعدة المعلم في تعليم الصبيان، وكان يتقاضى على وظيفة العرافة أجراً، فتذكر حجج الوقف والشروط الواجب توفرها في العريف، وتحدد أجره، من ذلك ما جاء في حجة السلطان الغوري:

[ومن ذلك مائتا درهم تصرف لرجل يتصف بصفات المؤدب المذكورة فيه، يقرر الناظر هذا الرجل عريفاً بالمكتب][٢]، ومثل ذلك وجد في حجة السلطان قايتباي:

[ويصرف لرجل يكون عريفاً للأيتام المذكورين فيه، معيناً لمؤدبهم على تأديبهم وتعليمهم القرآن العظيم والخط العربي على عادة العرب في ذلك[٣]][٤].

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون.

(٢) القابسي (أبو الحسن علي بن محمد بن خلف): الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين (ملحقة بكتاب التربية في الإسلام د. أحمد فؤاد الأهواني) جـ ٢ والمعارف بمصر ١٩٧٥ ورقة ٦٣ ب.

(٣) ابن الحاج العبدري، مدخل إلى الشرع الشريف جـ ٢ ص ٣١٥.

(٤) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦.



التعليم بالمسجد

مقدمة عامة عن دور المسجد في التعليم:

«كانت المساجد على مر العصور منارة العلم، ومثابة العلماء، في ساحتها انعقدت حلقات الدروس وأقيمت المناظرات، وتشققت المذاهب والآراء، فكان لذلك أثره البعيد في تقدم العلوم والآداب والفنون، وعلى منابرها وقف الخلفاء واللُّسن من الخطباء، وأثر عنهم القول البليغ، والنصح الرشيد؛ ما تناقله الرواة، وأودع بطون الكتب والأسفار.

وكانت المساجد أيضاً ـ لما أُلحق بها من مدارس ومعاهد، وما أنشىء فيها من السبل وخزائن الكتب، وما وقف عليها من أحباس، وما انعقد في جنباتها من مجالس القضاء وما افتَنَّ به بُنَاتُها من رائع العمارة والزخرفة والتجميل، يمثل أكرم المعاني نحو رسالة الخير والحق والجمال.

ثم هي قبل ذلك أشرف البقاع عند المسلمين، وأقربها إلى نفوسهم، وأروضها على قلوبهم، يهرعون إليها خمس مرات في اليوم، يؤدون الشعائر، ويقيمون الصلوات، ويخرجون منها أصفى ما يكونون أفئدة وعقولاً.

لهذه المزايا السامية، والخصائص الجليلة، استحقت من العلماء والباحثين أن يولُوها النصيب الأوفى من الدراسة والبحث، وأن يخصوها بالتأليف والتصنيف»[1].

---

(١) مقدمة أعلام الساجد بأحكام المساجد للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣.

«ولم يختلف المسلمون عن غيرهم في الباعث على إنشاء المساجد، فقد أقامها الناس لأغراض دينية، لهذا استعملوا أماكن العبادة كالكنائس والأديرة والهياكل والمعابد للتدريس، كما قام رجال الدين بتعليم الأولاد، وهذا ما فعله المسلمون، فلم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب، بل كان محكمة للتقاضي، ومكاناً للدراسة بل أيضاً ميداناً لاجتماع الجيش، وداراً لاستقبال السفراء، وقد سمي المسجد بيت الله فلا يحتاج الداخل إلى استئناس ولا استئذان للدخول سواء كان ذلك للدراسة أو للتعبد، ويلوح أن المسلمين تأثروا بالعرب قبل الإسلام، وكان لهؤلاء متعبدهم المقدس وهو البيت الحرام، حيث أقام فيه عبدة الأصنام أصنامهم على اختلافها، وبعد أن أبعد المسلمون عن مكة، وخرج النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة، أقام في قباء مسجداً وهو أول مسجد في الإسلام، ثم بنى الرسول ﷺ أثر دخوله المدينة مسجده بالمربد وكان يجلس فيه يعلم أصحابه دينهم ودنياهم، وصار المسلمون يبنون في كل مدينة مسجداً، وعلت المآذن في مختلف الأمصار في المدن والقرى»[1].

التعليم في الجوامع والمساجد:

يطلق اسم « المسجد » على المكان الذي تقام فيه الصلوات الخمس، وعندما تقام صلاة الجمعة يطلق عليه « الجامع » ولكن هذا الأمر ليس دقيقاً فيما يتعلق بالمسجد حيث تقام صلاة الجمعة في كثير من المساجد.

وكانت المساجد تقوم بالبداية بوظيفتها كمؤسسات دينية وتعليمية إلى جانب وظيفتها كأماكن للعبادة، فكان الرسول ﷺ، وخلفاؤه من بعده، يعلمون الناس في جامع المدينة أمور دينهم ودنياهم، وكان تميم الداري يقص في هذا المسجد في عهد عمر بن الخطاب، ويعظ الناس كل يوم جمعة، فلما استخلف عثمان استأذنه أن يقوم في الناس مرتين فأذن له. وقد تخصصت الجوامع بالبداية بالعلوم الدينية والفقهية والحديث، ثم العقائد وعلوم اللغة العربية.

---

(١) تطور الفكر التربوي ص ١٩٣.

وكان تخطيط المساجد والجوامع أثناء تخطيط وبناء المدن يتم وسط المدينة، ليسهل الوصول إليها حتى أضحت في كل من البصرة والكوفة من أعظم مراكز الحركة الفكرية خلال القرن الأول الهجري وحتى الثاني.

وعلى سبيل المثال فقد تطورت أعداد الدارسين بشكل أدى إلى توسيع حلقات الدروس بالمساجد لتكون لكل شيخ حلقة خاصة على غرار الشعب المدرسية، في وقتنا الحاضر، وفيما بعد تطورت لتشمل حلقة أهل الحديث وحلقة النحويين أي ظهر الاختصاص في هذه الدروس. ويمكن الحكم على أهمية الشيخ من خلال عدد الأشخاص في حلقته كدليل على اتساع علمه، وكان لبعض الشيوخ حلقتان واحدة قبل صلاة الظهر للقرآن مثلاً وأخرى بعد صلاة العصر للحديث أو النحو، وهناك بعض الروايات تشير أنه كان في جامع المنصور في بغداد سنة ١٩٥هـ عندما قدم الإمام الشافعي، وجد أكثر من خمسين حلقة دراسية وهو عدد كبير في ذلك الزمن المبكر.

وفي كثير من الحالات كان التدريس يتم بأمر الخليفة أو الوالي خاصة، إذا كان الجامع مركزياً ويهم موضوعه الوالي أو الخليفة بشكل شخصي.

وفي حالات كثيرة كان الابن يخلف أباه في حلقة التدريس، ولكن ليس ذلك بالضرورة بل الكفاءة هي المقياس أولاً وآخراً، وقد يخلف الابن أباه نظراً لتفوقه وليس بالوراثة.

وتشبه حلقات الدروس بالمساجد والجوامع في عصرنا مكانة أستاذ الكرسي بالجامعات المدنية.ومعروف أن بعض الجوامع فيما بعد اختصت بنوع من العلوم الدينية حسب المذاهب الدينية كالمالكي والحنفي.

وقد تطورت الأمور فيما بعد لتأخذ المساجد والجوامع أسماءها من خلال المدرسين فيها كنوع من طغيان شهرتهم وهم بالأصل لم يساهموا في بناء هذه المساجد، ولكن جهودهم هي التي أعطت ذلك الاسم لهم، كمسجد الكسائي في بغداد، ومسجد محمد بن جرير الطبري المؤرخ المشهور.

وكانت مدة التدريس المدرسي بالجامع أو المسجد تمتد حتى الوفاة،

ويخلفه أحد أبنائه أو أحد تلاميذه الذين لازموه فترة طويلة، واستوعبوا علومه، وفي حالات كثيرة ينتقل المدرس من جامع لأكثر وينتقل معه بعض طلابه.

إن الدراسة في المساجد تشبه إلى حد بعيد الدراسة الجامعية في عصرنا الحاضر، حيث يتعين على الطالب أن يكون قد قطع شوطاً لا بأس به في تلقي المعارف العامة، وألَمَّ بطرف جيد منها، توصله لمثل هذه الدراسة، وغالباً ما يكون قد بلغ سن العشرين من عمره أو أقل أو أكثر بقليل.

أقسام الدراسة بالمساجد

تقسم الدراسة بالمساجد إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ مرحلة ابتدائية لحفظ القرآن ودراسة فوق ما درس في الكتاتيب.

٢ ـ المرحلة الثانوية التي تتسع فيها الدراسة على أيدي مدرسين أكثر علماً.

٣ ـ مرحلة عالية أو نهائية تدرس فيها أمهات الكتب على يد طائفة من الجهابذة، وكان الطالب هو الذي ينقل نفسه من مرحلة إلى أخرى. ولم يكن هناك حد للسن أو البقاء في مرحلة دراسية، وغلبت العلوم الشرعية على الدراسات في المساجد، ودرست فيها أيضاً العلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة، وكذلك الجغرافية والرياضة والمنطق والفلسفة والطب، ولكن الغالب أن الطب كان يدرس بدار العلم على نطاق واسع أو بالمارستان، أو على أيدي معلمين خاصين[1].

طريقة التدريس بالمساجد:

منذ أن جلس النبي ﷺ في المساجد معلماً، صار التقليد، أن يجلس العلماء، وحولهم المستمعون، وهذا هو نظام الحلقات، الذي انتشر في ربوع العالم الإسلامي، فكان العالم يجلس إلى أحد الأعمدة في الجامع مستنداً إليه

---

(١) تطور الفكر التربوي ص ٢١٥.

بظهره، ومتجهاً نحو القبلة، وحوله الطلبة في حلقة وكان لكل عالم عامود يعرف به، ومن حقه أن يجلس عليه، وكان العالم أو الشيخ يبدأ الدرس بالبسملة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ثم يقرر الدرس بالدقة ثم يختمه بقراءة الفاتحة[١].

وكانت أساليب التدريس تتلخص في الإملاء والشرح والمناقشة، فالأستاذ يملي ما لديه ويشرح ما يصعب على الطلاب فهمه، ويسمح لهم أثناء الإملاء أو الشرح بالمناقشة فيما يعن لهم، والغالب أنه كانت تخصص ساعات البكور والذهن في نشاطه، لدراسة المواد النقلية كالتفسير والحديث والفقه والنحو والصرف وغيرها، أما بعد الظهر فكان يخصص للعلوم التي تستند إلى العقل[٢].

أما المساء فقد جعل للاستذكار والحوار والتأمل، وكان للطالب أن ينتقل من حلقة لأخرى، حسبما يسمح له نشاطه، وعلى أساس عدد العلوم التي يرغب في دراستها ويرجح البعض أن الدراسة في المسجد كانت تتطلب اثنتي عشرة سنة، وإن كان التحديد الزمني لا حدود له.

وكان الأستاذ أو الشيخ هو الذي يحدد ويأذن للدارس على يديه بالتدريس، أو الرواية أو الإفتاء، وكان هذا يتم بعد أن يقرأ الطالب على عدة أساتذة، عدداً من الكتب لكل استاذ في فرعه وتخصصه.

ولم يكن الطلبة يدفعون أجوراً نظير تعلمهم في المساجد، بل كانت ترتب لهم ولأساتذتهم غالباً أرزاق وأعطية تكفي للإنفاق عليهم في حياتهم الخاصة، ولعل هذا الأمر الاقتصادي كان حافزاً للطلاب على التعلم سواء من أهل مصر أو من الأمصار الإسلامية كما شجع على ذلك مكانة العلماء الذين كانوا يعلمون في المساجد والجوامع الكبيرة، حتى قيل إن هؤلاء كانوا

---

(١) تطور الفكر التربوي ص ٢١٥ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق. ص ٢١٥ وما بعدها.

يستأذنون الخليفة في القيام بالتدريس، بـل إن الخلفاء أنفسهم كثيـراً ما عينـوا أساتذة بالجامع الأزهر [مثـلاً][1].

نظام حلقات التدريس بالمساجد:

كان النظام المتبع في حلقات العلم أن يجلس المعلم على خشبة صغيرة أو كرسي من جريد أو خشب والطلبة حوله على شكل حلقة بترتيب معين فلكل طبقـة مكان فيجلس الممتـازون من الزوار على يمين الشيـخ ويساره، وتكمـل الحلقة بالرفقاء على أن يترك فراغ ليجلس فيه من يسمع الدرس من الطارئين أو الذين لا يحضرون الدرس بانتظام، وكان الطلاب يحرصون كل الحرص على الجلوس قريباً من المعلم ولكنهم لا يتعدون المكان الذي هم أهل لـه[2].

وكان المعلم يبدأ الـدرس بالبسملة وبحمـد الله تعالى والصـلاة والسلام على رسول الله وصحبه، ثم يتلو بعض آيـات الذكـر الحكيم أو بعض أحاديث الرسول الحاثة على طلب العلم والتواضع في طلبه وعلى حسن الخلق والسيرة مبيناً لهم أن ذلك يعين على حل المشكلات وتذليل الصعاب، ثم يبدأ الدرس بعد هذا التقـديم[3].

فإذا كان الشيخ يلقي من محفوظاته أو من مـذكرات كتبهـا ليقرأهـا فـإن الدرس يسمى إملاء وجمعه أمـال ، ويملي فقرة فقرة أو حديثاً حديثاً مع اتصال السند، ثم يعقبه الشرح والتفسير والتوضيح ويدون الطلاب هـذه الشروح على هوامش أوراقهم التي كتبوا فيها الأصول، ويصحـح الشيخ لهم مـا كتبوا. وإذا كان الدرس يلقى من كتاب يمكن الحصول عليه فقد كـان المتبع أن يحصـل الطالب على نسخة منه، وأن يقرأ الدرس وحده أو مع أحد زملائه قبل أن يسمعه

(١) نفس المصدر السابق ص ٢١٥ وما بعدها.
(٢) دور المسجد في الإسلام ص ٥٣ وما بعدها.
(٣) نفس المصدر السابق ص ٥٣ وما بعدها.

من المدرس، وكان الطلاب يكتبون على هامش الكتاب ما يلقيه المعلم من شروح وإيضاح[1].

وكانت فقرات أكثر الكتب تنتهي بدائرة كهذه ○ فإذا انتهى الدرس عند فقرة معينة وضع المعلم خطاً مائلاً بالدائرة علامة على أنهم وقفوا عندها.

وكان من حق كل طالب أن يسأل عما خفي عليه أو أشكل ولكن الأسئلة كانت تخضع لآداب خاصة متعارف عليها ولم يكن الطالب يسأل للتعجيز، أو الإعنات أو الرياء، وكان عليه أن يختار الوقت المناسب للسؤال وكان من آداب الدرس ألا يقاطع الطالب معلمه وهو يتكلم أو زميله وهو يسأل.

على أن المعلم كان أحياناً يقوم مقام السائل فيلقي على طلبته بضعة أسئلة ليختبر فهمهم وليجيب بنفسه على ما تعسر عليهم الإجابة عنه، وهو بهذا يسهل على محدودي المواهب أن ينتفعوا مما تستدعيه الأسئلة وأجوبتها من إعادة للموضوع وزيادة في بسط المسألة. وإذا رأى المعلم نبوغاً في أحد تلاميذه تعهده بالرعاية المناسبة ويزيد له من العلم، وأخيراً يجيز له المعلم أن يروي وأن يُدَرِّس ما تعلمه بالإضافة إلى اجتهاداته الخاصة[2].

عدد الطلاب الدارسين بحلقات التدريس بالمساجد وبعض الصور عن المنهاج الذي يدرسونه وبعض الإشارات عن حياة هؤلاء الطلاب ومدرسيهم

لم يكن العدد ثابتاً في هذه الحلقات بل حسب ظروف الطلاب، وموضع تقسيم الطلاب إلى مراحل كان يتم بمعرفة الشيوخ أو الطلاب أنفسهم، فكيف لطالب مستجد الدخول في حلقة من الحلقات، وللشيخ عدة سنوات وهو يدرس علماً من العلوم أي أنه لا بد للشيخ من دور في هذا المجال ولا بد أن للشيخ

---

(١) دور المسجد في الإسلام لعلي محمد مختار،(طبعة صادرة عن رابطة العالم الإسلامي في مكة ص ٥٣ وما بعدها نقلاً عن تاريخ التربية، د. أحمد شلبي.

(٢) نفس المصدر السابق.

مدة محددة لإنهاء دروسه قد تطول لأربع سنوات حيث يتخرج الطلاب بعدها ليبدأ من جديد[1].

وكانت تسمى المحاضرة آنذاك (بالعليقة) التي قد تكون من عدة مجلدات ملخصة وكان المدرس يلقي باليوم درسين واحد بالصباح وآخر بالمساء، وكان مسكن الطلاب الغرباء، إما بالمساجد أو في بيوت استئجارها من قبلهم بالقرب من الجوامع، أي في بيوت أنشأها بعض المياسير والمحسنين كأوقاف للفقراء أو الغرباء من الطلاب أو بعض الخانات العامة[2].

وفي معظم الأحيان كان الطلاب يقومون بمهن نسخ الكتب لكسب العيش، أو بعمل مناسب بالقرب من هذا الجامع ليتكفل نفقته إن لم يساعده أهله.

وفي كثير من الأحيان كان الطلاب يلازمون شيوخهم حتى بعد انتهاء مدة الدراسة المقررة. ويقول أحد الرواة واصفاً طلاب العلم في عصره:

شعث الرؤوس، خلقان الثياب، خمص البطون، ذبل الشفاه، شحب الألوان، سمك الأبدان، قد جعلوا لهم هماً واحداً، ورضوا بالعلم دليلاً ورائداً ولا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ، ولا يهمهم منه صيف ولا شتاء[3].

وفي بعض الحالات كانت الدولة تقدم بعض الهبات لطلاب العلم، ولكن طلاب العلم كانوا يرون أن التقرب من السلطة الحاكمة لم يكن مستحباً عندهم، فكان سفيان الثوري يقول: في جهنم دار لا يسكنها إلا القراء الزوار للملوك[4].

وقال آخر: إياك وأبواب السلطان. ومن كان يأخذ أجره من الدولة أو الولاة

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٧٥ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

من العلماء لم يكن محموداً عند العلماء، وكان المحدثون يضعفونه وقلما يقبلون روايته. وفي بعض الحالات كان بعض المدرسين يعيلون بعض طلابهم النجب مثل أبي حنيفة النعمان كان يعيل تلميذه أبا يوسف، وأعطى بعض تلاميذه خمسة دنانير ذهباً لشراء الكاغد، وأوصى بعد وفاته بتوزيع كتبه وملابسه وكل ما يملك على طلبة الحديث وفي حالات كثيرة كان طلاب العلم يتعاونون فيما بينهم فيعين بعضهم بعضاً، ويصرف غنيهم على فقيرهم في كثير من الأحيان[1].

ومن أمثلة التعاون ما رواه المحدث العظيم أبو حاتم الرازي ت (٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م) قال: بقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة ومئتين ثمانية أشهر وكان في نفسي أن أقيم سنة فانقطعت نفقتي، فجعلت أبيع ثيابي شيئاً بعد شيء، حتى بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة وأسمع منهم إلى المساء، ثم أصبحت من الغد، وغدا عليّ رفيقي فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عني، وانصرفت جائعاً، فلما كان الغد غدا عليّ فقال: مر بنا على الشارع فقلت: أنا ضعيف لا يمكنني قال ما ضعفك قلت: لا أكتمك أمري قد مضى يومان ما طعمت فيهما. فقال لي رفيقي: معي دينار، فأنا أواسيك بنصفه، ونجعل الآخر في الكراء فخرجنا من البصرة، وقبضت منه النصف دينار[2]. وقد استمر هذا النظام زهاء أربعة قرون لم تنشأ مدرسة واحدة بالعراق الذي كان مركز الريادة في الحركة الثقافية والفكرية والتعليمية بالدولة الإسلامية.

بعض المعلمين في العصر الأموي:

ومن الصحابة الذين كانوا يقومون بالتعليم في الشام عبادة بن الصامت، ومعاذ بن جبل، أما عبادة فهو «أحد من جمع القرآن في زمن النبي ﷺ، أرسله عمر إلى فلسطين ليعلم أهلها القرآن، فأقام بها إلى أن مات»[3].

---

(١) الخطيب البغدادي جـ ٢ ص ٧٥ تاريخ بغداد.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٤٢.

ويروى الذهبي «أن عمر لما استخلف كتب يزيد بن أبي سفيان إليه، أن أهل الشام كثير وقد احتاجوا من يعلمهم القرآن ويفقههم.فقال أعينوني بثلاثة، فخرج معاذ بن جبل وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت» وكانت لعبادة عند عمر منزلة كبيرة حتى إنه لما اختلف مع معاوية في أمر، ورجع إلى المدينة مخبراً عمر قال له الخليفة ارحل إلى مكانك فقبح الله أرضاً لست فيها وأمثالك، فلا إمرة له عليك[1].

أما معاذ بن جبل «فكان أعلم الأمة بالحلال والحرام» وقد علم قبل ذلك بمكة واليمن ثم انتقل إلى الشام في خلافة عمر، وهو أحد من جمع القرآن حفظاً زمن النبي، ومن ذلك تبين أنه كان يعلم القرآن وما يستنبطه من أحكام تتعلق بالحلال والحرام[2].

وقد أرسل عمر رجلًا لتعليم أهل الشام وهو عبد الرحمن بن غنم الأشعري، وقد اختلف في صحبته وعده أبو مسهر النسائي «رأس التابعين بالشام، وكان كبير القدر وهو الذي تفقه عليه التابعون في الشام مات سنة ٧٨ هـ»[3].

ومن المدرسين في العصر الأموي في الشام، أبو إدريس الخولاني «عائذ الله بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠ هـ وكان يقوم بتعليم القرآن ثم يقص بعد ذلك مما يدل أن القصص أصبح جزءاً من التعليم[4].

«عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبي الدرداء، وعن يزيد بن عامر أنه رأى أبا إدريس في زمن عبد الملك، وأن حلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن يدرسون جميعاً، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها فأنصتوا له وسجد بهم وسجدوا جميعاً بسجوده، حتى إذا فرغوا من قراءتها قام أبو إدريس يقص»[5].

---

(١) تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ١٦٣. وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق وما بعدها.

(٣) نفس المصدر السابق وما بعدها.

(٤) نفس المصدر السابق وما بعدها.

(٥) نفس المصدر السابق جـ ٣ ص ٢١٦.

حلقات العلم في مساجد الشام:

«وقد كثر طلاب العلم وخصوصاً لقراءة القرآن في المساجد حتى أصبحت بعض الحلقات تضم الآلاف وكان أبو الدرداء من أوائل من عقد هذه الحلقات بالشام وقد بلغ عدد تلاميذه ألفاً وستمائة وَنَيِّفاً، كان يقرئهم القرآن «عن أبي عبد الله مُسلم بن مشكم قال: قال لي أبو الدرداء: «أعدد من يقرأ عندنا في مجلسنا هذا، فعددت ألفاً وستمائة ونيفاً فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة وعشرة لكل عشرة منهم مقرىء، وكان أبو الدرداء قائماً يستفتونه في حروف القرآن، يعني المقرئين، فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول إلى أبي الدرداء يبتدىء في كل غداة إذا انفتل من الصلاة، فيقرأ جزءاً من القرآن وأصحابه محدقون به يستمعون ألفاظه، فإذا فرغ من قراءته جلس كل رجل منهم في موضعه، وأخذ على العشرة الذين أضيفوا إليه، وكان ابن عامر مقدماً فيهم[1].

وهذه الرواية تعطينا صورة عن التعليم في مساجد دمشق، وتقسيم المتعلمين إلى مجموعات صغيرة لكل مجموعة عريف، وهذه المجموعة تسأل عريفها، فإذا عجز عن الإجابة رجع إلى المدرس[2]:

قال سويد بن عبد العزيز عن حلقات أبي الدرداء: «وكان إذا غلط أحدهم رجع إلى عريفهم فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء، فسأله عن ذلك، وكان ابن عامر عريفاً على عشرة فلما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر»[3].

ونستدل من ذلك أيضاً أن المتعلمين كانوا يقرأون القرآن على قراءة أبي الدرداء، أما العرفاء وهم مقرئون فكانوا يسألونه عن حروف القرآن الأخرى، وكلما كبرت الحلقات زاد عدد العرفاء، قال ابن الجزري عن ابن عامر: «لقد بلغنا عن هذا الإمام ابن عامر، أنه كان في حلقته أربعمائة عريف يقومون عنه

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ١ ص ٣١٥ تحقيق المنجد والحياة العلمية في الشام.
(٢) الحياة العلمية في الشام ص ١٩ وما بعدها.
(٣) نفس المصدر السابق.

بالقراءة، ولم يبلغنا أحد من السلف على اختلاف مذاهبهم وتباين لغاتهم وشدة ورعهم أنه أنكر على ابن عامر شيئاً من قراءته»[1].

ومن مميزات التعليم في فترة الصحابة اقتصاره على قراءة القرآن وتفسيره وما يستخرج منه من المواعظ والقصص وذلك إلى حد الصحابة الأول كان تعليم القرآن الكريم، واقتران هذا العلم بالعمل حتى إن معاذ بن جبل كان لا يكتفي بالعلم وحده للإنسان إلا إذا اقترن بالعمل فيقول: « اعلموا ما شئتم أن تعلموه، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا [2]» .

ولم يكن التعليم في هذه الفترة بأجر بل طلباً لثواب الآخرة، وقد أيد الذين كرهوا الأجر على تعليم القرآن موقفهم بأحاديث مرفوعة إلى الرسول ﷺ، فقد رووا أنه قال لعبادة بن الصامت حينما أهدى إليه قوس بالمدينة لتعليمه أحد المسلمين القرآن: ﴿ إنْ سرَّك أن تطوق بها طوقاً من نار فاقبلها﴾[3].

ثم استحدثت في قراءة القرآن في العصر الأموي طريقة تسمى «الدراسة» قال ابن عساكر: أول من أحدث الدراسة بدمشق زمن عبد الملك بن مروان «هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي، وأول من أحدث الدراسة في فلسطين «الوليد بن عبد الرحمن الجرشي». ويبدو أن الدراسة كانت تعني التكرير وراء قارىء ما، وقد يكون المكرر واحداً أو جماعة، يدل على ذلك وصف ابن عساكر للدراسة «فقرأ هشام بن إسماعيل فجعل عبد الملك يقرأ بقراءة هشام، فقرأ بقراءة مولى له فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد فقرأ بقراءته»[4].

ويظهر أن هذه الدراسة قد تعدت لتشمل تدبر معاني القرآن والتفكر فيه مما جعل بعضهم ينكرها. قال عبد الله بن العلاء: كنا ندرس في مجلس يحيى بن الحارث في مسجد دمشق في خلافة يزيد بن عبد الملك، إذ خرج علينا أمير

---

(١) النشر في القراءات العشر جـ ٢ ص ٢٦٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٤٠.
(٣) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٣٣٥.
(٤) الحياة العلمية في الشام ص ١٩.

دمشق الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب الأشعري من الخضراء، فأقبل علينا منكراً لما نصنع فقال: ما هذا وما أنتم؟ فقلنا: ندرس كتاب الله تبارك وتعالى؟ إن هذا شيء ما سمعته ولا رأيته ولا سمعت أنه كان قبل، ثم دخل الخضراء»[1].

ونشأت دور لتعليم الصبيان في العصر الأموي وهي التي دعيت بالكتاتيب ومن معلمي الكتاتيب الشاميين قبصة بن ذؤيب قيل إنه كان معلم كتاب، وقد انتشرت الكتاتيب في الأمصار الإسلامية عامة فقيل في الحجاج بن يوسف الثقفي «أنه كان مُكتباً»[2].

وقد كان بالإضافة إلى مجالس التعليم التي تعقد خارج المسجد ويستدل على ذلك من كتاب عريف عبد العزيز إلى جعفر بن برقان حيث يقول: «فمر أهل الفقه والعلم من عندك فلينشروا ما علمه الله في مجالسهم ومساجدهم[3]».

ارتباط التعليم بالقصص والوعظ:

ارتبط التعليم بالقصص والوعظ منذ البداية، وارتبط الجميع ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم، إذ كان القصص مأخوذاً من القرآن الكريم، ثم يأخذ القاص بتفصيل الحادثة خصوصاً إذا كان من أهل الكتاب الذين أسلموا كتميم الداري فقد كان نصرانياً وأسلم وهو أول من قص على الناس في الإسلام. قال الذهبي: «إن تميماً استأذن عمر في القصص فأذن له ثم مر عليه بعد فضربه بالدرة ثم قال له بكرة وعشية، وعن حميد بن عبد الرحمن أن تميماً استأذن عمر في القصص سنتين ويأبى عليه فلما أكثر عليه قال ما تقول قال: أقرأ عليه القرآن، وآمرهم بالخير وأنهاهم عن الشر قال عمر: ذلك الربح، ثم قال عظ قبل أن أخرج للجمعة، فكان يفعل ذلك كما كان عثمان استزاده فزاده يوماً آخر[4]».

بالإضافة إلى تميم الداري كان هناك كعب الأحبار وهو يهودي أسلم وأدخل كثيراً من الإسرائيليات عن طريق القصص والتفسير وغيرها. وكان كعب

---

(١) الحياة العلمية في الشام ص ١٩ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) تهذيب ابن عساكر ص ٢٦٠.

يبدأ بقراءة التوراة قبل القـرآن، وقد نبهـه معاويـة إلى ذلك قـال: (إن الله بدأ بالتوراة قبل القرآن)[1].

وقد تطور القصص في عصر بني أمية في الشـام خصوصـاً، حتى أصبح القاص يعين من قبل الخليفة وكذلـك يُعزَل بـواسطتـه، أي أن القصص أصبح وظيفة رسمية، ويـذكر أن الخليفـة عبد الملك عـزل أبا إدريس الخـولاني عن القصص وأقره على القضاء، فقال أبو إدريس: «عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي»[2].

وكان أبو إدريس يقص بعد تعليمه القرآن في المسجد، ثم قدم القصص بعد ذلك.

وكان لبعض الخلفاء قصاص كعمر بن عبد العزيز، وكان قاصه محمد بن قيس، كما كان ابن عيينة يقص عند سليمان[3].

ومن القصاص من كان يعمد إلى آية في كتاب الله فيها صورة معينة سواء كان ذلك للترغيب أو الترهيب، ثم يبدأ يصور تفصيلات هذا المشهد، ويضيف إليه أشياء مبالغة ليكون أكثر أثراً في النفوس، فإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ فارتَقِبْ يَوْمَ تَأتي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذا عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان آية ١٠-١١].

فهذه صورة من الممكن أن يستغلها القاص وأمثـالها كثيـراً في قصصه، مستعيناً بمخيلته تـارة أو بـوضع صور أخـرى للترهيب، ومن هنـا ينشأ ارتبـاط القصص بالوعظ، إذا كانت القصص في مضمونه ما هو إلا اتعاظ بمن مـر من الأمم الخالية والدول الزائلة.

وقد كان الخلفاء الأمويون والعباسيون يطلبـون العظة من العلمـاء، فهذا عمر بن عبد العزيز يرسل إلى الحسن البصـري طالبـاً العظة، وهشـام بن عبد

(١) تهذيب ابن عساكر ص ٢٦٠ وما بعدها.
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي جـ ٢ ص ٢١٦.
(٣) تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٣٠٥.

الملك يعظه خالد بن صفوان مستشهداً بموعظة لأحد أصحاب العلم يعظ فيها ملكاً من ملوك العجم ومن ضمن ما قاله ذلك الرجل والملك نورد ما يلي :

قال الملك بعد الموعظة: وأين المهرب؟ قال: إلى أحد أمرين، إما أن تقيم في ملكك، فتعمل فيه بطاعة ربك، وإما أن تلقي عليك أمساحاً ثم تلحق بجبل تعبد ربك حتى يأتي أجلك. قال فما لي إذا أنا فعلت ذلك؟ قال: حياة لا تموت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى، فأتى جبلاً فكان فيه حتى مات»[1].

حلقات العلم في الفسطاط :

كانت مدينة الفسطاط منذ القرن الثاني الهجري مركزاً للتفكير والآداب، يحج إليه كثير من أعلام الشرق، وكانت مصر قد أخذت تتبوأ مكانتها الفكرية والأدبية بين الأمم الإسلامية منذ استقرت شؤونها السياسية في ظل الدولة العباسية.

ولم تكن مصر منذ افتتحها الإسلام أكثر من ولاية تابعة للحكومة، ولكنها كانت بين ولايات الخلافة أشدها احتفاظاً بشخصيتها وألوانها القومية. وكانت منذ الفتح مركزاً هاماً للسنة والرواية ، ويحتشد فيها جماعة كبيرة من الصحابة الذين اشتركوا في الفتح والتابعين الذين عاصروهم، وفي القرن الأول أيضاً وُضعت بذور الحركة الأدبية فنمت وازدهرت بسرعة، حتى إنه يمكن القول أن مصر منذ القرن الثالث قد كونت أدبها العربي الخاص، ولم يأت القرن الرابع حتى كان هذا الأدب يتميز بخواصه المصرية القويمة مما عداه من تراث التفكير العربي في المشرق والأندلس[2].

ولم تفقد الفسطاط أهميتها الفكرية والأدبية حتى بعد أن قامت القاهرة المعزية سنة ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٩ م، بل لبثت بعد ذلك عصوراً تشتهر بحلقاتها ولياليها الأدبية ، يجتمع فيها الأدباء والشعراء للقراءة والسمر والجدل والمساجلة،

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ ٢ ص ٣٤٢.
(٢) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٣٨.

وكانت مهاد اللقاء والتعاون بين الأدباء المحليين والنزلاء الوافدين من عواصم الإسلام الأخرى، وقد بدأت هذه الحلقات الأدبية في الفسطاط منذ القرن الأول، ولكنها كانت في بدايتها دينية فقهية، وكانت لها أهميتها في تمحيص السنة والرواة، وكانت تجمع بين فقهاء الإسلام ورواة السنة، مثل يزيد بن حبيب، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب ثم الشافعي وأصحابه(١).

ثم اتخذت هذه الحلقات طابعاً أدبياً، فكان يمزج فيها بين الكلام والأدب، وكان معظم فقهاء هذا العصر أدباء أيضاً يأخذون من الأدب بحظ وافر، ولبعضهم في النثر والشعر براعة خاصة، ونستطيع أن نذكر من هؤلاء الإمام محمد بن إدريس الشافعي قطب الشريعة وحجة التشريع، فقد كان أيضاً أديباً مبرزاً له في الشعر والنثر محاسن وروائع، وكذلك آل عبد الحكم الذين سنذكرهم بعد، وأبو بكر الحداد قاضي مصر والحسن بن زولاق المؤرخ، فقد كان هؤلاء جميعاً من كبار الفقهاء والأدباء. وكان الفقه والحديث تمتزج معاً في مجالسهم وأسمارهم، ففي ذلك الحين كان الإمام الشافعي نزيل الفسطاط، وكان مدى الأعوام التي قضاها بمصر منذ قدومه إليها في أواخر سنة ١٩٨ هـ ـ ٨١٣ م حيث كانت وفاته في رجب سنة ٢٠٤ هـ ـ ٨١٩ م قطب الحركة الفكرية فيها، وكعبة الصفوة من فقهائها وأدبائها، يميز بهم إليه غزير علمه ورفيع أدبه، وبارع خلاله، وكانت حلقات الفسطاط الأدبية شهيرة قبل مقدمه. ولكنه أسبغ عليها بهاء وسحراً وروعة(٢).

وكان أبو تمام الطائي الشاعر الأكبر ـ إذا صحت الرواية ـ عن مقدمه إلى مصر صبياً، واشتغاله بسقي الماء، في المسجد الجامع، يغشى هذه المجالس الأدبية في حداثته، وفيها تفتحت مواهبه الأدبية والشعرية، والظاهر أنه كان طبقاً لهذه الرواية يقيم في الفسطاط في خاتمة القرن الثاني أو فاتحة القرن الثالث أعني في نحو الوقت الذي كان فيه الشافعي نزيله وكان أشهر هذه الحلقات أو الأبهاء حلقة عبد الحكم، وهم أسرة مصرية نابهة كثيرة المال، والوجاهة،

(١) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٣٨ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.

أنجبت عدة من كبار الفقهاء، منهم عميد الأسرة عبد الله بن عبد الحكم المصري وهو من أقطاب الفقه المالكي، وأولاده محمد وسعد ابنا عبد الحكم، وكلاهما فقيه محدث كبير وعبد الرحمن بن عبد الحكم، محمد وسعد ابنا عبد الحكيم وكلاهما فقيه ومحدث كبير، وعبد الرحمن بن عبد الحكيم(١).

التعليم في الجامع الأزهر:

لعب الأزهر دوراً كبيراً في الدعوة (للشيعة) وكان مركز الإشعاع الديني، وظل الأزهر من سنة الانتهاء من بنائه سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م إلى اليوم يؤدي دوره في الدعوة الإسلامية. وسمي بالأزهر لأنه أحاطت به القصور الزاهرة، أو كما يقول البعض لما تُنبِّئ له من ازدهار ورقي ويرجح أنه سمي بالأزهر باسم فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ جدة الفاطميين، وقد رتبت للأساتذة فيه الأرزاق، وأوقفت عليه الأوقاف وكان الخلفاء الفاطميون يزيدون في عمارته حتى وصلت أعمدته ٣٧٥ عموداً، التف حوله طلاب العلم ممن جاؤوا يستمعون إليه ما يدرس عن مذهب الفاطميين وإلى الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات(٢).

ووفد إليه طلاب من المشرق والمغرب، قسموا إلى طوائف، وكان لكل طائفة رواق يعرف بهم،وكان أصحاب الرزق الواسع ينفقون على الجامع الأزهر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين، بل ويحملون إليهم في المواسم والأعياد اللحوم والخبز والحلوى(٣).

وقد كان بالإضافة إلى الأزهر جوامع أخرى كجامع الحاكم بأمر الله، وجامع عمرو بن العاص وابن طولون، وغيرها من مراكز العلم والإشعاع الثقافي.

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) تطور الفكر التربوي ص ٢١٤.

(٣) نفس المصدر السابق.

الفرق بين المسجد والمدرسة في التدريس:

يقول ابن الحاج في مطلع القرن الثامن الهجري في كتابه (المدخل إلى الشرع الشريف) إلى تفضيله المسجد على المدرسة، على الرغم من انتشار المدارس في زمانه قال: لا يخلو موضع التدريس من ثلاثة أحوال:

إما أن يكون بيتاً أو مدرسة أو مسجداً، وأفضل مواضع التدريس هو المسجد، لأن الجلوس للتدريس، إنما فائدته: أن تظهر به سنة، أو تخمد به بدعة،أو يتعلم به حكم من أحكام الله علينا، والمسجد الذي يحصل فيه هذا الغرض متوفر لأنه موضع للناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم بخلاف البيت فإنه محجور على الناس إلا من أبيح له ذلك لأناس مخصوصين، وإن كان العالم قد أباح بيته لكل من أتى لكن جرت العادة أن البيوت تحترم وتهاب، فكان المسجد أولى لأنه أهم في توصيل الأحكام وتبليغها للأمة، وأن المدرسة لا يدخلها في الغالب إلا من آحاد الناس بالنسبة للمسجد، لأنه ليس كل الناس يقصد المدرسة وإنما يقصد أعمهم المساجد[1].

طرق التدريس عند المسلمين تمهد لظهور المدارس المستقلة

- كان الطلبة يحضرون كتبهم ومحابرهم. وكان الاملاء فيما مضى من الزمان تعتبر أعلى مراتب التعليم وكثيراً ما كان المتكلمون، اللغويون في القرن الثالث الهجري يتبعون طريقة الاملاء خاصة، فيحكى أن الجبائي والمعتزلي أملى مائة ألف وخمسين ألف ورقا، وما رؤي ينظر في كتاب الا زيج الخوارزمي وقد يملي أبو علي القالي خمس مجلدات، وكان المستملي يكتب أول القائمة: مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا من يوم كذا[2].

---

(١) المدخل إلى الشرع جـ ١ ص ٨٥.

(٢) الحضارة الإسلامية. آدم متنر ص ٣٣٤ جـ١ .

وتحقق غـرضه ـ ولـو لمدة ـ في إزالـة الجفوة بين السلطة المتغلبـة والعلمـاء، وصـولاً إلى تثبيت كيان دولتـه وجلب الناس إلى جـانبهـا، وخلق جبهـة قـويـة لمجابهة المخططات الباطنية، وليس أدل على ذلك من قيـام الباطنيـة باغتيـاله (٤٨٥ هـ ـ ١٠٩٢ م).

أمـا سبب اختيار نـظام الملك لهذه المـدارس بدلاً من المسـاجد فيعـود حسب رأي الأستاذ جورج مقدسي: بأن المدرسة لا غير هي التي تلبي حاجته الخاصة لإنجاز خططه السيـاسية، وأنـه يضعف من سيطرة الخليفـة العباسي، الـذي هو المـرجع في شؤون التـوظيف، وبذلـك كسر احتكـار سلطة الخليفة بأسلوب هادىء، وبذلك أنشأ مؤسسات بعيدة كل البعد عن تأثيـرات الخليفة، وتتبع له مباشرة وبدون أي حساسيات. وقد تم الرد على خطوات نـظام الملك بإقامة مدرسة لتدريس المذهب الحنفي بالقرب من مشهد أبي حنيفة في بغداد، قبل أربعة أشهر من افتتاح أول مدرسة نظامية في بغداد، حيث أقامها أبو سعـد محمد بن منصور العميد الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ألب أرسلان.

وقد كانت هذه الخطوة الأخيرة دافعاً لقيام عدد من الموسرين والحكام لإنشاء عدد كبير من المدارس على نمطها بالحقبة.

وكانت في البداية هذه المدارس تختص بتدريس الفقه على مذهب معين ثم تطورت مدارس أخرى لتدريس الفقه أكثر من مذهب، لتجمع فيما بعد على تدريس الفقه على المذاهب الأربعة بالمدرسة المستنصرية.

شروط القبول في المدارس (للطلاب):

«لقد كـان الآباء يدفعون بأبنائهم إلى المكتب منذ الصغر في الخامسة أو السـادسة، وبعضهم في السـابعة أو الثـامنة، على أن العـام السادس من عمـر الطفل، يعد المرحلة الملائمة لدخوله المكتب.ذكر ابن سينـا:[إذا أتى عليه من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم إلى المؤدب والعلم][1].

(١) ابن سينا في كتاب القانون.

وفي ترجمة ابن أبي أصيبعة لعلي بن رضوان الطبيب المتوفى سنة (٤٥٤ هـ - ١٠٦١ م) نقل عنه قوله: [فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي إلى التعليم][(١)]» .

«لم تكن هناك قواعد عامة لقبول الطلاب بالمدارس، فلم يتحدد سن معين لإلحاق الطالب بالمدرسة أو مستوى معين من الدراسة، بل كانت المدارس بشكل عام تفتح أبوابها لكل طالب علم، دون تقييد بشروط معينة، اللهم إلا استعداد الطالب نفسه، ورغبته في الدراسة، وتقبل العلم، وكان الطالب يختار أستاذه الذي يدرس عليه، والمواد التي يرغب بدراستها، ومن هنا امتلأت المدارس بالدارسين. غير أن بعض الواقفين للمدارس نص على وضع بعض الشروط التي يجب أن تتوفر في طلاب مدارسهم من ذلك ما تذكره حجة السلطان المؤيد شيخ بأن يكون الطلبة من المستفيدين لطلب العلم، الصالحين للتفهم»[(٢)] .

وكما جاء بحجة جمال الدين الأستادار: من الطلبة الخدمة ذوي الفطنة والذكاء والنباهة والأهلية وتلقي ما يفيده شيخهم من الفوائد الجليلة، ويلقيه من المسائل الخفية، وفهم الغوامض من ذلك[(٣)] .

وربما اهتم الواقف باختبار طلبة مدرسته في ضوء مقاييس وضعها بنفسه من ذلك ما ذكره ابن حجر من أن السلطان المؤيد شيخ، استعرض الطلبة، فأقرَّ من شاء وصرف من لم يصلح في نظره، وربما اشترط بعض الواقفين أن يكون طلبة المدرسة من الغرباء[(٤)] .

ولا ندري كيف كان الواقفون على هذه المدارس يتعرفون على استعداد

---

(١) عيون الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٦١.
(٢) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٦.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر السابق علي سالم النباهين ص٣١٢ - ٣١٣ نقلاً عن حجة السلطان المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف .

الطلاب وصلاحيتهم للدراسة، وقدرتهم على التفهم، وحذقهم، وفهمهم وذكائهم ونباهتهم، وأغلب الظن أن معلمي المدارس كانوا يقومون باختيار الطالب قبل إلحاقه بالمدرسة والدراسة للتعرف على إمكانياته حيث يقول ابن جماعة في هذا المجال [فإن استشار الشيخ من لا يعرف حاله من الفهم والحفظ في قراءة فن أو كتاب، لم يشر عليه بشيء حتى يجرب ذهنه ويعرف حاله][1].

وفي بعض الحالات ما ذكره ابن دقماق عن تحديد الأجر علاء الدين الخازنداري لتلاميذ المدرسة الطبرسية التي أنشأها حيث [رتب من كل مذهب مدرساً ومعيداً وخمسة عشر طالباً][2] وفي مدرسة السلطان حسن بلغ عدد طلاب كل مذهب مائة طالب بين مقيم فيها ومتردد عليها وقسم طلبة كل قسم إلى قسمين، قسم مبتدىء وآخر منتهٍ، بالإضافة إلى طلبة الحديث والتفسير، أما ما وصلنا من أخبار عن المدرسة (البديرية) إذ كان عدد طلابها ثلاثة طلاب فقط!!»[3].

أنواع طلاب المدارس[4]:

«بالإمكان تقسيم الطلبة إلى فئتين، طلبة عارضين وآخرين منتظمين.

وتشمل الفئة الأولى: أعداداً كبيرة من رجال الأعمال والعمال المتسببين وغيرهم من يحضر الدروس بين حين وآخر، ولا سيما مجالس الوعظ والإملاء وحلقات العلم، غير أنهم لا يواصلون دراستهم ولا يواظبون تحصيلهم العلمي.

وتشمل الفئة الثانية: الطلبة المنتظمين فقد كانوا يقضون شطراً كبيراً من حياتهم في مواصلة التعليم، وغالبيتهم يقومون برحلة أو رحلات في سبيل الحصول على أكبر قدر من المعرفة أو للدراسة على عدد كبير من المشايخ في التخصصات التي يرغبون فيها.

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٦.
(٢) ابن دقماق جـ ٤ ص ٩٦.
(٣) علي سالم النباهين ص ٣١٤ ـ ٣١٥... وفن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٧.
(٤) الحياة العلمية في العراق ص ٢٢٢ وما بعدها.

وللطالب حرية الاختيار للحلقة التي يريد الجلوس فيها والتخصصات التي يميل إليها وهكذا فإنه يختار الشيوخ الذين يريد الدراسة على أيديهم وذلك حسب الهدف الذي حدده كل منهم لحياته العلمية، وكانت مواعيد الدراسة والحلقات والوعظ تحدد من قبل الشيوخ والمعلمين في الفترة الممتدة من بعد صلاة الفجر وحتى منتصف الليل ما بين محاضرات ومناظرات واستملاء مناقشات وسماع ووعظ[1].

مواد الدراسة بالمدارس:

«يستفاد مما ذكر في الحديث عن المدارس أن الغلبة في الدراسات بها كانت للمواد الشرعية من فقه وحديث وتفسير وفرائض وقراءات وأصول، ثم النحو والتصريف، وقد أوضح ذلك ابن جماعة[2]:

«إن تعددت الدروس قدم الأشرف فالأشرف، والأهمّ فالأهمّ، فيقدم تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذهب ثم الخلاف أو النَحو أو الجدل»[3].

هذا ولم تخل مواد الدراسة ببعض المدارس من العلوم العقلية، كعلم الطب وعلم العدد، والجبر والمقابلة، وعلم الهندسة، وعلم الهيئة، وعلم الميقات، وعلم الطبيعيات وهناك علوم أخرى كان انتشارها على نطاق ضيق نبغ فيها أشخاص معدودون ربما تلقوها على أيدي أفراد متخصصين، من هذه العلوم، كعلم الموسيقا والفلسفة والجدل والمنطق وعلم التاريخ»[4].

الرأي بتدريس مادة الفلسفة:

ولقد كره علماء هذا العصر دراسة الفلسفة والجدل والمنطق كراهية

---

(١) الحياة العلمية في العراق ص ٢٢٢ وما بعدها.

(٢) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٦١.

(٣) ابن جماعة تذكرة السامع والمتكلم ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٤) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٦١.

شديدة، وكان ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، حتى أفتى الشهرزوري (ابن الصلاح) بفتوى حرم فيها المنطق على المسلمين، وجاءت هذه الفتوى ضمن إجابة أجاب بها سائلاً سأله: هل الشارع أباح الاشتغال بالمنطق تعلماً أو تعليماً؟ وهل يجوز أن تستعمل المصطلحات المنطقية في إثبات الأحكام الشرعية؟ وماذا يجب على ولي الأمر فعله إزاء شخص من أهل الفلسفة، معروف بتعليمه فيها وهو مدرسٌ أُسِّ السفهِ، أُسِّ الانحلال، ومادةِ الحَيرة، والضلال، شعار الزيغ والزندقة؟ ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة[1].

الرأي بتدريس مادة المنطق:

أما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شرٌّ، وليس الاشتغال بتعليمه أو تعلمه من أبواب الشارع، ولا أشتغل به أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالح[2].

أما استعمال المصطلحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية، فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية - والحمد لله - افتقار إلى المنطق أصلاً.فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المساكين، ويخرجهم عن المدارس ويبعدهم عن الاشتغال بفنهم، وأن يعرض من ظهر منه اعتقاد وعقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام، ومن أوجب الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة[3]. ومع هذه الكراهية، لهذه العلوم، فقد كانت تدرس سراً لمن أراد دراستها، فيروي لنا (الصفدي في الوافي بالوفيات):

أن الشيخ ابن جماعة كان له رسالة في الكلام عن الاسطرلاب، كان يدرسها لبعض تلاميذه، يقول الصفدي [أخبرني القاضي شمس الدين بن

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٦١.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نقلاً عن عبد اللطيف حمزة الحركة الفكرية ص ٣٢٥ - ٢٣٦.

الحافظ فقال: كنت أقرأ عليه (أي على ابن جماعة) بدمشق وهو في بيت الخطابة رسالة في الاسطرلاب فقال لي يوماً: إذا جئت تقرأ في هذه فاكتمه، فإن اليوم جاء لي مغربي وقال: يا مولانا قاضي القضاة، رأيت اليوم واحداً يمشي في الجامع وفي كمه آلة فقلت: وما هي؟ قال: الاسطرلاب[١].

التعليم المهني عند ابن تيمية:

«تعلم الصناعات أمر هام وضروري، وهي إجبارية واختيارية، فما كان مفقوداً منها في المجتمع صار إجبارياً وفرض عين، فإذا وجد إلى الحد الذي يكفي حاجات الناس صار اختيارياً»[٢].

ويقدم ابن تيمية أمثلة لذلك بالفلاحة والنسيج والخياطة، وآلات الحرب فهذه إن احتاج الناس إليها أُجبِروا على ممارستها، ومعنى ذلك أن على القائمين على التعليم أن يخططوا مناهجه في ضوء حاجات المجتمع القائمة[٣].

وأفضل الصناعات هي الصناعات الحربية لأنها وسيلة الجهاد وعدته والجهاد أفضل ما تطوع به الإنسان، والرسول ﷺ قال: «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، والمسدد به»[٤].

ويلاحظ أن كلاً من التربية الدينية والعقلية والعسكرية والمهنية تتكامل عند ابن تيمية لغاية واحدة، هو إخراج الأمة المسلمة وتأهيلها لحمل رسالة الإسلام إلى العالم. وأساس ذلك موجود في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ وَأَنزلْنا مَعَهُم الكتابَ والمِيزانَ لِيقومَ الناسُ بالقِسْطِ، وأَنزلنا الحديدَ فيه

---

(١) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات ط ٢.
(٢) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ٣٨.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.

بأسٌ شديدٌ، وَمنافِعُ للناسِ، وَلِيعلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ، إنَّ اللهِ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

والآية تشير إلى ثلاثة أمور هي: الكتاب وهو القرآن الكريم، والميزان ليقوم الناس بالعدل، وهو عند البعض العقل الذي (يهتم) به الكتاب، والحديد هو مادة الصناعات الحربية التي تثمر البأس الشديد، وهو مادة الصناعات المدنية التي تنفع الناس، وبذلك يكون قَوامَ الحياة كتابٌ يَهدي، وعقلٌ يَفْقَه، وسلاحُ ينصر، فمن انحرف بالكتاب عُدِّل بالحديد، كما قال جابر بن عبد الله: أمرنا رسول الله ﷺ: أن نضرب بهذا-يعني السيف-من خرج عن هذا-يعني المصحف»[2].

عدد طلاب المدارس:

إن كثرة المدارس في البلاد الإسلامية وما فيها من مدرسين ومعيدين تطلعنا على الإقبال الكبير في تلقي العلم، وعدد الطلاب الذين يدرسون بها، وقد عثرنا على بعض النصوص فيها ما كان ببعض المدارس من طلاب يتلقون العلم ولهم معاليم في المدرسة.

ذكروا أن عدد طلاب المدرسة النظامية في بغداد كان ستة آلاف طالب، وكان يحضر درس الإمام الغزالي فيها أربعمائة من ذوي العمائم، وكان في المدرسة المستنصرية ما يزيد على ثمانيمائة طالب يقيمون بها. وفي المدرسة النورية بدمشق ستون طالباً، وفي المدرسة المحمدية في القاهرة عشرون طالباً.

وفي الإمكان أن نقدر عدد طلاب المدارس بما فيها من مدرسين ومعيدين، فقد كان في المدرسة (القجمجية) التي أسسها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٠ هـ أربعة مدرسين، عند كل مدرس عدد من الطلاب.

وكان في المدرسة المنصورية أربعة مدرسين للفقه، ومدرس للطب،

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥.

(٢) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ٣٨.

ومدرس للحديث، ومدرس لتفسير القرآن، وكان في بعض المدارس عدة معيدين، فقد كان في المدرسة الشافعية في مصر عشرة معيدين.

هذا يدلنا على كثرة الطلاب في المدرسة الواحدة، مما حمل الواقف أن يعين لهم عدة مدرسين ومعيدين، مع العلم أن التدريس في كل مدرسة لم يكن مقتصراً على الطلاب الذين يقيمون بالمدرسة، وإنما كان يدرس معهم من أهل الليل، أو من القادمين إليها الذين يسكنون خارج المدرسة ولم تشملهم المعاليم.

التصميم المعماري للمدرسة:

«تشابه التصميم المعماري لدرجة يصعب التمييز بين بناء المدرسة عن المسجد، لكن ما يميز المدرسة أنه روعي في تصميمها الأغراض التعليمية، وإنشاء المساكن للطلبة والمدرسين وغيره من أصحاب الوظائف، وبعض الملحقات بالقاعات، وغالباً ما يكون بجوار المدرسة سبيل الماء، يعلوه مكتب لتعليم الأيتام، بالإضافة إلى وجود مدفن للمنشىء وأسرته. ونافست بعضُ المدارس بالقاهرة المساجدَ في إقامة خطبة الجمعة[1] [وأضحت المدارس معمورة بعبادة الله تعالى من إقامة الصلوات والأذكار وقراءة القرآن والحديث والاشتغال بالعلوم الشرعية وغيرها آناء الليل وأطراف النهار، ونجد في كل مدرسة وجامع بعضاً من الطلبة يشتغلون بأنواع العلوم من كل فن، ولا يعلم بهم ولا يفتش عليهم ولا يسأل عنهم ولا يعرفهم إلا من خالطهم في اشتغالهم][2]، وكان بالمدرسة غالباً خزانة كتب ينتفع بها الدارسون من معلمين وطلاب وباحثين، بحيث تكون كتبها في متناولهم كما كانت تستقبل إيوانات المكتبة إلى جانب المطالعة في النسخ والمراجعة[3].

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٢.

(٢) علي سالم النباهين ص ٢٥٤ نقلاً عن ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس القاهرة مطبعة دار الكتب ١٩٦٩ م ص ١٩٠.

(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٢.

ولم تكن المدرسة في كثير من الحالات بناء مستقلا قائما بذاته، وإنما كانت جزءاً ملحقاً بالقبة التي بناها السلطان أو الأمير ليدفن فيها بعد وفاته، ومن الواضح أن هذا التفكير مصدره طلب الرحمة لصاحب المدرسة بوصفها مكاناً تدرس فيه العلوم الدينية المتنوعة[1].

وكان بالمدرسة دائماً عدد من المؤذنين عارفون بالأوقات يعلنون بالأذان الشرعي في المئذنة، وكذلك كان للمدرسة ساقية تقوم بإجراء الماء من البئر إلى الصحن أمام إيوان القبة وإلى الفسقية التي بوسط المدرسة وإلى الميضأة التي بالمدرسة[2].

خصائص بناء المدارس:

قامت هندسة جميع المدارس على تخصيص (قاعة محاضرات) إيوان لمدارس الفقه في المدرسة الأحادية، أو عدة أواوين على حسب عدد المذاهب، كما روي منها: تخصيص مساكن للطلبة وبعض العاملين فيها، فالمدرسة تتميز عن مدارس المساجد بهذين العنصرين الأساسيين وهما المكان المخصص للدرس والمكان المخصص للسكن في وحدة إدارية واحدة، ثم نجد إضافات أخرى حسب طبيعة المدرسة ورغبة منشئها. فقد يخصص مكان لخزانة الكتب، أو المسجد داخل المدرسة أو مطبخ أو مرافق صحية، أو قد يخصص فيها دار لسكن المدرس.

نموذج من مراسم افتتاح مدرسة

«يقام احتفال فخم يوم فتح المدرسة الكبيرة، ويكون من الأيام المشهودة، يحضره العلماء، ورجال الدولة وطبقات الشعب على اختلافهم، ويلقي فيه الشعراء قصائد ينوهون بمعاهد العلم والعلماء، ومحبي العلم الذين يشيدون المدارس طلباً للثواب، وحباً في تيسير العلم بين الناس. نجد كثيراً من

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٢.

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

الاحتفالات التي أقيمت في فتح المدارس في البلاد الإسلامية ومن ذلك:

ما كان في فتح المدرسة المستنصرية ببغداد في يوم الاثنين ١٥ جمادى الأخرى من سنة ٦٣١ هـ ـ ١٠٢١ م تكامل بناء المدرسة، وركب نائب الوزارة نصير الدين بن الناقد إلى الدار وتفقدها، ومعه أستاذ الدار مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي، الذي تولى عمارتها، وأمر نائب الوزارة بنقل الكتب إلى الخزانة وتثبيت من يقوم على إدارتها والإشراف عليها.

تكامل أمر المدرسة استعداداً لمراسيم فتحها، وزار الخليفة المدرسة وتفقد البناء وما أعد فيها، وحضر الشيخ عبد العزيز ـ شيخ رباط الحريم ـ فدعا الخليفة وتلا قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾[1]، فبدا خشوع الخليفة وتقاطرت دموعه[2].

وفي يوم الخميس ٥ رجب حضر نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، وجماعة من أعيان التجار الغرباء إلى المدرسة، كما حضر الذين تولوا عمارتها ومقدمو الصناع . . . .

وكان الخليفة ينظر من الشباك الذي في صدر الإيوان وأمر أن يخلع على المدرسين، فخلع على المدرس محيي الدين بن أبي عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان الشافعي، مدرس الرواق الشافعي جبة سوداء، وطرحة كحلية، وأعطي بغلة بمركب جميل وعدة كاملة، كما خلع على رشيد الدين بن أبي حص عمر بن محمد الفرغاني الحنفي مدرس الرواق الحنفي مثله. وخلع على كل من المعيدين عندهما قميص مُصمت وعمامة قصيرة وخلع على أستاذ الدار العلقمي الذي تولى عمارتها، وعلى أخيه وحاجبه عبد الله بن جمهور وعلى

---

(١) سورة الفرقان آية ١٠ .

(٢) حضارة العراق ج١ « افتتاح مدرسة » .

المعماريين والفراشين والمرتبين بالدار الذين يتولون خزانة الكتب[1].

وألقى الشعراء قصائد جميلة بهذه المناسبة، ثم مُد سماط عظيم في صحن المدرسة، فكان عليه من الأشربة والحلوى، وأنواع الأطعمة، ما يجاوز حد الكثرة، فتناوله الحاضرون تعبئة وتكويراً، وبعد أن انتهى الحاضرون من الطعام ـ حُمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام، وجلس المدرسون وألقوا دروساً إيذاناً بافتتاح المدرسة[2].

كان الملوك ورجال الدولة وغيرهم إذا زاروا بغداد تطلعوا لزيارة المدرسة المستنصرية لما فيها من حركة علمية مباركة، وكان الخليفة إذا أراد أن يكرم شخصاً منهم أمر بإقامة دعوة له في المدرسة، فأقيمت عدة دعوات منها في المحرم ٦٣١هـ ـ ١٢٣٣ م وصل بغداد الملك ناصر الدين داوود بن الملك المعظم عيسى الأيوبي لينهي حاله إلى الخليفة المستنصر ونزاعه مع أعمامه[3] فأصلح الخليفة بينهم، وفي إقامته في بغداد سأل أن يحضر المدرسة المستنصرية، فأمر الخليفة ليعمل دعوة له فيها، وإحضار فقهاء المدرسة، ثم حضر ناصر الدين فجلس على طرف إيوانها الشمالي، فقرأ القراء، وأنشد الشعراء والفقهاء، وقدمت الأطعمة بعد ذلك فتناول ناصر الدين منها، بعد أن قبل الأرض مراراً احتراماً لما حظي به من إكرام الخليفة.

وفي سلخ ربيع الأول سنة ٦٣٣ هـ ـ ١٢٣٥ م وصل بغداد الأمير ركن الدين إسماعيل بن لؤلؤ[4] صاحب الموصل، ليزور أخته زوجة علاء الدين بن شجاع الطبرسي ، وعملت له دعوة في المدرسة المستنصرية، فحضر وجلس على إيوانها، وقرأ القراء، وذكر المدرسون الدروس، ثم طيف به في رواقاتها[5].

---

(١) حضارة العراق ج١ نموذج من افتتاح مدرسة .
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر السابق .
(٥) نفس المصدر.

وفي سنة ٦٣٤ هـ - ١٢٣٦ م وصل بغداد أرسلان شاه بن عماد الدين زنكي صاحب شهر زور، وعمل له دعوة بالمدرسة المستنصرية، حضر إليها وجلس على طرف إيوانها، الصغير، وشاهد فيها المدرسين يدرسون الطلاب، ثم دخل دار كتبها فجلس ساعة ثم عاد لداره[١].

ويورد لنا المقريزي صورة عن احتفال بافتتاح المدرسة الظاهرية بالقاهرة:

«فذكر أن المدرسين إذا انتهوا من إلقاء دروسهم يوم الافتتاح. مدت الأسمطة، وأنشد جمال الدين أبو الحسين بن الجزار يومئذٍ:

ألا هكذا يُبني المدارسّ من بني ... ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همةً ... بها اليوم في الدارين قد بلغ المنى

وأنشد عدة شعراء منهم السراج الورّاق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب، فخلع عليهم وكان يوماً مشهوداً[٢].

إدارة المدرسة:

يمكن إدراج الوظائف التالية المنوط بها قيادة العملية التربوية في المدرسة.

الناظر:

«وهو الذي يتولى النظر في إدارة المدرسة، وإليه المرجع في كافة الأمور، ويكون من العلماء، أو أصحاب الرتب في الدولة، ويرجع إليه في أوقاف المدرسة، وصرفها، وتنميتها، ويشرف على التدريس، وطلاب العلم، وما في المدرسة من أقسام مختلفة، وأول ناظر عين في المستنصرية هو القاضي عبد الرحمن التكريتي في ٩ رجب أي بعد افتتاح المدرسة بأربعة أيام.

---

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) السلوك للمقريزي ج١ ق٢ ص٥٠٤ وفيه تفاصيل أخرى.

وللنـاظر في كـل يوم عشـرون رطلاً من الخبـز، وخمسـة أرطـال لحمـاً بحوائجها وخضرها، وحطبها وفي كل شهر اثنا عشر ديناراً»[1].

المشـرف:

«وهو الذي يشرف على المدرسة وما فيها، ويرجع إلى الناظـر هذا، إذا كان مشرفاً على المدرسة كافة، وأول مشرف في المدرسة المستنصرية هو العدل عبد الله بن تامر، وله في كل يوم عشرة أرطال خبزاً وفي كل شهر سبعة دنانير، ويكـون في خزانتـه مشرف على الخـزانة ومـا فيها، وكـذا مشرف على الـطبخ والمخزن»[2].

الكـاتـب:

«وهو الذي يتولى تحرير الكتب والرسائل بين الناظر وأقسام المدرسة، أو التي تــرد من خــارج المــدرسـة ويحفظ السجــلات والأوامـر الــرسميـة، أو المخابرات، وأول كاتب في المستنصرية هو العدل أبو منصور الفاضل بن محمد وله ما للمشرف»[3].

الخـازن:

«وهو الذي يتولى الخزن، فلخزانة الكتـب خازن، ولمخزن المدرسة وما فيه من مؤن وغلات وفرش ومواد قرطاسية خازن آخر»[4].

كاتب الغيبـة:

«وهو الذي يتفقد حضور المدرسين والطلاب كـل يوم ويقف على سبب الغياب والتخلف، ويثبت هذا في سجل خاص يرفعه إلى الناظر، ويكون في دار

---

(١) التربية والتعليم في الإسلام سعيد الديوجي ص ٩٨.
(٢) التربية والتعليم في الإسلام ص ٩٩ وما بعدها.
(٣) نفس المصدر.
(٤) التربية والتعليم في الإسلام ص ١٠١ وما بعدها.

الحديث أيضاً كاتب غيبة، يتأمل من يسمع ومن لا يسمع، ويسأل عن سبب تخلف أحدهم إذا غاب»[1].

المناول:

«وهو الذي يسهل مناولة الكتب للمطالعين في المدرسة ثم إعادتها إلى مكانها»[2].

واعظ المدرسة:

«وفي المدرسة واعظ يعظ أوقات الفراغ من الدروس، ويهذب أخلاق الطلاب، ويكون إماماً في المدرسين، والطلاب، يصلي بهم في المدرسة، وغير ذلك، كالصيدلي والحمامي والقيم في الحمام والمزملاتي والبواب والخادم...»[3].

ولاة المدارس:

«كان من المألوف أن يقوم منشىء المدرسة بتعيين مدرسها وناظرها والعاملين فيها ثم يؤول الأمر بعد وفاته إلى مدراء الوقف أو صاحب السلطة النافذة في الدولة، وتكون مدة تعيين المدرس في الأغلب مدى الحياة، إلا إذا حدثت بعض التدخلات، وكان المدرس في بعض الأحيان هو الذي يتنازل عن تدريسه في مدرسة ما إلى أحد تلامذته النجب بعد استشارة المتولي، وقد تراعى اعتبارات أخرى في تعيين المدرسين كأن يتولى الابن مكان أبيه ولا سيما إذا كان المدرس هو صاحب المدرسة أو المتولي عليها، وكأن يُراعَى في اختيار المدرس أن يكون ممن فاق أقرانه في علمه وتميز وأصبحت له منزلة عليه مرموقة تؤهله لمثل هذا المنصب، كما كان يُراعَى في اختياره اتقان مذهبه أو عقيدته مع شرط الواقف، وإن كانت بعض هذه الأمور تُتجاوز لأسباب متعددة، وكان الاحتفال

---

(١) التربية والتعليم في الإسلام ص ١٠١ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

بتعيين مدرس المدارس يتمثل بحضور العلماء الفقهاء وبعض أرباب الدولة ومن لهم علاقة بالمدرسين الدرس الختامي الذي يلقيه المدرس، وغالباً ما يكون هذا الدرس متنوع المواد ليدلل به المدرس على تميزه في فنون العلم، وغالباً ما تُولَم الولائم بهذه المناسبة»[1].

آداب الإقامة في المدارس:

«لقد كانت الكثير من المدارس توفر للطلاب الذين ينزلون بها للدراسة الإقامة في بيوتها[2]، إلى جانب الإعاشة، بما كان يُصرف لهم من راتب الأمر الذي يمكنهم من التفرغ للدراسة، وقد اختلفت مساكن الطلاب في جودتها من مرة إلى أخرى، فقد ذكر المقريزي في خططه أن بعض المدارس كانت مساكنها من الجودة بحيث يتشاحن الطلاب على السكنى فيها. وفي حديثه عن المدرسة (الصاحبية البهائية): [كانت من أَجَلِّ مدارس الدنيا، وأعظم مدرسة في مصر، يتنافس الناس من طلبة العلم على النزول بها، ويتشاحنون على سكنى بيوتها، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة][3].

ولقد كان بعض الواقفين للمدارس يضع شروطاً لساكني بيوتها كان يكون مثلاً عزباً غير متزوج، وألا يبيت خارجها إلا أياماً معدودات، يحدد الواقف عددها، ومن ذلك ما ورد في وثيقة مدرسة السلطان برقوق إذ نصت على:

[أن يكون من هو ساكن بهذه المدرسة... من الطلبة الصوفية وأرباب الوظائف منهم عزباً غير متزوج أو يبيت بها، ويسامح بالمبيت خارجها خمس ليال من كل شهر][4].

وقد يشترط الواقفون أن يسكن بيوت المدرسة فقط المرتبون بها دون

---

(١) حضارة العراق جـ ٨ ص ٦٢ وما بعدها.
(٢) المقريزي الخطط والآثار جـ ٢ ص ٣٧١.
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) كتاب علي سالم ص ٣١٧ عن حجة السلطان برقوق رقم ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق القومية.

غيرهم، حيث يقول ابن جماعة: [إذا حصر الواقف سكنى المدرسة على المرتبين بها دون غيرهم لم يسكن فيها غيرهم][1].

«والراتب عند المحدّثين ما يُقَدَّم مكافأةً لمن هو في منصب أو خدمة، وعلى ذلك فالمرتبون هم الذين يجري عليه ادرار من أوقاف المدرسة فيقيمون فيها»[2].

واستحب الفقهاء من ساكني المدارس أن يبادروا بإخلاء مساكنها حين يبلغون غايتهم من تحصيل العلم، ليتيحوا لغيرهم من الطلاب فرصة الإقامة بها.

[واللبيب المحصل يجعل المدرسة منزلاً يقضي وطره منه ثم يرتحل عنه، فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام والتفرغ، ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام كالخوانق لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له][3].

واجتهد فقهاء ذلك العصر في تحديد الآداب التي ينبغي أن يلتزم بها ساكنو المدارس من طلاب ومعلمين ويذكر بدر الدين بن جماعة طرفاً من هذه الآداب:

- [يحضر درسها لأنها من أعظم الشعائر المقصودة ببنائها ووقفها، لما فيه من القراءة والدعاء للواقف والاجتماع على مجلس الذكر وتذاكر العلم، فإذا ترك الساكن فيها ذلك فقد ترك المقصود مسكنه الذي هو فيه][4].

- [ألاّ يرفع صوته بقراءة أو تكرار أو بحث رفعاً منكراً، أو يغلق بابه أو يفتحه بصوت، ونحو ذلك لما في ذلك كله من إساءة الأدب على الحاضرين والحمق عليهم][5].

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٨ وما بعدها تذكرة السامع والمتكلم ص ٢١٠ الهامش.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٢١٠.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) نفس المصدر السابق.

- [إذا سكن في البيوت العليا خفّف المشي والاستلقاء عليها ووضع ما يثقل كيلا يؤذي من تحته][1].

- [لا يكثر التمشي في ساحة المدرسة بطالاً من غير حاجة إلى راحة أو رياضة، أو انتظار أحد][2].

- [إذا كان مسكنه في مسجد المدرسة أو مكان الاجتماع، فليتحفظ عند صعوده إليه من سقوط شيء من نعليه، ولا يقابل بأسفلها القبلة، ولا وجوه الناس][3].

- [لا يتخذ باب المدرسة مجلساً بل لا يجلس إلا لحاجة أو في فترة لقبض أو ضيق صدر][4].

- [ألّا ينظر في بيت أحد في مروره من شقوق الباب ونحوه ولا يلتفت إليه، إذا كان مفتوحاً، وإذا سلم سلم وهو مار من غير التفات، ولا يكثر الإشارة إلى الطاقات ولا سيما إذا كان فيها نساء][5].

- [ألّا يرفع صوته جداً في تكرار أو نداء أحد أو بحث كيلا يشوش على غيره، بل يخفضه ما أمكن مطلقاً ولا سيما بحضور المصلين أو حضور أهل الدرس، ويتحفظ من العنف في إغلاق الباب، وإزعاج المشي في الدخول أو الخروج والصعود والنزول، وطرق باب المدرسة بشدة لا يحتاج إليها ونداء من بأعلى المدرسة من أسفلها إلا بأن يكون بصوت معتدل عند الحاجة. وإذا كانت المدرسة مكشوفة إلى الطريق السالك من باب أو شباك تحفظ فيها عن التجرد عن الثياب وكشف الرأس الطويل من غير حاجة][6].

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٨ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٢١٠ وما بعدها وتذكرة السامع والمتكلم ص٢١٠ وما بعدها.
(٤) نفس المصدر السابق
(٥) نفس المصدر السابق.
(٦) نفس المصدر السابق.

- [ويتجنب ما يعاب كالأكل ماشياً، وكلام الهزل غالباً، والبسط بالنعل، وفرط التمطي والتمايل على الجنب والقفا والضحك الفاحش بالقهقهة][1].

وهناك بعض التنظيمات التي تتعلق باستخدام هذه المساكن منها:

- [ألّا يسكنها نساء في أمكنة تمر الرجال على أبوابها،أولها كُوى تشرف على ساحة المدرسة][2].

- [ألّا يُدخِل إلى الفقيه في المدرسة من يكرهه أو من سَيِّىءِ سكانها، أو ينمّ عليهم،أو يوقع بينهم أو يشغلهم عن تحصيلهم][3].

- [أن تخصص المساكن العالية لمن لا يضعف عن الصعود إليها][4].

- أما من كان ضعيفاً، ومن يُقصد للفتيا والاشتغال عليه فالمساكن السفلية أولى بهم. المراقي التي تقترب من الباب أو الدهليز أولى بالموثوق بهم، والمراقي الداخلية التي يحتاج فيها إلى المرور بأرض المدرسة أو بالمجهولين والمتهمين][5].

بالإضافة إلى التعليمات المتعلقة بحفظ أثاث المدرسة وصيانتها ونظافتها][6].

الشروط الواجب مراعاتها في المتعلم:

«دعا ابن تيمية إلى مراعاة عدد من الشروط والمبادىء لتسير العملية التربوية في مسارها الصحيح وهذه الشروط على النحو التالي:

١ - مراعاة استعدادات المتعلم وطاقاته، ولقد أودع الله في كل إنسان

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ص٢١٠ وما بعدها.
(٢) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٦٠.
(٣) نفس المصدر السابق
(٤) نفس المصدر السابق
(٥) نفس المصدر السابق
(٦) نفس المصدر السابق

وسعاً محدداً من الفهم والإرادة، وعلى التربية مراعاة هذا الوسع، والانسجام مع حاجات الإنسان المتعلم، وقدراته والنظام التربوي الأمثل الذي يراعى هذا المبدأ هو نظام التربية الإسلامية، ومنهاج السنة النبوية، وفي ذلـك يقول ابن تيميـة: الوسع هو ما تسعه النفس فلا تضيق به ولا تعجز عنه، فالوسع فُعْلٌ معنى مفعول كالجهد، وهذا أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ سورة الحج آية ٧٨، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾ سورة البقرة آية ١٨٥ . وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجعَلَ عَليكم مِن حَرَجٍ﴾ سورة المائدة آية ٦ ، والحرج، الضِّيق فهو نفى أن يكون عليهم ضيق، أي ما يضيق عنهم، كمـا أخبر أنـه لا يكلف النفس إلا ما تسعـه، فـلا بـد أن يكـون الإيجاب والتحريم مما تسعه النفس»[1].

التأديب والعقوبات في المدارس:

«قدموا رجلاً من الخوارج إلى عبـد الملك بن مروان، لِتُضـرَب عنقه، ودخـل على عبد الملك ابن لـه صغير، قـد ضربـه المعلم، وهو يبكي، فَهَمَّ عبـد الملك بالمعلم، فقـال له الخـارجي: دعوه يبكي فـإنه أفتـح لجـرمـه، وأصح لبصره، وأذهب لصوته. قـال له عبـد الملك: أما يشغلك مـا أنت فيه عن هـذا؟ قال الخـارجي: ما ينبغي لمسلم أن يشغله عن قـول الحق شيء، فأمر بتخلية سبيله»[2].

كانت العقوبات في نظر معظم الفقهاء وسيلة وليست غـاية. الهـدف من ورائها تقوية الطالب، وإصلاحه، وليست سلاحاً في يـد المعلم يستخدم ضـد الطالب، أو يقوم بـه شخص آخر غيـر المعلم، يضرب الصبيـان دون رحمة أو شفقة، كما أن الثواب يهدف إلى دفع الطالب إلى العمل والاجتهاد.

---

(١) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٣٨ .

(٢) البيان والتبيين ص ٢٥٩ جـ ١ .

وقد استغل المعلمون الحديث الشريف: «أدب الصبي ثلاث درر فما زاد عليه قوصص به يوم القيامة»[1].

حُدثنا عن عبد الرحمن بن عبيد بن إسحق عن سفيان بن محمد قال: كنت جالساً عند سعد الخفاف فجاءه ابنه يبكي قال: يا بني ما يبكيك؟ قال: ضربني المعلم. قال: أما والله لأحدثنكم اليوم، حدثني عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «شرار أمتي معلمو صبيانهم، أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين»[2].

وهناك بعض الاجتهادات في هذا المجال:

عند ابن سحنون:

١ - إذا أدب المعلم الصبي الذي يجوز له فأخطأ ففقأ عينه، أو أصابه فقتله، كانت على المعلم كفارة في القتل، والدية على العاقلة، إذا جاوز الأدب، وإذا لم يجاوز الأدب، وفعل ما يجوز له فلا دية عليه، وإنما تضمن العاقلة من ذلك، ما يبلغ الثلث، وما لم يبلغ الثلث ففي ماله[3].

٢ - إذا ضرب المعلم الصبي، بما يجوز له أن يضربه، إذا كان مثله يقوى على مثل ذلك فمات، أو أصابه منه بلاء، لم يكن على المعلم شيء غير الكفارة إن مات، وإن جاوز الأدب، ضمن الدية في ماله مع الأدب، وقد قيل على العاقلة مع الكفارة[4].

٣ - إذا جاوز المعلم - الأدب فمرض الصبي من ذلك فمات - فإن كان جاوز ما يعلم أنه أراد به القتل أقسموا وقتله به الأولياء، وإن كان لم يجاوز ما يرى أنه أراد به القتل إلا على وجه التأديب. إلا أنه جهل الأدب أقسم الأولياء،

---

(١) آداب المعلمين ص ٩٢ - ٩٣ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٧٦ والحديث نقلناه دون أن نتأكد من صحته.

(٢) آداب المعلمين ص ٨٨ - ٨٩.

(٣) آداب المعلمين ص ١٣١ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٧٧.

(٤) نفس المصدر ص ١٣٢.

واستحقوا الدية قبل العاقلة وعليه هو الكفارة، فإن كان المعلم لم يل العقل وإنما وليه غيره، كان الأمر على ما فسرت لك، ولا شيء على المأمور[1].

وقد حاول ابن سحنون تبيان الأسباب الموجبة للضرب وهي على النحو التالي:

١ - [على المؤدب أن يؤدبهم (الصبيان) إذا آذى بعضهم بعضاً، وذلك عندي إذا استفاض علم الأذى من الجماعة منهم، أو كان الاعتراف، إلا أن يكونوا صبياناً قد عرفهم بالصدق، فيقبل قولهم ويعاقب على ذلك][2].

تحديد الأذى إذا استفاض، يوحي أن الأذى القليل يؤدب عليه بالكلام والتنبيه والتحذير.

٢ - يؤدبهم على اللعب والبطالة، ولا يجاوز الأدب عشرة[3].

٣ - يؤدبهم على قراءة القرآن ولا يجاوز أدبه ثلاثاً[4].

٤ - إن الأدب على قدر الذنب وربما جاوز الأدب الحد[5].

٥ - يأمرهم بالكف عن الأذى، ويرد ما أخذ بعضهم لبعض، وليس هو من ناحية القضاء[6].

٦ - أن لا يولي أحداً من الصبيان لضرب[7].

٧ - لا يجوز له أن يضرب رأس الصبي ولا وجهه[8].

٨ - لا يجوز له أن يضرب الصبي بعصا ولا بلوح[9].

---

(١) آداب المعلمين ص ١٣٣.
(٢) آداب المعلمين ص ١١٧ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٧٨.
(٣) نفس المصدر ص ٨٩.
(٤) نفس المصدر ص ٨٩.
(٥) نفس المصدر ص ٩٤.
(٦) نفس المصدر ص ١١٨.
(٧) نفس المرجع ص ٩٨.
(٨) نفس المرجع ص ١٠٠ - ١٠١.
(٩) نفس المرجع ص ١٣٦.

٩ - لا يجوز له أن يمنعه من طعامه وشرابه إذا أرسل وراءه[١].

طريقة التأديب عند ابن سحنون:

١ - أن يكون الهدف المنفعة (لا بأس أن يضربهم على منافعهم ولا يجاوز بالأدب ثلاثاً][٢].

٢ - [أن لا يجاوز المعلم في الضرب ثلاثاً، إلا بعد إذن ولي الأمر، ولا يجاوز بالأدب إلا بإذن الأب في أكثر من ذلك إذا آذى أحداً][٣].

تيمناً بحديث الرسول ﷺ: «لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة أسواط إلا في حد»[٤].

التأديب المعنـوي:

إجازة الضرب لم تكن مطلقة بل مقيدة بالضوابط التالية:

- يلجأ المعلم إلى الضرب بعد أن يستنفذ جميع وسائل التأديب المعنوي التي يجب أن تسبق التأديب الجسدي[٥] وتتضمن:

أ - نصح الصبي ولفت نظره إلى الخطأ وكيفية التخلص منه[٦].

ب - إعلام أهل الصبي عن سلوك ابنهم، ومشاركتهم في تقويم الاعوجاج.

جـ - قيام الصلة بين المعلم والأهل، فـالمعلم مكلف إعلام الأهـل، في حال غياب الصبيان عن الكتاب، والعلاقة بين أولياء الأمـور والمعلم تساعـد

---

(١) آداب المعلمين ص ١٠١ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٧٩.
(٢) نفس المصدر ص ٨٩.
(٣) نفس المصدر ص ٨٩.
(٤) نفس المصدر ص ٨٩.
(٥) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٠.
(٦) نفس المصدر.

كثيراً على فهم سلوك الصبي والتشاور في كيفية تأديبه[1].

د ـ في حال عدم تحقيق تقدم مع الصبي، يلجأ المعلم إلى[2] أسلوب آخر هو التأنيب على انفراد ثم التقريع على رؤوس الأشهاد .

هـ ـ حبس الصبي في الكتاب بعد الانصراف، شرط ألّا يمنع الصبي من طعامه وشرابه إذا أرسل وراءه[3]، لأن الصبي بحاجة إلى الغذاء لنموه، والهدف من القصاص تقويم السلوك لا الإساءة إلى نموه ونمائه.

و ـ ويشترط في التأنيب المعنوي، أن يخلو من الشتم والسباب[4]، فلا يتلفظ المعلم بألفاظ تسيء إلى كرامة الصبي وأهله.

التأديب الجسدي:

يلجأ المعلم إلى الضرب كوسيلة أخيرة من وسائل التأديب إذا لم تفلح الوسائل المعنوية في الإصلاح، ولم تؤد إلى أي تقدم ملحوظ، ويشترط في التأديب الجسدي مراعاة الأمور التالية:

ـ يتولى المعلم قصاص الصبي [ولا يولي أحداً من الصبيان الضرب][5]، لأن الصبي قد يضرب تشفياً أو انتقاماً.

ـ المعلم لا يلجأ إلى القسوة، إلا من أجل الإصلاح، لأنه بمثابة الأب للصبي، وينبغي أن يكون تأديبه رحيماً[6].

ـ لا يضرب المعلم الصبي وهو غضبان، لأن الغضب يخرج المعلم عن

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٠.
(٢) نفس المصدر. التربية في الإسلام مصر دار المعارف ص ١٥ للأهواني.
(٣) آداب المعلمين ص ١٠١ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨١.
(٤) التربية عند ابن سحنون والقابسي، الفكر العربي ص ٩٦، والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨١.
(٥) آداب المعلمين ص ٩٨ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨١.
(٦) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨١.

الهـدف المرجـو من التأديب ويشتـرط سكـوت غضبـه، حتى يبـاشـر التـأديب الجسدي[1].

حددت وسيلة الضرب بشيئين:

أ - العصـا ويشترط فيهـا ألّا تكـون غليـظة تكسـر العـظم، ولا رقيقـة تؤلم الجسم[2].

ب - الدرة، ويشترط أن تكون رطبة لينة، حتى لا تؤذي الصبيان[3].

- أماكن الضرب يجب أن تكـون مأمـونة، وحـددت باللوايـا، والأفخاذ، وأسافل القدمين، لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة[4].

ولا يجوز ضرب رأس الصبي، ولا وجهه[5]، فالضرب في هذه الأمـاكن يضر بالصبي ويلحق به الأذى.

- لا يجـوز ضرب الصبي قبـل العاشـرة من عمره استنـاداً إلى الحـديث الشريف: «مُرُوا الصبيانَ بالصـلاة لسبع سنين، واضـربوهم عليهـا لعشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع»[6].

يستشف من ذلك أن التأديب المعنوي يباشر على الصبيان الذين لم يتعدوا العاشرة من عمرهم، في سبيل تقويم سلوكهم[7].

- ولا يباشر المعلم الضرب قبل أخذ الإذن من أولياء الأمور، لأن المعلم يستمد سلطته من آباء الصبيان ولهؤلاء أن يستردوا هذه السلطة إذا شاؤوا[8].

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٠.
(٢) كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٤ والمذهب التربوي عند ابن سحنون.
(٣) التربية في الإسلام ص ١٥ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨١.
(٤) كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٤ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص٨٣.
(٥) آداب المعلمين ص ١٠٠ - ١٠١ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٣.
(٦) آداب المعلمين ص ١٠٩ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٣.
(٧) المذهب التربوي عند ابن سحنون.
(٨) التربية في الإسلام ص ٢١٤.

ـ يحق للمعلم ضرب الصبي ثلاث درر إذا لم يأت ولي الأمر.

ـ [إن تعليم الصبي يستند إلى عقد بين ولي الأمر، والمعلم، فقد اشترط ابن سحنون على معلم ابنه محمد ألاّ يؤدبه إلا بالمدح، ولطيف الكلام، وليس بالضرب والتعنيف، ولا يحق للمعلم أن يجاوز بالأدب ثلاثاً إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذاآذى أحداً][1].

ـ لا يضرب الصبي على انفراد بل أمام زملائه حتى يؤدي الضرب هدفه التربوي، وهو زجر للمذنب ووعظ للصبيان[2].

ـ لأن مشاهدة الصبيان للعقوبة، تؤثر فيهم تأثيراً لا يقل عن الأثر الذي يلحق المذنب، وذلك أن الألم ينتقل إلى الناس كالعدوى، بدافع المشاركة الوجدانية أو التعاطف، وهو من النزعات الفطرية في الإنسان، ويلعب التصور والخيال دوراً كبيراً في هذه المسألة[3].

ـ يضع المعلم في الحسبان حين يمارس التأديب الجسدي أن أي أذى يلحق الصبي يتحمل تبعاته، وينطبق عليه مفهوم الآية الكبرى: ﴿ وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبابِ لَعَلّكم تَتَّقون ﴾[4].

ـ لا يلحق القصاص الصبي فقط، إنما يتناول المعلمَ إذا ضرب (الصبيَّ بما لا يجوز له أن يضربه، وإذا كان مثله لايقوى على مثل ذلك فمات، أو أصابه منه بلاء، لم يكن على المعلم شيء غير الكفارة، إن ماته وإن جاوز الأدب، ضمن الدية في ماله مع الأدب. وقد قيل عليه العاقلة مع الكفارة، فإن جاوز الأدب فمرض الصبي من ذلك فمات، فإن كان جاوز ما يعلم أنه أراد به القتل أقسموا وقتله به الأولياء)[5].

---

(1) آداب المعلمين ص ٨٩.

(2) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٢ وما بعدها.

(3) التربية في الإسلام ص ١٦ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٢ ـ ٨٣.

(4) سورة البقرة آية ١٧٩.

(5) آداب المعلمين ص ١٣٢ ـ ١٣٣ والمذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٣.

تتناسب العقوبات التي تلحق بالمعلم مع الأذى الذي يلحق بالصبي، كما أن مشاركة أهل العلم في دفع التعويضات المتوجبة على المعلم يفتح الباب نحو مراقبة اجتماعية للضرب، ويجعل أهل المعلم الذين يحملون قسماً من الدية التي تفرض على المعلم يشاركون في مراقبة نشاطه التعليمي[1].

العقوبات بالنسبة للمتعلمين:

[إن الشدة على المتعلمين مضرة بهم].

«وذلك لأن إرهاف الحد للتأديب مضر بالمتعلم ولا سيما في أصاغر الولدان، لأنه من سوء الملكة بدليل أن من كان مرباه بالقهر من متعلم أو مملوك، أو خديم عاد بضيق النفس، وذهاب النشاط، وحصول الكسل، والحمل على الكذب والخبث والمكر والخديعة، وفساد معاني الأساليب من حيث الاجتماع، وهي الحمية والمدافعة، والقبول عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، حتى ينقبض عن غاية مقصودة، فيرتكس ويعود أسفل السافلين، كما وقع لكل أمة حصلت في قبضة العتر والعسف»[2].

«ويعلل لى ذلك بمَثَلٍ هو اليهود كيف وصلت أخلاقهم بسبب ما عانوه من قهر وتعسف:

[واعتبر ذلك في كل من يملك عليه أمره، ولا تكون الملكة الكافلة لـه رفيقة به، نجد ذلك فيهم. وانظر في اليهود وما حصل فيهم بذلك من خلُق السوء، حتى إنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج ومعناه في الاصطلاح: المقهور، المتخابث، والكيد وسببه ما قلناه، فذلك ينبغي لمعلم الولدان ألا يشدد عليهم في التأديب][3].

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٨٣.
(٢) بدائع السلك في طبائع الملك جـ ٢ ص ٣٦٨.
(٣) نفس المصدر السابق.

مقدار العقوبة التي لمؤدب الصبيان الحق بها:

[قال محمد بن أبي زيد[1]: لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم، إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط، ومن كلام عمر رضي الله عنه: «من لم يؤدبه الشرع، لا أدبه الله» حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته][2].

العقوبة عند ابن تيمية:

«لا يجوز لأحد المعلمين معاقبة أحد من الطلبة المتدربين بغير العقوبة الشرعية، وليس لأحد من المتعلمين والأستاذين أن يعاقبه بما يشاء، وليس لأحد أن يعاونه ولا يوافقه على ذلك، مثل أن يأمر بهجر شخص فيهجره، بغير ذنب شرعي، أو يقول أقعدته، أو أهدرته، أو نحو ذلك»[3].

«وإذا وقع بين معلم ومعلم، وتلميذ وتلميذ، أو معلم أو تلميذ خصومة ومشاجرة، لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر، فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره»[4].

«ومن مال مع صاحبه ـ سواء كان الحق له أو عليه ـ فقد حكم بحكم الجاهلية، وخرج عن حكم الله ورسوله والواجب عليهم جميعهم أن يكونوا يداً واحدة مع الحق على المبطل، فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله والمهان عندهم من أهانه الله ورسوله بحسب ما يرضي الله ورسوله لا بحسب

---

(١) محمد بن أبي زيد: هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفري القيرواني، من أعظم فقهاء المالكية ونظامها وكتبه متعددة في الفقه المالكي، علاوة على أنه صاحب الرسالة المشهورة، طلب العلم، توفي سنة ٣٨٦ هـ.

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك ص ٣٦٨.

(٣) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٠٤.

(٤) نفس المصدر السابق.

هواه. فإنه من يطع الله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه»[1]

فليس لمعلم أن يحالف تلامذته على هذا، ولا لغير المعلم أن يأخذ أحداً من تلاميذته لينسبوا إليه على الوجه البدعي لا الابتداء ولا إفادة، وليس لـه أن يجحد حق الأول غيره، وليس للثاني أن يقول: شد لي وانتسب لي دون معلمك الأول، بل إن تعلم من اثنين فإنه يراعى حق كل منهما، ولا يتعصب لا للأول ولا للثاني، وإذا كان تعليم الأول أكثر كانت رعايته لحقه أكثر»[2].

لا يجوز للتلاميذ أن يكونوا جماعات لأهداف دنيوية أو من أجل مخالفة فئة ضد فئة، وليس للتلميذ أن ينتقل من أستاذ إلى أستاذ، ولا يشيع لأحد ضد أحد بل تجمعهم طاعة الله والجهاد في سبيله»[3].

«ومن حالف شخصاً على أن يوالي من والاه، ويعادي من عـاداه كان من جنس التتر المجاهدين في سبيل الشيطان»[4].

«ويحسن أن يقول لتلميذه، عليك عهد الله وميثاقه أن توالي من والى الله ورسوله، وتعادي من عادى الله ورسوله، وتعـاون على البر والتقـوى ولا تعاون على الإثم والعدوان»[5].

عطـل المـدارس:

عطلة عيد الفطر وتتراوح بين يوم واحد ولا بأس أن يؤذن لهم ثلاثة أيام.

عطلة عيد الأضحى وتتراوح بين [ثلاثة أيام ولا بأس أن يؤذن لهم بخمسة أيام] [6].

---

(١) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٠٤ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.
(٥) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٠٤ وما بعدها.
(٦) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٨.

أما العطلة الأسبوعية فتحدد بيوم الجمعة (ويؤذن لهم في يوم الجمعة) كما يحق له أن يؤذن (في الجمعة اليوم ونحوه) للصبيان. حيث لا نجد ذكراً للعطلة الصيفية، ربما يعود ذلك إلى أنه اعتبر المعلم أجيراً عند أولياء الأمور، ولا يحق له أكثر من نهار عطلة في الأسبوع وثمانية أيام في السنة، كغيره من الأجراء، ويضاف إلى ذلك يوم عطلة بعد كل امتحان، ولا يحق للمعلم أن يؤذن للصبيان في غير ذلك إلا بإذن من الآباء»[١].

الوزير نظام الملك واهتمامه بالعلم والمدارس

«هو الوزير أبو علي الحسين بن علي بن إسحق الطوسي الشافعي، ولد عام (٤٠٨ هـ - ١٠١٧ م) في مدينة طوس[٢]، وفيها نشأ وتعلم، وحفظ القرآن، ولقن مبادىء العربية، ثم رحل إلى نيسابور حيث درس علوم العصر، وأخذ عن كبار علمائها. قال ابن العديم: «سمع الكثير، وحدث وأملى بخراسان جمعاً وغيرها من البلاد، وكان ثقة ثبتاً متحرياً فهماً علماً»[٣]، والتقى خلال ذلك بكل من الشاعر المنجم عمر بن الخيام، والداعية الباطني حسن الصباح[٤] منظم حركةالحشاشين، ثم عاد إلى طوس، واصل رحلته العلمية إلى بخارى، حيث أقام بها ثلاث سنوات، عكف خلالها على البحث وتلقي العلوم، ثم رحل إلى مرو[٥] ثم إلى كابل[٦]، وأخيراً إلى غزنة[٧] التي تدرب فيها لتلقي بعض الأعمال الإدارية والحسابية والإنشاء، ثم رحل إلى بلخ[٨] حيث استكتبه حاكمها أبو علي أحمد بن شاذان الذي كان يليها من قبل جفري بك داوود والد الأمير ألب أرسلان[٩].

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٨.
(٢) طوس مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ. معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٩.
(٣) ابن العديم بغية الطلب ص ٦٤.
(٤) حسن الصباح: مؤسس حركة الحشاشين.
(٥) مرو: مدينة شهيرة في خراسان.
(٦) كابل: مدينة بالإقليم الثالث كانت تعد من مدن الهند.
(٧) غزنة: مدينة عظيمة يقال لها غزنين تقع في أطراف خراسان كانت تعد من مدن الهند.
(٨) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.
(٩) الحياة العلمية في العراق في العهد السلجوقي ص ١٧٣.

تلقى نظام الملك خلال رحلته العلمية الطويلة هذه علوماً شتى منها علوم اللغة العربية والفقه، والتفسير والحديث وعلم الكلام، والتاريخ والحساب، وكان نظام الملك يتقن اللغتين الفارسية والتركية إلى جانب العربية، ومن بلخ رحل إلى ديوان جفري بك داوود الذي قدمه إلى ابنه ألب أرسلان، وهنا بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياة نظام الملك تحولت فيها شخصيته وحياته تحولاً كبيراً، فلقد ارتقى أول مدارج حياته السياسية لدى سلاطين السلاجقة خاصة ألب أرسلان وملكشاه، كما ارتبط من جهة أخرى بخلفاء بني العباس، ولا سيما القائم بأمر الله، ولم يجد الأمير ألب أرسلان بعد توليه السلطنة، من معاصريه من يقوم مقام نظام الملك، سياسة وثقافة وعلماً وحكمة ودراية وإخلاصاً، ولذلك اختاره وزيراً له عام (٤٥٥ هـ - ١٠٦٣ م)[(١)]».

«وكان نظام الملك خلال فترة وزارته التي امتدت ثلاثين عاماً يدير أمور السلطنة في بلاد السلطان جميعاً بفضل دهائه وخبرته، حتى أصبح الملك غير المتوج الذي يحكم بأمر الخليفة والسلطان معاً وفي تلك الدولة الواسعة الأطراف، التي امتدت من تخوم الصين شرقاً حتى بيت المقدس غرباً ولقد كان نظام الملك - كما تدل سيرته - وزيراً هادفاً، وليس محترفاً يتخذ من السياسة مأرباً للوصول إلى منصب أو جاه[(٢)]».

«فلقد شهد في النصف الأول من القرن الخامس الهجري انهيار دولة الغزنويين، وأفول السلطة البويهية ومدى الانهيار الذي أصاب الخلافة العباسية ومؤسساتها، مما أكسبه وضوحاً في الرؤية. وخبرة في معالجة المشاكل التي تطرأ بحنكة وبعد نظر، وقد تركت الأحداث لديه انطباعاً نفسياً عميقاً كان له أبعد الأثر في حنكته ودهائه في إدارة شؤون الدولة[(٣)]».

ولاحظ نظام الملك ما يواجه الأمة من أخطار تمثلت في حالة الانقسام في جسم الدولة، وشيوع الفرق الإسلامية التي مزقت البلاد، إضافة إلى التيارات

---

(١) الحياة العلمية في العراق في العهد السلجوقي ص ١٧٣.
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٧٣.
(٣) نفس المصدر السابق في ص ١٧٣.

الفكرية الخطيرة التي كانت تعصف بالعالم الإسلامي، لذلك فقد حدد لنفسه هدفين رئيسيين يتمثلان في:

١ ـ «ضمان مصلحة الخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية على السواء، عن طريق إحلال الاتساق والانسجام بين مؤسسات الدولة والسلطنة وإزالة أسباب الخلاف[1]».

٢ ـ «وهو الأهم فهو الدفاع عن الفكر والعقيدة الإسلامية ضد أعدائها، سواء في الداخل، ممن كانوا متسترين تحت ستار الإسلام، أو في الخارج متمثلاً في مطامع الصليبيين، وذلك عن طريق نشر العلم وتشجيع العلماء وافتتاح المراكز التعليمية، من جهة، وتقوية الجيش وتعزيز قواته واستعداده من جهة أخرى[2]».

«والذي يعنينا هنا هو اهتمامه بالعلم والعلماء والتعليم وإنشاء المدارس، وتركيزه على تخريج أجيال من العلماء المدافعين عن العقيدة الإسلامية، ومن منظور أهل السنة وعقيدة أهل السلف، فكان نظام الملك ـ كما تقدم ذكره ـ من العلماء الذين بذلوا جهداً عظيماً في تحصيل العلم، فلقد غرته موجة الإقبال على الحديث والشغف بدراسته وحفظه، فكان ولوعاً به سماعاً ورواية. قال عبد الله بن علي بن إسحاق أخو نظام الملك: (كان أخي نظام الملك يملي بالري، فلما فرغ قال: إني لأعلم أني لست أهلاً لما أتولاه من هذا الإملاء، لكني أريد أن أربط نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ)[3] ويتفق الذين ترجموا لنظام الملك على أنه أملى مجالس عدة في مدن مختلفة، ومناسبات عديدة فحدث في أصبهان والري ومرو ونيسابور وبغداد، وكان يحضر مجالس أهل الحديث ويستمع إليهم ويناقشهم.

ولقد أكسبته أعماله الإدارية وتنقله في الدول المشرقية المختلفة وادارته السلطنة السلجوقية حنكة سياسية واسعة، وخبرات صاغها في كتابه«سياسة نامه»

---

(١) الحياة العلمية في العراق في العهد السلجوقي ص ١٧٣ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٣.

الذي يعرض فيه آراءه في الحكم من خلال بعض النوادر النموذجية، وهو يعد أسلوباً في الإدارة وانفرد به السلاجقة[1].

امتدت أيام وزارة نظام الملك ثلاثين عاماً، لم يغفل ليل أو نهار، وسَفَراً أو حَضَراً، عن الإنعام على العلماء وارفاد الأفاضل، وخدمة رجال المعرفة، وكان ينفق الكثير من ماله على أهل العلم والأدب فكان «أهل الدين والعلم والفضائل راتعين في انعامه، وفي أيامه نشأ للناس أولاد نجباء، وتوفر على تهذيب الأبناء والآباء. ولم يزل في بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء... ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه من جراية، حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره»[2].

ويقول ابن العديم: إنه [كان يكرم العلماء على اختلاف مذاهبهم... وكان يرعى لأهل البيوتات بيوتاتهم، وللعلماء علمهم، وللشعراء شعرهم، وللأدباء أدبهم] ، «[وكان مجلسه عامراً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل التدين، حتى كانوا يشغلون عن مهمات الدولة، فقال له بعض كتّاب هذه الطائفة من العلماء «قد بسطتهم في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية ليلاً نهاراً فإن تقدمت ألا يوصل أحد إلا بإذن»... فقال: [هذه الطائفة أركان الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلست كلاً منهم على رأسي لاستقللت لهم ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني يقوم لهما، ويجلسهما في مسند ويجلس في المسند على حالته[3]».

وقد جعل داره ندوة للعلماء والأدباء، دون تقيد بِسِنٍّ أو مذهب، لأن الجامع بين هؤلاء العلماء هو العلم والوصول إلى الحقيقة، وقد وصف الشيخ السبكي داره بقوله: (إنها كانت معمورة بالعلماء، مأهولة بالأئمة والزهاد، ولم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه وترددهم على بابه، وتصنيفهم الكتب باسمه[4]».

---

(١) الحياة العلمية في العصر السلجوقي الراق ص ١٧٣ وما بعدها.

(٢) الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ١٧٣ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

وكان قد اعتاد على السماع والمناقشة، فكان إذا وفد عليه أحد رجال العلم اغتنم فرصة وجوده فعقد مجلساً للمناظرة بين هذا العالم وبين أضرابه من علماء عصره، وربما رأس الجلسة بينهم وأسهم في المناظرة، ومثل هذا حصل في المناظرة التي جرت بين الإمام أبي حامد الغزالي وبين عدد من العلماء في مجلس الوزير نظام الملك، ولطالما جرت مناقشات بين أبي إسحق الشيرازي وبين أبي المعالي الجويني عندما كان ببغداد بحضرة نظام الملك.

وفي عهد وزارة نظام الملك أنشئت المدارس النظامية، وكان أعظمها وأهمها نظامية بغداد التي بدىء في بنائها عام (٤٥٧ هـ - ١٠٦٤ م) وافتتحت للدراسة عام (٤٥٩ هـ - ١٠٦٦ م). وتوفي نظام الملك - رحمه الله - عام (٤٨٥ هـ - ١٠٩٢ م) وقال عنه أبو الوفاء علي بن عقيل في كتابه الفنون «أيامه التي شهدناها تربي على كل أيام سمعنا بها... فأبهرت العقول سيرته جوداً وكرماً وعدلاً، بنى المدارس، ووقف الوقوف، ونعش من العلم وأهله ما كان خاملاً مهملاً في أيامهم من قبله، وكانت سوق العلم في أيامه قائمة، والنعم على أهله دارَّة»[1].

نموذج من إجازة بالفتيا والتدريس لأحد المتخرجين من طلاب العلم:

«أما الإجازة بالفتيا فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس، أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس، ويكتب له بذلك.

وجرت العادة أن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض إما في فرضه الشامي أو نحوها من البلدي وتكون الكتابة بقلم الرقاع، أسطراً متوالية بين كل سطرين نحو اصبع عريض.

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن المُلقِّن[2] سقى الله تعالى عهده، عند قدومه ثغر

---

(١) الحياة العلمية بالعراق ص ١٧٣. وما بعدها.

(٢) توفي سنة ٨٠٤ هـ مات أبوه وله من العمر سنة واحدة فتزوجت أمه بشيخ كان يلقن القرآن اسمه عيسى المغربي، فنشأ في بيته فعرف بابن الملقن وكان يفضل أن يعرف بابن النحوي.

الإسكندرية، وأن يقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (للهجرة) وكتب لي بذلك القاضي تاج الدين بن غنوم موقعُ الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي الكامل، وسني يومئذٍ إحدى وعشرون سنة فضلاً من الله ونعمة.

ونسختها بعد البسملة الشريفة:

الحمد لله الذي رفع العلماء مقداراً، وأجزل نعمه عليه إذ أعلى لهم مناراً، ووفق بسواء الطريق من اقتدى بهم إيراداً وإصداراً، أُشرعت هممهم العلية في حلبة السباق فهي لا تجارى وتحلوا بالمفاخر جهراً وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها إسراراً، أبرز لهم في حالات المفاخرة أقماراً، وأزال بضياء علومهم ريب الشك حتى عاد ليل الجهالة نهاراً، جعلهم لدنياه أنصاراً، وصيَّرَهم نخبة أصفيائه إذ أودعهم من المعارف أسراراً، واختصهم بكونهم ورثة أنبيائه: وناهيك بها فخاراً.

أحمده حمد من هُدي إلى الحق فجعله شعاراً، واستضاء بنور الهدى فلجأ إلى مولاه في حالات سره وجهره افتقاراً، وعجز عن شكر ما أسدى إليه من النعم لما توالى عليه وَبْلُها مدراراً، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له تصديقاً وإقراراً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله والأصنام قد عُبدت جهاراً، والكفار قد أعرضوا عن الحق استكباراً، فقام بأمر الله انتصاراً، وقهر من أعرض عن الله اعترارا، وأخمده بضياء نوره الباطل وأهدره إهداراً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تزيده في ديننا استبصاراً،وتحط عنا من ثقل الذنوب أوزاراً، وتُبَوِّئُنا إن شاء الله تعالى في دار الخلود قراراً.

أما بعد، فقد وضح لذوي الأبصار والبصائر، واتضح عند ذوي الأسرار والسرائر،واستقر عند ذوي القلوب السليمة، والعقول الراجحة المستقيمة، أن منزلة الملة الشريفة عند الله تعالى أعلى المنازل، وفضله أفضل المآثر،وأثر الفضائل، وخصوصاً معرفة تفاصيل أحكام أفعال المكلفين بالشريعة المحمدية، التي مَن عَلِمها وعمل بها وعلّمها فقد سعد السعادة الأبدية، إذ هي الشريعة

الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة، الناسخة لما خالفها من الشرائع الغابرة، الباقية إلى أن يأتي وعد الله وكل شريعة سواها دائرة، فقد أعظم الله تعالى من يحفظها على عبادة المنة، إذ جعله وقاية لهم من مهالك الجهل وجُنّه، وأن ينزله في أعلى منازل الجنة، لما شهدت به نصوص الكتاب والسنة، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾[1] فنبهه على أن العلم أقوى أسباب العبادة إذ خصه به وحضه على أن يطلب منه الزيادة وقال تعالى: ﴿ وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَه إلا اللَّهُ والرَّاسِخونَ في العِلْم ﴾[2] فثنى بذكرهم بعده، لكونهم أفضل الخلائق عنده. وقال تبارك وتعالى اسمه، وتقدس علمه: ﴿ إنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِن عبادِهِ العلماءُ ﴾[3]، فأوضح بذلك أن أولياءه من خلقه العلماء، إذ وصفهم وخصهم بأنهم الخائفون منه الأتقياء وقال عليه السلام: «مَن يُرِدِ الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدينِ» وقال أيضاً: « مَنْ سَلَك طريقاً يلتمِسُ فيه عِلماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة» وقال أيضاً: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها إلا ذكرُ الله تعالى وما والاه وعالمٌ ومتعلمٌ».

ولما كان فلان ـ أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ـ ويسر إلى الخيرات طريقه ـ ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء، والقادة من الأكابر والفضلاء، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يرضي، وإلى نيل السعادة ـ إن شاء الله تعالى ـ يفضي ـ استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ـ الشيخ الإمام العلامة، الحبر الفهامة، فريد دهره، ونسيج وحده، جمال العلماء، أوحد الفضلاء، عمدة الفقهاء والصلحاء، سراج الدين مفتي الإسلام والمسلمين، أبو حفص عمر ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم العامل الأوحد، الكامل، القدوة، المرحوم نور الدين أبي الحسن علي ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الصالح، الزاهد العابد،

(١) طه آية ١١٤ .
(٢) آل عمران آية ٧ .
(٣) فاطر آية ٢٨ .

الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين بركة الصالحين، أبي العباس أحمد ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى. الشيخ الصالح، القدوة العارف، المرحوم شمس الدين أبي عبد الله محمد الأنصاري الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وببركته، وأشركنا والمسلمين في صالح أدعيته بمحمد وآله وصحبه وعترته.

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يُدَرِّس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المُطَّلبي الشافعي رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه، حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطاً ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه: لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته.

فليتلق أيده الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه المرتبة المنيفة، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه وأسدى من الإحسان الوافر إليه، وليراقب مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة من تحقيق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه في الورود والصدور، ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم، فذلك قول سعد قائله، وقد جاء: جُنَّةُ العالم «لا أدري» فإن أخطأها أصيبت مقاتله «فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا وبه أقرب طريق، ويهدينا إلى سواء السبيل فهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكتب في تاريخ كذا...»[1].

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٦٤.

مدارس الطباق[1]:

«كانت المماليك الذين يشتريهم السلطان أو الأمراء عادة من صغار السن فكان يوضع أغلبهم في أماكن خاصة، عرفت بالطباق، يقول المقريزي: إذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان، ونزله من طبقة جنسه، وسلم الطواشي برسم الكتابة ويقصد برسم الكتابة تعليم المماليك، وكان يطلق على المماليك بعد تسليمهم للطواشي برسم الكتابة «المماليك الكتابية» وكانت الطباق توجد في مناطق متفرقة بلغ عددها في رأي البعض استناداً إلى المصادر المعاصرة ثماني عشرة طبقة، مما يرجح أن هذه الطباق لم توجد كلها في وقت واحد، وهي طبقة الرفرف، وطبقة الطازية، وطبقة الزمام، وطبقة الخازندار، وطبقة الميدان، وطبقة الحوش، وطبقة المستجدة، وطبقة القاعة، وطبقة قراجا، وطبقة الأربعين، وطبقة الطواشي، وطبقة مرجان خازندار، وطبقة فيروز الخازندار، وطبقة الحزوب، وطبقة البرانية»[2].

ثم جمع الناصر محمد بن قلاوون الطباق كلها في مكان واحد، فبنى الطباق بساحة الإيوان بالقلعة وأسكنها المماليك السلطانية، وعمَّر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعني بالطباق غاية العناية، حتى إن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام، ويأمر

---

(١) مفردها طبقة أو طبق، وهي الأماكن التي يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان، وهي مدارس عسكرية ... التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٢٧.

(٢) فن التعليم عند ابن جماعة ص٤٠، المماليك للباز العريني ص٨٦.

بعرضه عليه، ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فمتى رأى فيه عيباً، استدعى المشرف والاستادار، ونهرهما، وحلَّ منه أي مكروه وكان يقول: [كل مملوك عمل شيئاً يذكر به ما بين مال وعقار وأنا عمرت أسواراً وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك][1].

وكان يشرف على هذه الطباق خدام أو الطواشي، وهم المسؤولون بالدرجة الأولى عن تأديب المماليك لهم رؤساهم، مقدمو الطباق، ثم يشرف عليهم جميعاً مقدم المماليك، ويقول المقريزي: ولهم أزمَّة من الخدام، وأكابر بين رؤوس النُّوب يفحصون عن حال الواحد منهم **الفحص الشافي**، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته»[2].

«وكانت تفرض على المماليك في هذه الطباق رقابة صارمة، لا من قبل خدام الطباق، أو مقدم المماليك وحدهم، ولكن من قبل السلاطين أيضاً»[3].

«ويقول ابن تفرى بردى: إن السلطان الناصر محمد أخرج جماعة منهم من الطباق إلى ضرائب التتار بقلعة الجبل، وضرب بعضهم بالمقارع هو وغلامه لكونه شرب الخمر ضرباً مبرحاً حتى مات منه المملوك بعد يومين»[4].

«وأعجب ابن تغرى بردى لهذا العمل فقال: لا شلت يداه هذا وأبيك العمل.

ثم أخرج جماعة من خدام الطواشية (أعني مقدم الطباق) وقطع جوامكهم وأنزلهم من القلعة لكونهم فرطوا في تربية المماليك[5]، كما ذكر أن السلطان وجد بعض المماليك قد نزل من القلعة وسكر فضرب السلطان كثيراً من الطواشية، وطرد كثيراً منهم وأنكر على الطواشي، مقدم المماليك وصرفه عن

---

(١) المقريزي الخطط والآثار جـ ٢ ص ٢١٣.
(٢) نفس المصدر، ص ٢١٤.
(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٤١.
(٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٩ ص ٧٣.
(٥) نفس المرجع والصفحة.

التقدمة بأقبغا، فضبط أقبغا المذكور طباق المماليك وضرب عدة منهم ضرباً مبرحاً أشرف منهم جماعة على الموت فلم يجسر بعد ذلك أحد أن يتجاوز طبقته إلى غيرها[١].

وبلغ من تأديبهم أن مقدم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدمي الطباق في السحر يشاور على مملوك أنه اغتسل من جنابة فيبعث من يكشف عن سبب جنابته، إن كان من احتلام فينظر في سراويله هل فيه جنابة أم لا؟.

فإن لم يجد جنابة جاءه الموت من كل مكان[٢].

وهكذا كان يوضع المماليك من صغار السن في الطباق، وتفرض عليهم هذه الرقابة ويعاملون بذلك الحزم، ويؤدبون ليتحلوا بجميل الأخلاق، وحميد الصفات، وكان من نتيجة ذلك أن صار هؤلاء المماليك سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى»[٣].

وقد تبدلت هذه الحال فيما بعد، فما إن جاءت أيام الظاهر برقوق حتى رخص للمماليك سكن القاهرة، وفي التزوج فنزلوا من الطباق إلى القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا للبطالة ونسوا تلك العوائد ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق، وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها، حتى من مماليك الطباق مع قلة عددهم ثم ساءت فيما بعد عناية السلاطين بهذه المدارس بعد الاستعاضة عن هؤلاء الصغار بالرجال الذين بلغوا سن النضج ولديهم خبرات مختلفة، ولكن تربيتهم تختلف عن ما يجري بمدارس الطباق[٤].

وذكر الرحالة (أرنولد فون هارف) عند زيارته للقلعة زمن السلطان الناصر محمد بن قايتباي أنه رأى بها مدرسة للمماليك وكان بها خمسمائة مملوك من

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٩٨ ـ ٩٩ وفن التعليم عند ابن جماعة ص ٤٢.
(٢) المقريزي، الخطط والآثار جـ ٢ ص ٢١٤، وفن التعليم عند ابن جماعة ص ٤٢.
(٣) المقريزي، الخطط والآثار جـ ٢ ص ٩٤.
(٤) المقريزي، الخطط والآثار جـ ٢ ص ٢١٤ وفن التعليم عند ابن جماعة.

الفتية الصغار يتدربون على الأعمال العسكرية، يتعلمون القراءة والكتابة، ويشرف على تدريبهم اثنان وثلاثون أستاذاً، وربما دلَّ هذا العدد الكبير من المدرسين على مدى الاهتمام بتدريب الجيل الناشىء من المماليك في مجموعات صغيرة لتحقق جودة التعلم[1].

وقد استنتج البعض أن مدة الدراسة أو التعليم في مدارس الطباق كانت لا تقل عن سبع سنوات أو ثماني سنوات، حيث ذكرت بعض مصادر العصر، كانت قد حددت السن الذي يجلب فيها المماليك الكتابية ما بين السابعة والخامسة عشرة[2].

فإذا كان يبدأ تعليمه في مدارس الطباق في سن السابعة حتى إذا بلغ مرحلة النضوج أخذ في تعليمه أنواع الحروب كما يقول المقريزي: فأول ما يبدأ به تعليمه، ما يحتاج إليه من القرآن الكريم فإذا اجتاز إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب[3].

التعليم بمدارس الطباق:

«كان المملوك يتعلم القرآن الكريم والخط وآداب الشريعة، ثم يدرس شيئاً من الفقه إلى أن يصل سن البلوغ، فيتعلم الفروسية، ويتدرب على ألوان الحرب ويقول المقريزي:

أول ما يبدأ تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط، والتمرن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، فإذا شبَّ الواحد من المجالس علمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة.

فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب في رمي السهام

---

(١) علي سالم النباهين ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) علي سالم النباهين ص ١٥٩ ـ ١٦٠ وفن التعليم عند ابن جماعة ص ٤٣.

(٣) المقريزي، الخطط والآثار جـ٢ ص ٢١٣، وفن التعليم عند ابن جماعة ص ٤٣.

ولعب الرمح، فمتى أن يكبر المملوك بعد تعليمه إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، ومنهم من يصير برتبة فقيه عارف أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر.

وقد برع العديد منهم بالفقه والعربية وعلوم الدين والقراءات والخط والتجويد.

المعلمون بمدارس الطباق:

لم تذكر كتب التراجم والطبقات الكثير عن معلمي المماليك، في مدارس الطباق، إلا أن بعض الإشارات مثل تقي الدين القلقشندي وهو عالم بالعربية والفرائض والحساب والقاضي جمال الدين محمود بن أحمد العجمي قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية وشيخ شيوخ خانقاه شيخو.

ويبدو أن المعلمين الذين اختيروا لتعليم المماليك كانوا من المهرة على عكس الرأي القائل بأنهم من المغمورين.

وصية مدير مدرسة من مدارس الطباق:

[وليحسن إليهم، وليعلم أنه واحد منهم، ولكنه مقدم عليهم، وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التي يُخيل إليهم بها أنه معهم وخلفهم وبين أيديهم، وليلزم مقدم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليهم، من ترتيب الطباق، وإجراء ساقية جارية من إحساننا إليهم ولا يَنْسَ السَّوَّاق، وليكن لأحوالهم متعهداً، ولأمورهم متفقداً وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيرة، وليعرف ما هم عليه مما لا يخفى عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلاً فإنهم جيرة، وليأمر كلاً منهم ومن مقدميهم والسواقين لهم بما يلزمهم من الخدمة، وليُرتبهم على حكم مكانتهم منا فإن تساووا فليقدم من له قُدْمه، وليعدل في كل تفرقة، وليحسن في كل عرض ونفقة، وليفرق فيهم ما لهم من الكساوي، ويُسْبِلْ عليهم رداء الشفقة، وليُعبِّر منهم لغابنا المَحْمِيّ سباعاً تفترس العادية، وليُجمل النظر في أمر الصغار منهم والكبار أصحاب الطبقات العالية وليأخذهم بالركوب في الأيام المعتادة، والدخول إلى مكان الخدمة الشريفة والخروج على

العادة، وليُدرهم في أوقات البياكير[1] والأسفار نطاقاً دائر الدهليز[2] المنصور وليأوهم أمراً عاماً بأن لا يركب أحد منهم إلا بدستور ولا ينزل إلا بدستور وليحترز عليهم من طوائف الغلمان[3]، ولا يستخدم منهم إلا معروفاً بالخير، ولا يقيم عليهم الصُمَّان، وليحرر على من دخل عليهم وخرج، ولا يفتح لأحد منهم إلا من علم أنه ليس في مثله حرج، ولا يدع للريبة بينهم مجالاً للاضطراب، وليوص مقدميهم بتفقد ما يُدْخَل إليهم فإن الغش أكثره من الطعام والشراب وليُدم مراجعتنا في أمرهم فإن بها يعرف الصواب، وليعمل بما نأمره به ولا يجد جوى في جواب][4].

التعليم الحربي للماليك في مدارس الطباق:

يقول المقريزي [إذا صار المملوك إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحروب في رمي السهام، ولعب الرمح، ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة مسلم بلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه][5].

هذا يعني أن المعلمين لهؤلاء المماليك كانوا من خيرة المعلمين في اختصاصاتهم وهذا يدل على مقدار الأهمية التي يعلقونها على المملوك مستقبلاً.

ثم يصف لنا بعضاً من تدريبهم فيقول [وإذا ركبوا (أي المماليك) إلى لعب الرمح، أو رمي النشاب، لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم][6]، وعدم الاقتراب من التدريب أثناء الدروس يدل على مدى جدية

---

(١) البياكير: البيكار لفظ فارسي معناه الحرب. أي أوقات الحرب.

(٢) الدهليز: الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب.

(٣) المقصود طوائف الغلمان المجرية: وهي تسمية أيام العصر الفاطمي، كانوا يقفون في احتفالات الخليفة بتمام الزينة وبالمناطق المحلاة.

(٤) صبح الأعشى جـ ١١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ط بيروت.

(٥) خطط المقريزي جـ٢ ص ٢١٣ وما بعدها.

(٦) خطط المقريزي جـ٢ ص ٢١٣ وما بعدها.

هذا التعليم وهناك بعض الإشارات من مصادر أخرى إلى تدريبات أخرى على بعض الأسلحة كالسيوف، والدبابيس، ولعب الصولجان، والمصارعة، وسباق الخيل وهذه من مستلزمات الحرب.

وكانت أماكن تدريب هؤلاء المماليك في ساحة بولاق، وميدان الرماية تحت القلعة، وميدان بركة الجيش.

وعلى ذلك يمكننا تقسيم التعليم في مدارس الطباق إلى قسمين أحدهما نظري والآخر عملي.

فالنظري كان يجري داخل مدارس الطباق كما مرَّ معنا في بداية هذا الفصل التعريف به ومنهاجه.

أما العملي فكان يجري في الميادين العامة والساحات المخصصة للتدريب، وربما كانت تجري بعض التمارين في أماكن بعيدة عن المدن كنوع من التدريبات العملية الحقيقية كالمناورات العسكرية في العصر الحاضر.

وبعد انتهاء المملوك من هذه التدريبات النظرية والعملية، واستطاع هضم المنهاج، أُعْتِقَ أي أصبح حراً، وأقيم له احتفال خاص بحضرة السلطان والأمراء، وذلك بناء على شهادة تسمى (اعتاق) أو عتاقة فيسلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً واقطاعاً، ويبقى له مدى الحياة، وحينئذ يسمى عتيقاً، أو معتوقاً، ومُعتقه يسمى استاذاً، أما رفاقه المتخرجون معه فيسمون (خشداشية).

الرباط كمؤسسة تعليمية

لقد أطلق الرباط أول الأمر على المكان أو الثغر الذي يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد في سبيل الله، ويلازمونه مترصدين للعدو. مستعدين للغزو، ثم صار الرباط يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى. والتوبة، ومجاهدة النفس والحد من شهواتها، كما

صار مأوى للعاجزين والنساء المطلقات، أو المهجورات واليتامى والفقراء، ومسكناً للفقهاء الغرباء وأحياناً لكبار العلماء، وهكذا أصبحت الربط تؤدي خدمات اجتماعية ودينية وثقافية كالوعظ والإقراء والتحديث والسماع والإفتاء ومنح الإجازات العلمية. وتصنيف الكتب، ومما ساعد على ذلك أن الواقفين أنشأوا فيها الخزائن ودفعوا فيها الكتب وعينوا لها القُوّام والخزّان ومن يقوم بصيانتها وترتيبها ومناولتها، وكان الزهاد والمتصوفة الساكنون في الربط أو الذين يترددون عليها يرتادون المكتبات التي في ربطهم وكذلك كان يفعل الرحالون الذين يرحلون في طلب العلم[١].

ففي رباط الزوزني أحد الربط القديمة ببغداد الغربية، حذاء جامع المنصور كانت خزانة كتب، وفي رباط زُمُرُّد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله بالمأمونية خزانة كتب كبيرة، وفي رباط الافلاطية، وهي سلجوقي خاتون زوجة الناصر لدين الله خزانة كتب مشهورة كانت مشتركة بين الرباط والتربة. قال ياقوت[٢] يذكر مؤلفات علي بن فضال الغرزدقي المتوفى سنة ٤٧٩ هـ ويشير من بينها إلى كتاب في تاريخ الدول فيقول: رأيت في الوقف السلجوقي ببغداد منه ثلاثين مجلداً ويعوزه شيء آخر[٣].

وكان العلماء يتخذون من الربط أماكن للمطالعة والكتابة والانتساخ والتأليف يساعدهم على ذلك وجود مكتبات عامرة فيها ومكوثهم فيها أوقاتاً طويلة، ولذلك يلاحظ أن كثيراً من كتب التصوف أُلِّفت في الربط باعتبار أن الربط كانت مجمعاً للزهاد المتصوفة، على أن الربط لم تخل من مؤلفات بعض الفلاسفة والعلماء والأدباء والفقهاء واللغويين والنحاة وغيرهم مثل: كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء الحنبلي المتوفى سنة ٥١٣ هـ، وكتاب الأصول لابن السراج وكتاب المجاهدي لمؤلفه وجيه الدين أبي حفص

(١) أصالة الحضارة العربية، د. ناجي معروف ص ٤٦٤.
(٢) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٢٩٠.
(٣) أصالة الحضارة العربية ص ٤٦٥.

السهروردي المتوفى سنة ٥١٣ هـ، وكان شيخ الصوفية برباط الأمير سعادة، ومن الكتب التي ألفت داخل الربط كتاب عوارف المعارف الذي ألفه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ والناسخ والمنسوخ في الحديث الذي ألفه الحازمي في رباط البديع مع كتابين في الأنساب.

وكانت الربط عامرة بالفقهاء والصلحاء الذين بلغ اشتغالهم بالعلم في بعض الربط أكثر من الاشتغال في سائر المدارس. أما الشيوخ الذين كانوا يتولون مشيخة الربط فكانوا من أكابر العلماء وفضليات النساء.

التعليم بالزوايا:

وهي طريقة في التعليم انتشرت في دول المغرب العربي، والزاوية مرحلة وسطى بين الكُتّاب الذي هو مدرسة ابتدائية والمدرسة التي هي أشبه بالمعهد الثانوي أو الإعدادي.

الزاوية:

والزاوية بشكلها البسيط والابتدائي عبارة عن عدد من الأبنية المتلاصقة حول أحد المساجد ـ وتضم بيوتاً لمبيت الطلبة ـ والكُتّاب الذي هو غرفة للتدريس والمكتبة، ثم المرافق اللازمة، ثم سرعان ما تتحول الزاوية إلى قرية بسيطة ثم تتطور إلى بلدة كبيرة، ويؤمها عادة البدو كسوق لتسويق منتجاتهم وشراء المواد الضرورية التي تتوفر في هذه القرية، وتكون الأراضي التي حولها وقفاً عليها، لتقديم النفقات الضرورية لهذه الزاوية، بالإضافة إلى موارد أخرى بسيطة كالنذور من الحيوانات والحبوب والأموال التي ينذرها بعض المسلمين من ذوي السعة، أو الذين أصابتهم مصائب وأمراض ونذروا هذه النذور على نية الشفاء من الأمراض أو التخلص من هذه المصائب.

الزاوية ذات الولي:

وقد تطورت الأمور فيما بعد من ناحية شكل الزوايا، حيث بنيت هذه

الـزوايا حـول أضرحـة الموتى الـذين لهم كرامـات أو شهرة معينـة من حيث الورع والتقى. . .

ثم تبنى البيـوت حول هـذه الأضرحـة تباعـاً لتأخـذ في النهـايـة شكـل الزاوية التي تؤدي دور الكتاتيب أو المدارس الابتدائية.

الزاوية الطرقية:

وهناك زوايا أخرى وهي الزاوية الطرقية وهي تجمع بين العـادة والعمل والتعليم فالعادة هي أناشيد مشتركة بين جميع الطرق الصـوفية. والعمـل وهو ترتيب الأناشيد والأحزاب الخاصة بالطريقـة الصوفيـة، والتعليم وهو المنهـج الدراسي الموحد بين عموم الزوايا، وهـذا النوع من الـزوايا ولـد في أحضان الطرائق الصوفيـة، وهو يجمـع بين نوعين من التعليم، التعليم العـام العادي كمـا في الكتاتيب. وتعليم الـطريقـة الصـوفيـة التي تتبـع لهـا هـذه الـزاويـة كالشاذلية، والسنوسية. .

الزاوية العسكرية:

وفي هذه الزاويـة يتم تعلم الأمور العسكـرية، وروح الجنـدية، وروح القبيلة، وذهنيـة التضامن والامتثـال القبائلي، وأصـول العسكريـة كالفـروسية والـرمايـة وأعمال قتـالية حسب حـالة كـل قبيلة، وهذا النـوع كان في معـظم الأحيـان يلحق بالـزاويـة ولم يكن مستقـلاً الاستقـلال التـام إلا في العصـور المتأخرة حسب تطور الأسلحة.

وبشكل عام فإن الزوايا كانت تؤدي عـدة أغراض فهي تقـوم بوظيفتهـا التعليميـة كالكتـاتيب في المـدن والقـرى الإسـلاميـة من حيث تعليم القـرآن والحديث واللغة العربية والحساب والعبادة. . .

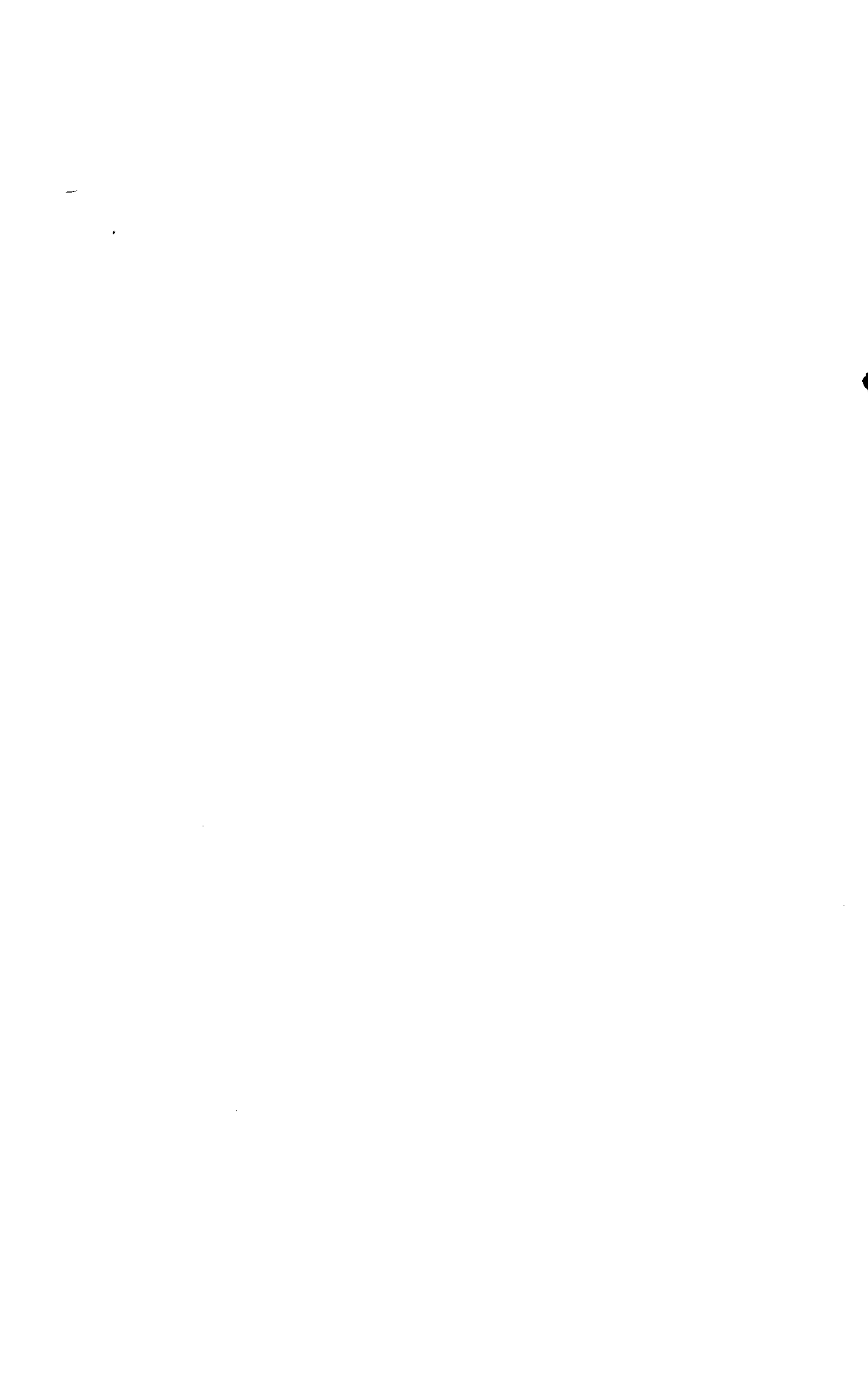
كمـا أنها كـانت تؤدي إلى تعليم الطلاب الـطريقة الصـوفية للمـريدين والمنخرطين على نغمات الأنـاشيد من قصـائد وأزجـال وموشحـات ألفاظهـا

تصوفية، وألحانها منزلية على الموسيقى الأندلسية المعروفة، والانجذاب والتخمر، فهذه الزاوية تؤدي غرضين في آن واحد.

وموقع الزاوية بالإضافة إلى ذلك يؤدي غرضاً عسكرياً آخر حسب موقعه، فإن كان ثم شاطىء البحر صار يؤدي غرضاً عسكرياً بالإضافة إلى الغرض التعليمي. وهناك بعض الزوايا في الصحراء التي كانت تؤدي نفس الدور من حيث مراقبة أي تحركات معادية في الصحراء، وغدت هذه الزوايا أمكنة لايواء الفقراء والمساكين والمسافرين الذين يرغبون بالسفر إلى الحج، كالأربطة في بلاد الشام ومصر، وبالإضافة للطلاب الذين يتلقون العلم والطعام والسكن والكتب واللباس ومستلزمات المعيشة الأخرى.

وقد أدت هذه الزوايا دوراً مهماً آخر بالإضافة إلى التعليم والناحية العسكرية واطعام الفقراء. فإن خريجي هذه الزوايا كانوا أشبه بالمبشرين الذين ينتقلون في الجبال والصحارى للتعليم والوعظ والإرشاد في الجوامع والتبشير بالإسلام لدى القبائل الأفريقية في عمق الصحراء وقد أسلمت أعداد كبيرة بهذه الطريقة.

وهكذا نرى أن هذا النوع من التعليم قد أسهم بدور هام وبارز في الحركة التعليمية عند المسلمين وقدم خدمات كبيرة سواء لطلاب العلم والمنقطعين وأبناء السبيل والمسافرين وكان الإنفاق يتم عبر الأوقاف وتبرعات بعض الميسورين تقرباً إلى الله والزوايا التي بنيت في ليبيا ساهمت فيما بعد بدور هام وبارز بمقاومة الغزو الإيطالي في مطلع القرن الحالي.



مؤسسات تعليمية أخرى

بعض المؤسسات التعليمية الأخرى
التي ساهمت بقدر محدود في التعليم عند المسلمين

مثل الربط والخوانق والزوايا، وهي من المنشآت الخيرية الإسلامية أنشئت في معظم المدن الإسلامية، أنشأها الخلفاء والأمراء وبعض رجال الدين الصالحين لضيافة العلماء المتجولين بين الأقطار الإسلامية طلباً للعلم والمعرفة، ويسكنها المتصوفون، ويؤلفون فيها الكتب ويدونون الحديث، ويسمعونه ويدرسونه، ويحدثون بالحديث الشريف النبوي وغيره، وينشدون الأشعار، والمدائح النبوية، وقد زهدوا في الدنيا، ورابطوا فيها لمحاربة أنفسهم أي عواطفهم لأن النفس عندهم هي العدوّة الكبرى الأمارة بالسوء.

ويذكر الأستاذ أدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية) أنه كان في المملكة الإسلامية خوانق وأماكن للعبادة قبل ظهور الصوفية، ويحدثنا المقدسي: أنه في جبل الجولان من جبال الشام، رجل يدعى أبو إسحق البلوطي ومعه أربعون رجلاً يقتاتون البلوط، ويلبسون الصوف، ويذكر أن الكرامية أصحاب محمد بن كرام هو الذي أنشأ أكبر عدد من الخوانق في إيران، وما وراء النهر، وهم جماعة دعوا إلى الزهد وترك الكسب الدنيوي[١].

---

(١) فن تاريخ العمارة العراقية ص ٤٧٦.

الخوانق

تعريفها: الخانق كلمة أعجمية واحدها خانقاه[1]، أو خانكاه بمعنى دار الصوفية[2].

الخوانق جمع (خانقاه) وهو لفظ فارسي معناه في الأصل المائدة، أو المكان الذي يأكل فيه الملك، ثم أطلق على هذه الدور التي يقوم على إنشائها الملوك والأمراء، والمتحمسون للدين من أجل أغراض شتى منها[3].

١ - إيواء الغرباء من المسلمين والسماح لهم ولأسرهم بالإقامة في هذه الدور، ثم القيام على معيشتهم وعلى تثقيفهم كذلك.

- يرى المقريزي أن أول من اتخذ بيتاً للعبادة زيد بن صوصان بن صبرة وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة للعبادة، وليس لهم تجارات ولا غلات، فبنى لهم دوراً وأسكنهم فيها، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وغيره[3].

- أما أول من أحدث الخوانق في مصر فهو صلاح الدين الأيوبي، ذلك أنه حين تم له حكم مصر «عمل هذه الدار (أي الخانقاه) الصلاحية وهي دار سعيد السعداء) برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، ووقفها عليهم في سنة ٥٦٩ هـ وولي عليهم شيخاً، ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة[4]. وقيسارية الشراب بالقاهرة. وشرط إن مات أحد من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها كانت للفقراء، ولا يعترض لها الديوان السلطاني، ومن أراد منهم السفر يعطي تسفيره، ورتب الصوفية، في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وبنى لهم حماماً بجوارهم فكان أول خانقاه عملت بمصر، وعرفت بدويرة

---

(١) الخانقاه: دار لنزول الصوفية يقيمون فيها عاكفين على العبادة (السيف المهند) في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس جـ ٢ ص ١٣٩.

(٣) الحركة الفكرية في مصر عبد اللطيف حمزة ص ١٠٥.

(٤) المقريزي الخطط والآثار جـ ٢ ص ٤١٤.

الصوفية، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ[1]

ويروى أنه في أيام الظاهر برقوق (كانت عدة الصوفية بها (أي الخانقاه الصلاحية) نحو الثلاثمائة رجل لكل واحد منهم في اليوم ثلاثة أو أربعة أرغفة زنتها ثلاثة أرطال خبز وقطعة لحم زنتها ثلث رطل مع مرق، ويعمل لهم الحلوى ويفرق فيها الصابون، ويعطي كل منهم في السنة عن الكسوة أربعين درهماً[2].

ثم تطورت الخانقاه لتأخذ صورة المعهد العلمي الذي يقوم الصوفية فيه، بجانب قيامهم بالأذكار وقراءة الأوراق وغير ذلك بطلب العلم، وحضور الدروس التي يعينها لهم الواقف على الخانقاه[3]. وقد بدأ هذا التغيير طفيفاً أول الأمر، إذ تنص حجة مغلطاي الجمالي[4] أن يرتب الناظر في الموقف (بالخانقاه) الجمالية شيخاً محدثاً حنفياً، ومعه عشرون من الفقراء المتصفين بالخير والديانة، المشتغلين بالعلم الشريف.

ثم تطور التعليم فيما بعد في هذه الدور، فأصبح بناتها يرتبون فيها دروساً عدة للفقه وللحديث وللتفسير وغيرها، ويشترطون حضور سكانها هذه الدروس.

فالأمير سيف الدين شيخو حين أنشأ الخانقاه التي عرفت باسم (خانقاه شيخو) رتب بها دروساً عدة منها: أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة وهم الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة، ودروساً للحديث النبوي، ودروساً لاقراء القرآن بالروايات السبع وجعل لكل درس مدرساً، وعنده جماعة من الطلبة وشرط عليهم حضور الدروس[5]، وأقام لكل علم من العلوم شيخاً معلماً.

---

(١) خطط المقريزي جـ ٢ ص ٤١٥.
(٢) خطط المقريزي جـ ٢ ص ٤١٦.
(٣) علي سالم ص ٢٦٥ - ٢٦٦.
(٤) علي سالم ص ٢٦٦.
(٥) خطط المقريزي جـ ٢ ص ٤٢١.

وقد أكثر المماليك من بناء الخوانق، وأنفقوا عليها الكثير من الأموال، وأوقفوا عليها الأوقاف.

التعليم داخل الخانقاه:

«كان هناك نوعان من التعليم داخل الخانقاه»[1].

١ - «التعليم الذي يرتب للصوفي للاشتغال به داخل الخانقاه، ويكون الصوفي ملزماً بحضور الدرس ويؤاخذ إذا تخلف عن حضوره طبقاً لما يحدده الواقف[2].

٢ - «التعليم الحر: بحيث إذا وجد الصوفي في نفسه القابلية ليتعلم علماً آخر غير ما خصص له فعلى شيخ طائفته أن يقوم بشرح ذلك له، والعمل على إفادته فيما يطلب الدراسة فيه من العلوم الخاصة بعلوم الشريعة والحديث والتفسير، وأصول الدين واللغة العربية بمكوناتها من نحو وصرف وبيان وبديع وغير ذلك من العلوم، ويبدو أن المدرسين في الخانقاه كانوا على مستوى جيد»[3].

اشترطت حجة جمال الدين الأستادار في شيخ الحديث بالخانقاه التي أنشأها أن [يكون عالماً بعلوم الأحاديث النبوية من حال الرواة جرحاً وتعديلاً، له المقدرة على تبيان صحيح الأحاديث من سقيمها، وأن يكون شيخ القراءات عالماً حافظاً القرآن الكريم متقناً القراءات السبع، أما شيخ التفسير فيجب أن يكون من علماء التفسير حافظاً بكتاب الله العزيز][4].

- كما يبدو ذلك أيضاً مما رواه المقريزي عن مدرس خانقاه شيخو، فقد

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٦٨.
(٢) على سالم البناهين ص ٢٦٦ - ٢٦٧.
(٣) نفس المصدر.
(٤) على سالم البناهين ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

كان يقوم بالتدريس فيها قاضي القضاء موفق الدين الحنبلي[1].

ومع ذلك فإن مقدار العلم الذي كان يدرس في الخانقاه، كان أقل درجة من مقدار العلم الذي يلقى بالمدارس خاصة حيث أن العلم الذي اشترطه الناس في الفقيه كان يُظهر أكثر من العلم الذي اشترطوه في الفقير أو المتصوف[2].

نموذج من حجة وقفية حيث يلاحظ من خلالها دور الوقف في تمويل الخانقاه لأداء دورها في الحياة المعاشية والثقافية

الخانقاه الدويرية:

تقع بدرب السلسلة بباب البريد، قال الأسدي في تاريخه في سنة. /٤٠١/هـ: حمد صاحب الدويرة بباب البريد، حمد بن عبد الله بن علي أبو الفرج الدمشقي المقري المعدل من جملة عدول البلد، وهو صاحب دويرة حمد بباب البريد، حكى عنه محمد بن عوف الترسي قال هبة الله الأكفاني في ٤٠١ هـ - وجد حمد وزوجته مذبوحين[3] وصبي قرابته في داره بباب البريد حكاه الذهبي انتهى. ومن وقفها الحصة وهي النصف شائعاً من جنينة بني وهبان بالطريق الوسطاني الآخذ إلى المزة ومنه أيضاً النصف كذلك من البستان المعروف بالصوفية من أرض اللوان بالمزة أيضاً، ومنه أيضاً نظير الحصة المذكورة وهي النصف شائعاً كذلك من البستان المعروف بدفوف الأصابع بالمزة أيضاً. ومنه أيضاً جميع الحصة وهي إحدى عشر سهماً ونصف سهم من أربعة وعشرين سهماً وهي الربع والسدس ونصف الثمن شائعاً من المزرعة المعروفة بالعصامية بزقاق الماء بالمزة، ومنه سهم واحد من أربعة وعشرين سهماً شائعاً من البستان المعروف بالقاطوع بالمزة أيضاً... ومنه نظير الحصة المذكورة من

---

(١) خطط المقريزي ج٢ ص٤١٥ وما بعدها.

(٢) على سالم النباهين ص ٢٦٨.

(٣) في ابن عساكر «وذبحت معه امرأة عجوز كانت تخدمه».

الجنينة قرب القاطوع المذكور، وتعرف بجنينة فاطمة يفصل بينهما نهر داريا والمزة جوار طاحون السيفي منخاص[1] ومنه أيضاً نظير الحصة (المذكورة) شائعاً من الجنينة الملاصقة لحمام العوافي بالمزة أيضاً ومنه الحصة الشائعة وهي سهم واحد من أربعة وعشرين سهما من قرار [أرض الجنينة المعروفة باللحام بحارة صلاح الدين بالمزة أيضاً، ومنه الحصة الشائعة وقدرها ثلاثة أسهم من أربعة وعشرين سهماً من قرار] أرض البستان وهو المعروف بالخزان، بزقاق الماء بالمزة أيضاً عليها حكر في كل سنة مبلغ ستين درهماً، ومنه الحصة الشائعة ومبلغها نصف سهم من أربعة وعشرين سهماً من الدار الرحى الخراب المعروفة بالشهابية من جملة أراضي المزة بوادي النيرب قبلي نهر بردى، ومنه قطعة الأرض السليخة من أراضي قصور داريا من أراضي قرية كفرسوسيا، ومنه الحصة من قرار الأرض الشائعة ومبلغها إثني عشر سهماً من أربعة وعشرين سهماً وهي النصف من القطعتين من الأرض المذكورة الخراجيتين المعروفة إحداهما بالدوره، والأخرى بالطويلة من أرض الشاغور، ومنه الحصة الشائعة وهي النصف من الأراضي الحراجية المعروفة بجنينة الوتار وشربها من نهر الأنباط ومنه أيضاً الحصة الشائعة وهي ستة أسهم من أربعة وعشرين سهماً وهي الربع من قطعة الأرض السليخة الحراجية المعروفة بحقل الفرس، ومنه أيضاً الحصة الشائعة وقدرها ستة أسهم من أربعة وعشرين سهماً [من المكان المعروف بالمطبخ شمالي الوقف على المدرسة الشامية البرانية، ومنه أيضاً الحصة الشائعة وقدرها نصف سهم من أربعة وعشرين سهماً المزرعة المعروفة بالصفوانية شمالي نهر بردى وطاحون الشيخ، ومنه الحصة المقسومة المفروزة سهمين من أربعة وعشرين وهي نصف السدس من القرية المعروفة بالبويضة من وادي العجم قرب البريج، ومنه أيضاً الحصة الشائعة وقدرها أربعة أسهم من أربعة وعشرين سهماً وهي السدس من القطعة المعروفة بحقلة قافية من أراضي قرية داعية ومنه نظير الحصة المذكورة وهي السدس شائعاً من الحقل الخراجي المعروف بحقل

---

(١) السيفي منخاص: لعله اسم صاحب أوباني الطاحون.

عبيد من أراضي داعية المذكورة، ومنه نظير الحصة المذكورة أيضاً وهي السدس شائعاً من الحقل المعروف بحقل عبيد من أراضي داعية أيضاً، ومنه الحصة الشائعة وقدرها سهم واحد من أربعة وعشرين سهماً وهي ثلث الثمن، من جميع قطع الأراضي السبع الحراجيات المعروفة بوقف القاطوع من أراضي بيت رانس[1]، تعرف الأولى منها بالكرم الصغير، والثانية بحقل الزيتونة، والثالثة والرابعة بالحاصل، والخامسة بالتبوكية، والسادسة بالقطبية، والسابعة بالبرانس، ومنه الحصة الشائعة وقدرها سهمان من أربعة وعشرين من الدار المعروفة بطاحون باب توما العامرة، ومنه الحصة الشائعة وقدرها من أربعة وعشرين سهماً من الحوانيت الأربعة، والمقعد داخل دمشق بسوق البزورية قبلي الدخلة الغير النافذة الآخذة إلى العشر، وبرأس المقعد الدخلة المذكورة، ومنه جميع قرار أراضي الاصطبل المذكور، ومنه قرار الأرض المحاكرة بمحلة سوق ساروجة المعروفة بحكر الأقرع، وبحارة السودان قديماً بالقرب من تربة يونس. ثبت أن ذلك جميعه وقف على مصالح الخانقاه المذكورة، وعلى الصوفية المقررين بها وعلى سائر جهاتها ومصارفها الشرعية ثبوتاً شرعياً، وحكم بموجب ذلك أقضى القضاة شرف الدين أبو محمد بن عبد الله بن مفلح الحنبلي، لكن أخذ الطباق المذكورة السيد تاج الدين وأدخلها في عمارته لصيقها، ثم وقف عوضها الربع على الخانقاه المذكورة.

ومن مدرسيها الشيخ مجد الدين محمد بن عيسى بن يحيى بن أحمد أبو الخطاب النيني المصري ٦٧٣ هـ - ٧٤٥ هـ ثم المصري الصوفي عن اثنتين وسبعين سنة، حدث بجامع الترمذي، عن ابن ترجم وولي مشيخة دويرة حمد بباب البريد[2].

---

(١) بيت رانس من قرى الغوطة الدارسة.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج٢ ص١٤٦.



معلمو المدارس

مقدمة عامة:

«كان يعين عادة لكل علم من العلوم أستاذ يقوم بتدريسه ويعاونه في ذلك معيد أو أكثر، وكان المعلمون المعيدون وموظفو المدرسة عموماً يتقاضون رواتبهم أو معاليمهم من الأوقاف التي أوقفت للإنفاق على مدرس المدرسة وطلابها ومستخدميها، وعلى إصلاح المدرسة ورعايتها، تبعاً لنصوص الوقف التي تحدد رواتب أو معاليم كل منهم، فقد أشار ابن دقماق في حديثه عن المدرسة الطبرسية التي أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري: أنه شرط لكل مدرس ستين درهماً ولمعيد الشافعية الإمام في كل شهر أربعين درهماً ولمعيد المالكية في الشهر أربعين درهماً»[1].

«وكان المدرّس يقوم في الغالب ـ بالتدريس لعدد محدود من الطلاب، ويقول ابن دقماق عن الأمير علاء الدين الخازنداري: أنه لما أنشأ الطبرسية [ورتب من كل مذهب مدرساً ومعيداً، وخمسة عشر طالباً][2]، غير أن عدد الطلاب كان يرتبط دائماً بشهرة المدرّس، وذيوع صيته، وتشير مصادر ذلك العصر إلى أن وظيفة التعليم على المدرّس كان يعهد بها إلى ثلاث طبقات من المعلمين»[3].

---

(١) ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص (٩٦)، فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٤.

(٢) نفس المصدر الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص (٩٦)، فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٤.

(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٤ وما بعدها وتذكرة السامع والمتكلم ص ٢٠٤.

١ - «طبقة لها الصدارة المطلقة ويشغلها من كان يطلق عليه آنذاك لفظ الصدر[1] والظاهر أن الصدر هو إمام العصر في الفقه أو الحديث أو التفسير، أو هو من أكبر الأئمة في عصره، وأكثرهم تمكناً من مادته، وعليه يتخرج الكثيرون من نوابغ المدرّسين وإليه يذهب الملوك والأمراء والوزراء والفضلاء لسماعه والإفادة منه»[2]. وليس من الضروري أن يكون لكل مدرسة صدر فأولئك قلة، ولكن من حسن حظ المدرسة وكمال شهرتها أن يتصدر للإقراء والتدريس بها أحدهم».

٢ - وتلي رتبة الصدر رتبة المدرّس، وهو الذي يتصدر التدريس للعلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك، وهو مأخوذ من درست الكتاب دراسة، إذا كررته للحفظ[3]».

٣ - «ثم يأتي بعد رتبة المدرّس رتبة المعيد وهو ثاني رتبة المدرّس (أي الرتبة التي تليه في سلم التدريس]، وأصل موضوعه إذ ألقى المدرّس وانصرف، أعاد للطلبة ما ألقاه.المدرّس إليهم ليفهموه، ويحسنوه[4]، ومن وظائف المعيد أيضاً: أن يطالب الطلبة بعرض محفوظاتهم، إن لم يعين لذلك غيره، ويعيد لهم ما توقف فهمه عليهم [أي لم يستطيعوا فهمه] من دروس المدرّس ولهذا سمي معيداً»[5].

«وكانت وظيفة التدريس عظيمة القدر بالغة الأهمية، يخلع السلاطين على من يقوم بها ويتولاها. ويذكر لنا السخاوي أنه لما [عين الشيخ شرف الدين المناوي لتدريس الصلاحية المجاورة للشافعي، والنظر عليها عوضاً عن النظر

---

(١) المقريزي في الخطط جـ ٢ ص ٣٧٩.

(٢) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العهد الأيوبي والمملوكي الأول ط ٨ دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٦٨ م، ص ١٧١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٤.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٤ وما بعدها، وتذكرة السامع والمتكلم ص ٢٠٤.

بعناية الكمال بن الهمام طلع فلبس الخلعة بذلك، وتوجه إلى محل الدرس فزار، وألقى الدرس ومعه جماعة»[1].

«ويستفاد مما ذكره السخاوي أن العمل الذي كان يوكل إلى المعلم لم يكن التدريس فحسب بل كان عليه النظر في أوقاف المدرسة، إلى جانب التدريس، فالشيخ المناوي عين لتدريس الصلاحية. والنظر عليها (أي في أوقافها)، وكان يؤجر المعلم على ذلك»[2].

وقد حرص الذين بنوا المدارس، وأوقفوا عليها الأوقاف أن يزودوها بمدرسين ذوي كفايات عالية، فالمدرسة ينبغي [أن يكون المدرس بها ذا رياسة، وفضل وديانة ومهابة وجلالة وناموس، وعدالة ومحبة في الفضلاء، ولطف على الضعفاء، يقر المخلصين، ويرغب المشتغلين، ويبعد اللغائين، وينصف الباحثين، حريصاً على النصح مواظباً على الإفادة»[3].

أما صفات المعيد [أن يكون من الصلحاء، صبوراً على أخلاق الطلبة، حريصاً على فائدتهم وانتفاعهم به، قائماً على وظيفة أشغالهم][4].

وكان أكثر الناس عناية باختيار المعلمين ممن علا قدرهم وعظم شأنهم على السلاطين فعلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك، لا يولي السلطان فيها إلا فيما يعظم خطره، ويرتفع شأنه[5].

على أن ذلك لم يكن مطرداً، بل في بعض الحالات، ولقد جرت العادة في عصر ابن جماعة أن يقوم القضاة، وقضاة القضاة بالتدريس في المدارس المشهورة، والاستفادة من علمهم.

---

(١) السخاوي التبر المسبوك ص ٢٠٣.
(٢) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٥.
(٣) ابن جماعة تذكرة السامع والمتكلم ص ١٩٨ ـ ٢٠١ وفن التعليم عند ابن جماعة ص ٥٥.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٩.

ولقد تمتع الطلبة بحرية اختيار المواد التي يدرسونها واختيار المعلم الذي يدرسون عنده ويأخذون العلم عنه، ولذا كان العلماء يحثون الطلاب على إحكام النظر في اختيار المعلم[1].

يقول ابن جماعة:

ينبغي للطالب أن يقدم النظر، ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه. وليكن ما أمكن ممن كملت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعرفت عفته، واشتهرت صيانته، وكان أحسن تعليماً وأجود تفهيماً[2].

ولقد حذر ابن جماعة من عادة بعض الطلاب الذين يعمدون إلى المعلمين المعنيين، معتمدين على شهرتهم، وذيوع صيتهم وحده، دون النظر بصلاحية المعلم وتقواه، وخشيته لربه.

ليحذر من التقيد بالمشهورين، وترك الأخذ عن الخاملين، لأن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها، ويغتنمها حيث ظفر بها، ويتقلد المنة ممن ساقها إليها، فإذا كان الخامل ممن ترجى بركته كان النفع به أعم والتحصيل من جهته أتم[3].

ألقاب رجال العلم والمعلمين:

لرجال العلم عند المسلمين ألقاب يمنحها الأستاذ والمجيز وأهل العلم، أو الشعب تكريماً للعالم وإعظاماً لشأنه ومنها:

ـ المعلم:

الذي يعلم الصبيان في الكتاب وقد يسمى في بعض الأحيان (المؤدب)

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ٢٠٤.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.

وهو أقل الرتب وأكثرها انتشاراً ولم ينل صاحب اللقب مركزاً مرموقاً.

- المؤدب:

وهو الذي يؤدب ويعلم أبناء الخليفة الخاصة ويؤدبهم، وهو من الألقاب التي ظهرت في الدولة الأموية، فكان الخلفاء وأرباب الحكم يتخذون المؤدبين لأولادهم، يعلمونهم ويؤدبونهم، ونجد هذا اللقب في الوصايا التي أوصى بها الخلفاء وغيرهم لمؤدبي أولادهم. وقد يكون للولد معلم يعلمه، ومؤدب يشرف على تأديبه.

وكانت حالة المؤدب أحسن من حالة المعلم، فهو يذهب إلى البيوت والقصور، ويحصل على امتيازات أفضل بسبب قربه من ذوي السلطة والنفوذ.

وبعض المؤلفين لم يفرقوا بين المعلم والمؤدب، فيطلقون لفظ (معلم) على من يؤدب أبناء الخلفاء والخاصة وعلى من يعلم في الكتاتيب.

المدرّس:

وأقدم ذكر له عند نشوء المدارس في القرن الرابع للهجرة، وهو الذي يتصدى لتدريس العلوم، مأخوذ من درست الكتاب دراسة إذا كررته.

وعلى المدرس أن يكون ذا رياسة وفضل، وديانة وعقل، ومهابة وجلالة وناموس وعدالة ومحبة من الفضلاء، وعطف على الضعفاء، يقرب المحصلين، ويرغب المشتغلين، ويبعد اللغائين، وينصف البحاثين، حريصاً على النفع مواظباً على الإفادة.

ونجد في بعض المدارس أكثر من مدرّس، كما في المدرسة القمحية والمدرسة المستنصرية وغيرها.

والمدرّس كان يعلم العلوم الشرعية، وقد سميت مدارس نظام الملك بهذا نسبة للقب.

- المعيد:

وهو ثاني رتبة بعد المدرّس، وأصل موضوعه، إذا ألقى المدرّس الدرس

أعاد المعيد للطلبة ما ألقاه المدرّس، ليفهموا ويحسنوا، على أن يكون من صلحاء الفضلاء، وفضلاء الصلحاء صبوراً على أخلاق الطلبة، حريصاً على فائدتهم، وانتفاعهم، قائماً على وظيفة اشتغالهم وينبغي للمغيد أن يقوم أشغال أهل المدرسة على غيرهم، ويعيد ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرّس، ويستعرض المحفوظ كل شهر أو كل فصل، وقد يكون في المدرسة الواحدة عدة معيدين كما كان في مدرسة الإمام الشافعي عشرة معيدين، وفي كل من المدرسة المستنصرية والنظامية عدة معيدين.

ـ الأستاذ:

كلمة فارسية الأصل، وكان يطلق أولاً على أصحاب المصانع، ثم أطلق على من أظهر مهارة في التعليم. وكانوا يطلقون هذا الاسم على المدرّس الذي تفوق في علم أو أكثر كالأستاذ الرئيس ابن سينا.

ـ الشيخ:

وهو الأستاذ الجليل والعالم الكبير في العلم والفضل ومكارم الأخلاق يطلقه العلماء على من يأخذون عنه ولبعضهم معجم لشيوخه الذين درس عليهم وأجازوه.

ـ الرحلة:

وهو من أجل العلماء الذي يرحل إليه الطلاب ويأخذون عنه مثل كمال الدين بن يونس الموصللي.

ـ الإمام:

وهو أعلى درجات العلمية، ويطلقونها على أكبر العلماء والمجتهدين كالإمام أبي حنيفة النعمان والإمام الغزالي.

ـ المحدّث:

والمراد به من يتعاطى علم الحديث النبوي، بطريقة الرواية والدراية

والعلم بأسماء الرجال وطرق الأسانيد والمعرفة بالأسانيد، وكانوا يـطلقون على من يحدث في دار الحديث (شيخ دار الحديث).

- **المقـرىء:**

وهو الذي يُقرىء القرآن ولـذا غلب اختصاصـه في العرف على مشـايخ لقراءة من قراءة السبعة المجيدين المتصدين لتعليمه على القـراءة، وللمقرئين شيخ يسمونه شيخ المقارىء.

آداب المعلم:

«العلماء هم خلفاء النبي ﷺ، ومن خلالهم تستمر رسالته ويبقى منهجه، ولكن هذه المنزلـة لا تصح إلا لعـالم يقتدي بـالرسـول ﷺ، في كل شيء من تفاصيل حياته وسيرته وأخلاقه، لذلك يجب على المعلمين أن يكونوا متعاونين على البر والتقوى وليس لأحد أن يعتدي على الآخر ولا يؤذيه بقول أو فعل بغير حق (١).

على المعلمين أن يكونوا قدوة للتلاميذ في الصدق والالتزام الاخلاقي والقيم الإسلامية ويحذر ابن تيمية من انتهاك فضيلة الصدق والإخلاص فيقول: [وكذلك كذبهم في العلم من أعظم الظلم، وكذلك اظهارهم للمعاصي والبدع التي تمنع الثقة بأموالهم وتصرف القلوب على اتباعهم، وتقضي على متابعة الناس لهم فيها هي من أعظم الظلم، ويستحقون من العزم العقوبة عليها ما لا يستحق من أظهر الكذب والمعاصي والبدع من غيرهم، لأن إظهار غير العالم، وإن كان فيه نوع ضرر، فليس هو مثل العالم في الضرر الذي يمنع ظهور الحق، ويوجب ظهور الباطل](٢).

«على المعلمين أن ينشروا علمهم بدون إهمال أو تهاون، فإن التهاون في نشر العلم كالتهاون في ترك الجهاد، والله يمقت من يخفي العلم أو يرخصـه، وينشد به عوض الدنيا، ويكره من يخفي شيئاً من العلم حتى لا يستعمل ضده في النقاش»(٣).

---

(١) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٤٥.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

«إن المعلمين الصالحين هم أولئك الذين يعلمون ما لهم وما عليهم بينما أهل الأهواء من المعلمين يعلمون فقط ماهو بصالحهم[1]».

«يجب على المعلمين أن يتعاهدوا علومهم بالحفظ والزيادة وعدم النسيان [وكذلك أهل العلم الذين يحفظون على الأمة الكتاب والسنّة صورة ومعنى، مع أن حفظ ذلك واجب على الأمة عموماً على الكفاية،منهم، ومنه ما يجب وأعيانهم وهو علم على العين الذي يجب على المسلم في خاصة نفسه»[2].

ولذلك يقول الرسول ﷺ «من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم» ثم قال: «عرضت عليَّ أعمال أمتي حسنها وسيئها - فرأيت من مساوىء أعمالها [الرجل يؤتيه الله آية من القرآن، ثم ينام عنها حتى ينساها]» وقال: «من تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا» [رواه مسلم] [3].

فالمرصدون للعلم، عليهم سلامة حفظ علم الدين، وتبليغه، فإذا لم يبلغوهم علم الدين أو ضيعوا حفظه، فإن ذلك من أعظم الظلم للمسلمين[4].

سلوك المعلم عند ابن سحنون:

«المعلم في التربية الإسلامية هو العبّارة التي ينتقل بها الصبي إلى الاقتداء، بالنموذج الإسلامي المتمثل في النبي ﷺ، وخطورة دور المعلم في الكتاب أنه مستمر مع الصبيان طيلة مراحل التعليم، التي تمتد بضع سنين، مما يكسب الصبيان عادات ومواقف وصوراً من السلوك، إما تقليداً للمعلم أو نتيجة ممارسات يأمرهم بها. لذلك يجب أن يتحلى المعلم بالصفات الفاضلة، ويمارسها في حياته وأمام الصبيان حتى يتعودها الصبيان ويعتادوها، لأن الصبيان يعتبرون المعلم المثال الذي يجب تقليده حيث يتوجب على المعلم أن يكون فوق الشبهات لأن تلاميذه سيتخذونه مثلاً يحتذونه[5].

(١) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٤٥ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٧.

وكثيراً ما سمع الآباء هذا الاعتذار من أطفالهم، «طيب ماله»!، فإن معلمه يفعل ذلك على كل حال.. إن المعلم يسمح لنا بعمل ذلك، إنه لا جدوى من أن ينصب المعلم نفسه داعياً إلى الحياة المثلى، إذا لم يكن هو نفسه قدوة ومثالاً، وقد أوضح أبو إسحاق الجبنياني ٣٦٩ هـ أحد العلماء الذين مارسوا التدريس في القيروان، أهمية دور المعلم في التربية قال [لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين، لأن دين الصبي على دين معلمه][(١)].

ويتمثل سلوك المعلم مع تلاميذه بالنقاط التالية:

أ ـ الإخلاص: يقوم المعلم بدور الأب في التربية، فعليه أن يخلص النيّة في عمله وينشىء الصبيان كما يود الآباء أن ينشأ صبيانهم.

ب ـ التقوى: يلتزم في سلوكه بمنهج الإسلام ويطبق أوامر الله، ويبتعد عن نواهيه، فيقلده الصبيان كما يود الآباء أن ينشأ صبيانهم.

جـ ـ الشعور بالمسؤولية: الصبيان أمانة بين يدي المعلم يسأل عن أمانته يوم القيامة، لذلك عليه أن يلتزم الاجتهاد، ويتفرغ لتعليم الصبيان.

ء ـ الحلم: المعلم أجير عند الأب، وكل أب يولي ابنه الحب والإعزاز وعليه أن يخلق جواً مماثلاً لجو البيت قائماً على الإلفة والمحبة بالتشاور مع أولياء الأمور»[(٢)].

وظائف المعلم:

١ ـ «الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة، كما أن الوالد سبب الوجود الحاضر الفاني والمراد معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا، فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه»[(٣)].

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٧.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) أبجد العلوم ص ١٢٧.

٢ - «أن يقتدي بصاحب الشرع فلا يطلب على إفادة العلم أجراً. لا يقصد به جزاءً ولا شكوراً، بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنّة لازمة لهم، بل يرى الفضل لهم وثوابه في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى، ولولا التعلم ما ثبت هذا الثواب فلا يطلب الأجر إلا من الله تعالى»[1].

٣ - ألّا يدع من نصح المتعلم شيئاً، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي. . .»[2].

٤ - «وهي من دقائق صناعة التعليم أن زجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار»[3].

«أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كمعلم اللغة، إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وأن ذلك نقل محض وسماع بحت وهو شأن العجائز، ولا نظر للعقل فيه ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول: ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن، فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تُجتنب. . .»[4].

٦ - أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، ولا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله كما قيل: كلموا الناس على قدر عقولهم»[5].

٧ - «أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له

---

(١) أبجد العلوم ص ١٦٧ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق
(٣) أبجد العلوم ص ١٦٧ وما بعدها.
(٤) نفس المصدر السابق
(٥) نفس المصدر السابق

أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه، فإن ذلك تعتبر رغبته في الجلي، ويشوش عليه قلبه»[1].

٨ ـ أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل والعلم مُنع الرشد»[2].

الشروط المستحبة بالمدرس:

«وإن كان مدرّساً، وُصِّي بأن يقبل على جماعة درسه بطلاقة وجـه، وأن يستميلهم إليه جهد استطاعته، ويربيهم كما يربي الوالد ولده، ويستحس نتـائج أفكارهم التي يأتون بها في درسه، ويقدم منهم من يجب تقديمه، وينـزل كل واحد منزلته. ليهزهم ذلك إلى الإكباب على الاشتغال والازدياد في التحصيل، ثم يأتي في كل درس بما يناسب من أمور العلم الذي يُدِّرسُ فيه، إن كان يُدِّرس في علم خاص»[3].

الشروط الواجب توفرها بمعلم الصبيان:

«كان يشترط فيمن يقوم بتعليم الصبيان شروطاً خلقيـة كثيرة [وذلـك لأنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي تجملاً ورفعة][4]، وأهم هذه الشروط:

ـ الرفق بالأطفال في تعليمهم، ومعاملة الطفل كمـا يعامله أبـواه، وعلى المعلم أن يؤدبه، كما يؤدبه أبواه، وهما يرحمانه ويشفقان عليه، ويذبان عنه في كل الأحوال[5].

---

(١) أبجد العلوم ص ١٦٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) صبح الأعشى ج١١ ص٢٤٧ مع بعض التصرف.

(٤) عبد الغني العاطي، نقلاً عن حجة وقف السلطان قايبتاي ٨٨٨ أوقاف ص ١٣٥. وفن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦.

(٥) نفس المصدر السابق.

- العدل بينهم في المعاملة، ومساواتهم في التعليم، فيكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة لا يشرف بعضهم على بعض، فابن الفقير وابن صاحب الدنيا على حد واحد في التربية والتعليم[1]، هذا إلى جانب كونه من أهل التقوى والورع والفقه، واستحب المربون في معلم المكتب، أن يكون كبير السن فقال العبدري:

[إذا كان المعلم من أهل التقوى والورع، وكان مع ذلك عنده علم من التربية فهو أحسن فإن زاد على ذلك بالعفة فهو أولى، فإن زاد عليه بكبر السن فهو أجل» . والمعلم الكبير السن ينجح عادة في تربية الأطفال لأنهم يتقبلونه عادة على أنه بديل للأب، كما يكون أكثر رفقة وشفقة بالتلاميذ[2].

وحرص فقهاء ذلك العصر على أن يشترطوا في المعلم الزواج، واعتبروا كونه متزوجاً[3] من حالات (كماله) فقال ابن الحاج [أن يكون على أكمل الحالات، ومن ذلك أن يكون متزوجاً، وللحالة الزواجية دلالتها الخاصة، حيث ترتبط بشخصية المعلم واتزانه وقد ذهب البعض إلى أن المعلمين المتزوجين يحققون تكيفاً أفضل من غير المتزوجين][4]، هذا إلى جانب أن الزواج للمعلم حكمة خلقية، وفيه صيانة للأولاد»[5].

واجبات المعلم بالنسبة لطلاب المدرسة:

١ - «أن يتعاهد الصبيان هو نفسه في وقت انقلاب الصبيان، ويتأكد من وصول كل صبي إلى منزله»[6].

٢ - «في حال غياب الصبيان واجب المعلم الاتصال بأهل الطالب ويخبر أولياءهم أنهم لم يجيئوا»[7].

---

(١) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦.
(٢) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦.
(٣) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦.
(٤) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦.
(٥) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦.
(٦) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٤.
(٧) نفس المصدر السابق.

٣ ـ «لا يستطيع المعلم أن يقوم بمهامه التربوية على أكمل وجه إلا إذا تفرغ للتدريس، لذلك يلزم المعلم الاجتهاد والتفرغ لهم، حتى يتمكن من متابعة الصبيان في دروسهم وتأديبهم»[١].

٤ ـ «لا بدّ أن يحصل المعلم مستوى معيناً من الثقافة، وهذه الثقافة تتمثل في[٢]:

أ ـ حفظ القرآن ومعرفة أحكام الوقف والترتيل[٣].

ب ـ العلم بالفقه ليتمكن من تعليم الصبيان الصلاة وأحكامها، والطهارة وشروطها وسنن النبي ﷺ[٤].

جـ ـ المعرفة بالنحو ليتعلم الصبيان أصول الكتابة بقواعدها النحوية، والتركيب السليم للجملة[٥].

ء ـ «إتقان الخط، إذ عليه أن يعلم الصبيان أصول الخط ومن البديهي أن يكون معلم الخط ذا خط حسن»[٦].

هـ ـ الاطلاع على التراث ليتاح له تحفيظ الصبيان الأشعار الجميلة، التي تدعو إلى مكارم الأخلاق والتحلي بالمكارم الحميدة، والنصوص الأدبية الرائعة التي تعينهم على اتقان فن الخطابة[٧].

يتضح مما تقدم أن المستوى العلمي للمعلم يتمثل في إلمامه بثقافة مجتمعه، ووظيفة المدرّس هي تقديم التلميذ لمجتمعه، وتقديم المجتمع للتلميذ»[٨].

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٤.
(٢) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٤.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) نفس المصدر السابق.
(٦) نفس المصدر السابق.
(٧) نفس المصدر السابق.
(٨) نفس المصدر السابق.

المحظورات على المعلم:

- «لا يحل للمعلم أن يشتغل عن الصبيان إلا أن يكون في وقت لا يعرضهم فيه، فلا بأس أن يتحدث وهو في ذلك ينظر إليهم ويتفقدهم»[1].

- لا يحل له أن يأمر أحداً أن يعلم أحداً منهم إلا أن يكون في ذلك منفعة للصبي في تخريجه، أو بإذن من والده في ذلك، وَلْيَلِ هو ذلك بنفسه، أو يستأجر من يعينه إذا كان مثل كفايته»[2].

- لا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه[3].

- لا يجوز للمعلم أن يعلم [أولاد النصارى القرآن ولا الكتب][4].

- أكره للمعلم أن يعلم الجواري، ولا يخلطهن مع الغلمان، لأن ذلك فساد لهم[5].

- على المعلمْ أن يكسب الدُرَّةُ والغَلَقَةُ، وليست ذلك على حساب الصبيان[6].

- لا يجوز أن يرسل الصبيان بعضهم في طلب بعض، إلا أن يأذن لهم آباؤهم، أو أولياء الصبيان في ذلك، أو تكون المواضع التي يسكنها الصبيان قريبة لا ينشغل الصبي في ذلك.

- لا يجوز له الصلاة على الجنائز إلا في ما لا بدّ منه مما يلزمه النظر في أمره لأنه أجير لا يدع عمله، ولا عيادة المرضى أثناء عمله[7].

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٥ وما بعده.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.
(٥) نفس المصدر.
(٦) نفس المصدر. الدرة والغلقة: كناية عن المال. بمعنى أن يكسب رزقه ليس على حساب الطلاب.
(٧) نفس المصدر.

ـ لا يجوز للمعلم أن يأذن للصبيان بالعطلة [إلا بإذن آبـائهم، لأنه أجيـر لهـم فلا يجوز له إلا بإذن الآباء][1].

ـ لا يجوز للمعلم أن يكتب لنفسه الكتاب [إلا في وقت فراغه من الصبيان فلا بأس أن يكتب لنفسه وللناس، مثل أن يأذن لهم في الانقلاب، وأما ما داموا حوله فلا يجوز له ذلك، وكيف يجوز له أن يخرج مما يلزمه النظر فيه إلى ما لا يلزمه ألا ترى أن لا يجوز له أن يوكل تعليم بعضهم إلى بعض، فكيف يشغـل غيرهم][2].

ـ كفاءة المعلم في التدريس تتحصحص في المستـوى الذي يصـل إليه الصبيان، في تبين لأولياء الأمور أن صبي الكتاب لا يتمكن من تهجي (ما يُملي عليه ولا يفهم حروف القرآن، [لم يعطِ المعلم شيئـاً، وأُدِّبَ المعلم ومُنع من التعليم إذا عُرِفَ بهذا وظهر تفريطه][3].

رأي الجاحظ في المعلمين:

من أمثال العامة: أحمق من مُعلم وقال الجاحظ:

المعلمون عندي على ضربين:

«منهم رجـال ارتفعوا عن تعليم أولاد العـامة إلى تعليم أولاد الخـاصة، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك، أنفسهم المرشحين للخلافة (٤).

فكيف نستـطيع أن نـزعم أن مثل علي بن حمـزة الكسائي، ومحمـد بن المستنير، الذي يقال له قطرب، وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى، ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم، فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية وسفلة، فما هم في ذلك إلا كغيرهم. وكيف تقول

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٦٥ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٤٨.

مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء، مثل الكميت بن زيد، وعبد الحميد الكاتب، وقيس بن سعد، وعطاء بن رباح، ومثل عبد الكريم بن أمية، وحسين المعلم، وأبي سعيد المعلم[1].

ومن المعلمين الضحاك بن مزاحم، وأما معبد الجهني، وعامر الشعبي، فكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان، وكان معبد يعلم سعيداً، ومنهم أبو سعيد المؤدب، وهو غير أبو سعيد المعلم، وكان يحدث عن هشام بن عروة وغيرهم، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى، وكان معلم ولد عتبة بن أبي سفيان. وكان إسماعيل بن علي ألزم بعض بنيه عبد الله بن المقفع ليعلمه، وكان أبو بكر عبد الله بن كيسان معلماً [2].

وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم، ولا أحسن بياناً من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا. وقد قال الناس في أبي البيداء، وفي أبي عبد الله الكاتب، وفي الحجاج بن يوسف الثقفي وأبيه ما قالوا. وقد أنشدوا مع هذا الخبر شاهداً من الشعر، على أن الحجاج وأباه كان معلمين بالطائف، ثم يرجع بنا القول إلى الكلام الأول[3]:

قال أحق الناس بالرحمة عالم يجري عليه حكم جاهل.

وكتب الحجاج إلى المهلب [بن أبي صفرة] يعجله في حرب الأزارقة ويُسْمِعُهُ فكتب إليه المهلب: أن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن عليكم دون أن يبصره» [4].

أهمية المعلمين:

«أما الأساتذة والمعلمون والشيوخ فكان لهم امتياز لا يعلوه امتياز آخر، إذ

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٤٨.

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٣) البيان والتبيين ص ٢٤٨ جـ ١.

(٤) نفس المصدر السابق.

لم يكن هناك أكثر تشريفاً من العمل الذي يتولونه، وخاصة الشيوخ في المدارس الكبرى كالنظامية، ومدرسة مشهد الإمام أبي حنيفة، وقد لعب العلماء والأساتذة دوراً خطيراً في المجتمع في هذا العصر خصوصاً أولئك الذين يتمتعون بمكانة علمية واجتماعية كبيرة في قلوب عامة الناس، كالماوردي وأبي إسحاق الشيرازي، والإمام الغزالي، وأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي وغيرهم كثيرون ممن كان لهم كلمة مسموعة في الدولة، وقد قربهم الخلفاء والوزراء مما أهلهم أن يلعبوا دور الوسيط بين الحاكم والمحكوم، بل أصبحوا لساناً للعامة، وممثلين لهم أمام الخلفاء والوزراء الذين كانوا يقدمون لهم المساعدة، ويلبون طلباتهم، ويدعونهم إلى مجالسهم، ويستمعون إلى مناظراتهم، ولعل الدافع الأكبر وراء هذا هو كسب العامة، بالنظر لما يتمتع به العلماء من مكانة عالية لدى الخلفاء والوزراء، وإضافة إلى ذلك فإن هذه المكانة العالية تعكس تقدير الخلفاء للعلم وأهله[1].

كان الخلفاء العباسيون يدعون العلماء لإلقاء دروسهم في مدارس وجوامع بغداد، وكان السلاطين ووزراؤهم يوفدون العلماء إلى بغداد للتدريس بالمدرسة النظامية، كما كان الخلفاء يقلدون العلماء مناصب مهمة في الدولة كالوزراة، وإمارة الحج والقضاء والأمانة، والكتابة والحسبة[2].

ومما هو جدير ذكره أن هناك عدداً قليلاً من العلماء كانوا ينادمون الخلفاء، ويجالسونهم ويحادثونهم، ويشيرون عليهم، غير أن هذا الصنف يمثلون أقلية محدودة من العلماء. وذلك أن الخلفاء غالباً ينصب تذوقهم على الآدب والشعر، كما أن غالبية العلماء كانوا يتصفون بالورع والزهد، ويتحفظون بالتقرب من الحكام، ولكنهم على الرغم من ذلك لم يعملوا ضد السلطة، بل كانوا أميل للنصح والإرشاد، والتذكير. مع أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي قد أوصى العلماء بأن يتحرزوا من شرور السلطة، فإنه أوصاهم أن ينتهزوا كل

(١) الحياة العلمية بالعراق في العصر السلجوقي ص ٢٨٨.
(٢) نفس المصدر السابق.

الفرص لحث المسؤولين على الالتزام بالشريعة وتطبيق العدل والاستقامة. ولقد اعتبرت منازل الكثير من العلماء أماكن طيبة للتعليم، وقد أسهمت في نشر العلم وقد كان يجتمع فيها العلماء والمتعلمون، وكانت تدور فيها المناقشات العلمية والمحاورات والمناظرات التي كانت تتناول فروع العلم المختلفة، كالحديث والفقه، وعلم الكلام واللغة والآدب»[1].

ثياب المعلمين :

لم يكن للعلماء زي خاص بهم، وإنما يرتدي العالم ما يروق له من الثياب، التي تناسب سنه ومنزلته وأول من وحد زي العلماء وجعل لهم ثياباً خاصة بهم هو الإمام أبو يوسف رحمه الله.

ولم نقف على ما اتخذه لهم، ومما لا شك فيه أنه اتخذ العمائم واللحية والطيلسان لأكابر العلماء وأقدم من وقفنا على ذكره أنه كان يتطلس هو الإمام مالك بن أنس، ثم على استعمال الطيلسان لأكابر العلماء فكانوا أصحاب طيالسة ولبعضهم الطرحةَ.

والطيلسان قطعة قماش توضع فوق العمامة وتتدلى على الكتفين، وبعضهم يرسلها على ظهره كما عليه شيوخ القراء في مصر، وجاء عن القاضي الفاضل أنه كان له حدبة يخفيها الطيلسان ويظهر أن ارتداء الطيلسان في بعض البلاد يختلف عن غيرها. جاء عن عثمان بن عيسى البلطي[2] النحوي ٥٩٩ هـ - ١١٧٩ ما يأتي:

يعتم بعمامة كبيرة جداً، ويتطلس بطيلسان لا على زي المصري، بل يلقيه على عمامته ويرسله من غير أن يديره على رقبته.

أما ألوان العمامة والطيلسان فكانت تختلف ألوانها في البلاد الإسلامية، وروي عن زي الإمام مالك بن أنس «أنه كان يعتم بعمامة سوداء، ويفتخر المسلمون على غيرهم بالعمائم البيضاء.

---

(١) الحياة العلمية في العراق ص ٢٨٨.

(٢) صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤١ - ٤٢.

وبعضهم يلبس الطرحة وهي قطعة قماش ثمين توضع فوق العمامة وقد تكون مقصبة لأكابر العلماء وللخلفاء ولقاضي القضاة»[1].

رواتب المعلمين في عهد ابن جماعة [٦٣٩ هـ - ١٢٤١ م]

«ولقد تمتع معلمو المكاتب في ذلك العصر بمراكز مالية جيدة، إذ وفر لهم المشرفون على الأوقاف التعليمية رواتب شهرية اختلفت من مكتب لآخر حسب ما يدره الواقف.

ففي أحد المكاتب كان مرتب المؤدب أربعين درهماً نقرة، وأربعة أرطال بالمصري من خبز الطيب، وفي مكتب آخر بلغ مرتبه ٣٠٠ درهم شهرياً، وقد يكون المرتب بدلاً من الدراهم - ريع قطعة محدودة من الأراضي الزراعية، كما ورد في حجة شمس الدين. أبي عبد الله - فقد ذكر فيها [ويعرف الناظر الشرعي لعريف من أهل الخير والديانة يعاونه الفقيه المذكور في تعليم الأطفال المذكورين. على العادة بأُجرة فدان»[2].

إجرة التعليم العسكري عند ابن تيمية:

«لمعلمي التدريبات العسكرية أن يأخذوا أجراً على هذه المهنة [ولو أهدى المتعلم لأستاذه لأجل تعليمه، وأعطاه ما حصل له من السبق أو غير السبق عوضاً عن تعليمه وتحصيله الآلات واستكرائه الحانوت كان ذلك جائزاً للأستاذ قبوله [3].

فإذا أخرج ولي الأمر مالاً من بيت المسلمين لإنفاقه على التعليم العسكري كان ذلك جائزاً ولو تبرع رجل مسلم لذلك كان له أجر، وأصل هذا أن يعلم أن هذه الأعمال عون على الجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله مقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا»[4].

---

(١) صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤١ - وما بعدها.
(٢) فن التعليم عند ابن جماعة ص ٧٦.
(٣) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٠٧.
(٤) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٠٧.

آداب المتعلـم :

أما المتعلم فآدابه ووظائفه كثيرة، ولكن ينظم تفاريقها عشر جمل:

١ ـ «تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، إذ العلم عبادة القلب وصلاح السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى. فلا تصح هذه العبادة إلا بعد طهارة القلب عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف»(١).

٢ ـ «أن يقلل علائقه بالاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن، فإن العلائق شاغلة وصارفة، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه... قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك... والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ الزرع»(٢).

٣ ـ «ألّا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته، إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته»(٣).

٤ ـ «أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويغيّر رأيه ويؤيسه من الإدراك والاطلاع. بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريقة الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب...»(٤).

٥ ـ «ألّا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة، ولا نوعاً من أنواعها إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر

---

(١) أبجد العلوم ص ١٢٤ جـ ١.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) أبجد العلوم ص ١٢٤ وما بعدها. جـ ١.

فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض»[1].

٦ ـ «ألّا يأخذ في فن من فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب ويبتدي بالأهم فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمِّه، ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة»[2].

٧ ـ «ألّا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طرق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج. وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي إلى ما هو فوقه...»[3].

٨ ـ «أن يعرف السبب الذي يدرك شرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان، أحدهما شرف الثمرة، والثاني وثاقة الدليل وقوته، وذلك كعلم الدين وعلم الطب»[4].

٩ ـ «أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتحميله بالفضيلة، وفي الحال القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة المقربين، ولايقصد به الرياسة والمال والجاه ومجاراة السفهاء، ومباهاة الأقران.. ومع ذلك فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم كالنحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنّة وغير ذلك»[5].

١٠ ـ «أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد به كما يؤثر القريب الرفيع على البعيد الوضيع والمهم على غيره، ومعنى المهم ما يهمك، ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة.»[6].

---

(١) أبجد العلوم جـ ١ ص ٢٤ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر.

(٣) أبجد العلوم ص ١٢٤ جـ ١ وما بعدها.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر.

آداب المتعلم عند ابن تيمية :

يحدد ابن تيمية مجموعة من الآداب التي يجب أن يتحلى بها المتعلم وهذه الآداب هي :

١ ـ «يجب على المتعلم أن يحسن نيته في التعليم وأن يقصد وجه الله تعالى»[١].

٢ ـ «يجب على المتعلم أن يعرف حرمة أستاذه ويشكر إحسانه إليه، فإنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله ولا يجحد حقه ولا ينكر معروفه»[٢].

٣ ـ «على المتعلم أن يقبل كل علم مهما كان مصدره، ولا يجوز أن يقيد نفسه إلى أستاذ واحد، لأن عقيدة الإسلام تلزم المتعلم على طلب الحقيقة، دون تقيد بجماعة أو شخص سوى الاقتداء بالرسول ﷺ»[٣].

٤ ـ «لا يجوز للمتعلم أن ينكر على المذاهب الأخرى أو ينظر إليهم باعتبارهم جهالاً وضالين ولا يجوز له أن يعتقد أن العلم الصحيح والإرشاد مقتصر على جماعة، فالطريق الصحيح هو ما جاء به القرآن والسنة، وما قبله فهو الصواب، وما تناقض معه هو الخطأ»[٤].

الشروط الواجب مراعاتها في المتعلم عند ابن تيمية :

«دعا ابن تيمية إلى مراعاة عدد من الشروط والمبادىء لتسير العملية التربوية مسارها الصحيح وهذه الشروط على النحو التالي :

١ ـ «مراعاة استعدادات المتعلم وطاقاته، لقد أودع الله في كل إنسان وسعاً محدداً من الفهم والإرادة وعلى التربية مراعاة هذا الوسع والانسجام مع حاجات الإنسان المتعلم وقدراته، والنظام التربوي الأمثل الذي يراعي هذا

---

(١) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٤٧.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.

المبدأ هو نظام التربية الإسلامية ومنهاج السنّة النبوية، وفي ذلك يقول ابن تيمية: الوسع ما تسعه النفس فلا تضيق به ولا تعجز عنه فالوسع فعل بمعنى مفعول كالجهد وهذا أيضاً كقوله تعالى: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾و[1] وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[2] ﴿ما يريد عليه ليجعل عليكم من حرج﴾[3].

الحرج الضيق، فهو نفي أن يكون عليهم ضيق، أي ما يضيق عنهم، كما أخبر أنه لا يكلف النفس إلا ما تسعه، فلا بد أن يكون الإيجاب والتحريم مما تسعه النفس حتى يقدر الإنسان على فعله، ولا بدّ أن يكون المباح مما يسع الإنسان، ولا يضيق عنه، حتى يكون على الإنسان ما يسع الإنسان، ويحمل الإنسان ولا يضيق عنه من المباح [4].

٢ ـ التدرج بالتعليم: يجب مراعاة التدرج في التعليم سواء أكان ميدانه العلم، أو الإرادة ذلك أن الإنسان لا يصل درجة القبح والكمال في كلا الميدانين دفعة واحدة، وإنما يتدرج في ذلك حسب مراتب ومستويات ذكرها القرآن الكريم وأشارت إليها السنة النبوية، ففي تربية الإرادة النبيلة يتطهر القلب تدريجياً ويمر في مراحل ثلاث:

أ ـ عندما تكون النفس في أدنى مستوى منها حيث تكون خاضعة للشر تماماً، وليس لها موجه أخلاقي وفي هذه الحالة تسمى (النفس الأمارة بالسوء).

ب ـ حين تبدأ النفس بتذوق جمال الخير والحق والفضيلة، وتنفر من القبح والباطل والرذيلة ففي هذه الرحلة يوبخ القلب صاحبه لإهمال الواجبات الإلهية ولارتكاب الأخطاء والانحراف في السلوك.

جـ ـ في هذه المرحلة يطمئن القلب، ويتحرر من شهواته الهابطة وتسمى

---

(١) سورة الحج آية: ٧٨ .

(٢) سورة البقرة آية: ١٨٥ .

(٣) سورة المائدة آية: ٦ .

(٤) الاستقامة جـ ١ ص ٢٧ .

النفس في هذه المرحلة «النفس المطمئنة» وكذلك الطريقة العلمية، يمر العقل بمراحل علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين.

٣ ـ تكامل النظري والعملي: لأن هذا المبدأ أساسي في منهاج التربية النبوية والسلف الصالح فلقد اعتاد الصحابة أن يتعلموا عشر آيات فلا يتجاوزونها حتى يتعلموها، ويعملوا بها وبذلك تعلموا العلم والعمل سواء، ويروى عن عبد الله بن عمر بقاؤه ثماني سنين في تعلم سورة البقرة، وهذا التكامل بين النظري والعملي ينهي لدى المتعلم القدرات العقلية، ويربي فيه الإرادة النبيلة ويساعد على النضج والتكامل في الشخصية وهو أسلوب يخالف طريقة الفلاسفة الذين ظنوا أن المعرفة النظرية تمنح المتعلم سلوكاً كاملاً وشخصية متكاملة، وهكذا فإن الفلاسفة ضلوا وأضلوا وقللوا قيمة عبارة الله وأنزلوها إلى مستوى الرياضات للترويح عن النفس»[1].

نماذج من إجازة بالتدريس:

١ ـ إجازة من أبي بكر بن أحمد بن سليمان الأذرعي الدمشقي الشافعي (٧٩٨ ـ ٨٥٨) إلى زين الدين عبد القادر بن شمس الدين محمد بن عبيد الحمصي الحنبلي[2]:

أولها البسملة والحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم وبعد:

فقد عرض على عبد القادر بن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الحمصي الحنبلي مواضع متعددة من كتاب تجديد العناية في تحرير أحكام الهداية لعلاء الدين بن عباس البعلي وعرض عليّ أيضاً مواضع من أبيات الخلاصة الألفية عن شيخنا شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجر الشافعي وأذنت له في رواية ذلك عني وفي رواية ما يجوز عني روايته، ومن ذلك رواية صحيح الإمام البخاري.. إلخ وأتقن العرض المذكور على الوصف المذكور

---

(١) الفكر التربوي عند ابن تيمية ص ١٣٨.
(٢) مصطلح الحديث ـ المجلد الأول ـ دار الكتب المصرية، وصبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٦٤.

في السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٨٥٣ هـ بمنزلي بالعادلية الصغرى داخل دمشق.

٢ - إجازة من علي الحلبي الشافعي إلى محمد بن نور الدين الشهير بالخصيبي القدسي[1].

أولها البسملة والحمد لله الذي جعل عماد الشريعة أئمة للاقتداء وبعد:

فإن محمد بن نور الدين الشهير بالخصيبي قد التمس مني... وهي الإجازة التي تتصل بالسند، وقد أخبرته أن يروي عني جميع ما تجوز لي روايته من الكتب العلمية والعقلية والنقلية التي أخذتها من مصادرها وأودعتها الثبت الذي جمعته... الخ.

وأن يروي عني جميع مؤلفاتي في الفنون العقلية والنقلية وأسأله ألا ينساني من دعواته قابل الله ذلك بالقبول، وبلغنا وإياه كل مأمول... شوّال ١٠٤٩ هـ.

الحياة اليومية لمدرّس:

[قسم ليله ونهاره على ما أقول لك: إذا صلى الصبح ذكر الله حتى تطلع الشمس، فيركع ركعتين ويدخل منزله فيأخذ كتبه ويخرج إلى الطلبة، فيقرؤون عليه العلم إلى ارتفاع النهار، فإذا لم يكن صائماً أخذ شيئاً من الغذاء، وصلى ضحاه، ونام يسيراً، ثم يقوم، فيسبغ الوضوء، فإن كان له تقييد، قيّده، وإلا ذكر الله، فإذا جاء وقت الظهر فتح المسجد وأذن ودخل منزله يتنفل ويذكر الله تعالى إلى وقت دخول الصلاة متمكناً، يدخل إلى المسجد يقيم الصلاة لا يتنفل، يتمايل في محرابه تمايل النسوان مما يجد في باطنه من الوجد بكلام الله تعالى، فإذا سلّم خرج وتنفل راتبة الظهر وأخذ المصحف ففتحه على ركبته، ومشى بيده على حروفه، وعيناه في المصحف يرتل القرآن بحنان وتدبر، حتى يتم خمسة أجزاء وقد حان العصر فأذن ودخل مسجده يتنفل حتى تجتمع الجماعة فيصلي

(١) مصطلح الحديث - المجلد الأول - دار الكتب المصرية وصبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٦٤.

بهم، ثم يدخل منـزله يـذكر الله حتى تجيء المغـرب، فيخرج يؤذن ويصلي، ويدخل بيته فيجيء بين العشاءين، فإذا جاء وقت العشاء أو قربها أسرج القنديل في المسجد وأذن، ودخل منزله يتنفل حتى يجتمع الجماعة فيخـرج ويصلي بهم ثم يغلق باب المسجد ويدخل منزله ويحاسب نفسه في حركاته وألفاظه، وجميع ما يعلم أن الملك يقيده عليه، فتكـون حالـهُ على حسب ما يجـده في صحيفته] [١].

نماذج من بعض المدرسين وطريقة تدريسهم:

كان يجوز للسامع في المجلس أن يقف ويسأل المدرس، ويـدل على ذلك ما حُكي عن أبي عبيدة اللغوي من أن رجلاً حضر مجلسه فسألـه سؤالاً شخصياً يدل على الجهل وسوء الفهم، ثم قـام ثان وثالث فسألا مثل ذلك، فأخذ أبو عبيدة نعليه واشتد ساعياً في مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته: من أين حُشرت البهائم عليَّ اليوم» [٢].

- وكان يستحب للمحدث قبـل أن يجلس للحديث أن يتـطهر ويتـطيب ويسرح لحيته، وأن يجلس متمكنـاً بوقـار، فإن رفـع أحد الحـاضرين صـوته زجره وعليه أن يُقبل على الحاضرين كلهم [٣].

- ويروى لنا من القرنين الثاني والثالث للهجرة، أنـه كانت تُـرمى رقاع في حلقـة بعض العلماء الصـالحين أمام العـالم، وتتضمن هذه الـرقعة طلب دعـاء لمريض أو صـاحب حاجـة، فيقبض العالم عليهـا ويقـرؤهـا، ويـدعـو لصاحبها، ويؤمن على دعائه من حضر، ثم يمضي في درسه [٤].

- وكـان أبو الحسن الـدارقطني (المتـوفى عام ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) يقـرأ

---

(١) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٣٨٦ - ٣٨٧.
(٢) الحضارة الإسلامية آدم منز ص ٣٣٨ جـ ١.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.

عليه تلاميذه فإذا أخطأ أحدهم سبح أو قرأ شيئاً من القرآن بقصد التصحيح، من الآيات التي تكون ملائمة لذلك[١].

ـ وتوفي أحد العلماء في سنة ٤٠٦ هـ ـ ١٠١٥ م، وكان يتبدىء كل يوم بتدريس القرآن ثم يدرس الحديث، وكان يجلس على حال واحد لا يتحرك ولا يعبث في شيء من أعضائه ولا يغير شيئاً من هيبته، وكان يقرأ بنفسه حتى يستنفذ قوته ويبلغ النهاية، في جهدها في القراءة[٢].

ـ وكان أبو حسن الباهلي يدرس في كل جمعة مرة واحدة. وكان يرخي الستر بينه وبين تلاميذه كي لا يروه، وسُئل عن سبب إرساله الحجاب بينه وبين الناس فأجاب: إنهم يرون السوقة، وهم أهل الغفلة، فيروني بالعين التي يرون بها أولئك «وكان من شدة اشتغال قلبه بالله مثل والهٍ أو مجنون، لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره[٣].

وكان بعض العلماء إذا انتهى مجلسه يقول: قوموا، فيقوم تلاميذه، ويأخذ هو يدعو الله[٤].

ـ وقد اختلف العلماء متى يبدأ الإنسان في سماع الحديث، فذهب جماعة إلى أنه يستحب أن يبتدىء الإنسان بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة، وقال آخرون: بعد العشرين، ونقل القاضي عياض، قاضي قرطبة المتوفى عام ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م أن مذهب المحدثين أنفسهم أن أول زمن يصح فيه السماع خمس سنين[٥].

وتروى بعض الأحيان عن أن بعضهم كان دون الست سنوات ويحملهم آباؤهم على أكتافهم عندما يأتون بهم إلى مجالس الحديث[٦].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الحضارة الاسلامية، آدم متز ص ٣٣٨ وما بعدها جـ ١.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) نفس المصدر السابق.



التعليم الخاص عند المسلمين

مقدمة عامة

«كـان الخلفاء والأمـراء والأغنيـاء يتخـذون لأولادهم معلمين خـاصين، يـذهبـون إلى القصـور، ويجلس الأولاد إليهم يتلقـون منهم قـدراً من الثقـافـة والمعـرفة، وكـان الوالـد يشترك في تخـطيط وتحديـد ما يتعلم ابنـه من معلمه الخـاص، وقد أطلق على هـذا المعلم اسم المؤدب، وكـان بعضهم يقيم في القصور، حيث أعد جناح للإقامة حتى يتم إشرافهم على تربية الولد.

ويذكر أن المتنبي كان يلقي شعره شادياً في قصر سيف الدولة الحمداني، والظاهر أن كرم سيف الدولة ألف حوله قلوب أدباء عصره وعلمائه، فهرعوا إليه في حلب حيث اتخذها [عاصمه]. ويذكر أيضاً أن الكثيرين من الخلفاء والأمراء اتخذوا من قصورهم مجالس للأدب والعلم، وعقدوا بها الندوات، حيث دارت المناقشات والمساجلات والمناظرات ومن هؤلاء المعتضد بالله في بغداد، حيث ضم قصره دوراً ومساكن ومقصـورات لسكن العلماء ودراستهم، وأجرى عليهم وأجـزل، وكذلـك فعل قليـلاً بأهـل العلم والحكمة معـاويـة بن أبي سفيـان، وعبد الملك بن مروان وغيرهم كثيرون»[١].

التعليم الخاص في زمن الأمويين:

«ظهرت فئة من المؤدبين في هذا العصر، وهم الذين كانوا يعلمون أبناء الخـاصة كمـا أسلفنا وكـان هؤلاء المؤدبـون يـدرّسـون القـرآن والنحـو واللغـة

(١) تطور الفكر التربوي ص ١٩٣.

والأنساب والشعر وكان الخلفاء يغدقون عليهم العطاء من أجل تدريس هذه العلوم ما عدا القرآن حيث يكره أخذ الأجرة على تعليمه فقد حدث إسماعيل بن عبيد الله أن عبد الملك قال له: يا إسماعيل علم بُني فإني مثيبك على ذلك، قلت يا أمير المؤمنين فكيف وقد حدثتني أم الدرداء عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ: من أخذ على تعليم القرآن قوساً قلده الله قوساً من نار يوم القيامة قال: فإنني لست أعطيك على القرآن، إنما أعطيك على النحو، ومن المؤدبين عبد الواحد بن قيس السلمي وهو أعلم أهل الشام بالنحو، وكان معلم بني يزيد بن عبد الملك، وكان الزهري يؤدب أولاد الخلفاء من بين أمية ومنهم هشام بن عبد الملك ويذكر أنه أدى عن الزهري سبعة آلاف دينار[1].

وللأنساب نصيب في مجال التعليم عند بني أمية، ومن المؤدبين النسابين دغفل بن حنظلة، استقدمه معاوية وأمره أن يعلم ولده يزيد[2].
وقد كان أثر المؤدب كبيراً على أولاد الخلفاء الذين قد يصبحون خلفاء بعد ذلك فيعتنقون مبادىء المؤدب ويحاولون تطبيقها. فهذا مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية بلقب بمروان الجعدي نسبه إلى الجعد بن درهم مؤدبه الذي قال بخلق القرآن والجبر، ويبدو أنه كانت للمؤدب مهمة أخرى غير التعليم في العصر الأموي، وهي الإشراف على أولاد الخلفاء في حياتهم العادية حتى في طعامهم وشرابهم ونظافتهم لقد جاء في وصية عبد الملك لمؤدب ولده «واحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا»[3].

ومن المؤدبين في البلاط الأموي «عبد الحميد الكاتب، وعبد الصمد بن عبد الأعلى، وكان معلم عتبة بن أبي سفيان، كان يتهم بالزندقة، وكان يؤدب أيضاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويقال إنه هو الذي أفسده[4].

---

(١) الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني ص ٥٨.
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٥ ص ٤٢.
(٣) عيون الأخبار جـ ١ ص ١٦١.
(٤) الحياة العلمية في الشام ص ٢٨.

وقد ظهر في بلاط بني أمية اهتمام بالعلوم الطبيعية كالكيمياء والطب والهندسة، وكان الأمويون يستدعون العلماء اليونان وغيرهم ليعلموهم هذه العلوم، فخالد بن يزيد بن معاوية يستدعي ماريانوس اليوناني ليتلقى عنه علوم الصنعة أي الكيمياء[١].

ومما يدل على تقدم صناعة الكيمياء في ذلك الوقت أن تحلية مياه البحر كانت معروفة ويقوم بها العالم خالد بن يزيد حيث ذكر ابن عساكر قوله: إن شئتم أعذبتُ لكم ماء البحر، فأتى بقلال من ماء ثم وصف كيف يصنع حتى يعذب، وهذا يدل على مدى التقدم العلمي الذي وصل إليه العرب في هذه الفترة[٢]، وكان يقول عن نفسه «خالد بن يزيد» عُنيتُ بجمع الكتب فما أنا من العلماء ولا من الجهال[٣].

التعليم في دور الوزراء:

«لقد كانت دور الوزراء في العصور العباسية المختلفة في كل من بغداد، ودمشق، والقاهرة. . مجمعاً لأهل العلم والفضل والأدب، حيث كانت تعقد بها المجالس العلمية المختلفة، فهناك مجالس المذاكرة، التي لم يكن لها عادة مكان ثابت، أو وقت محدد لعقدها، وكانت هذه المجالس خاصة بتبادل الآراء والمعلومات، بين طلبة الحديث خاصة، ولكنها تطورت عندما صار العلماء يتباحثون في الحديث سوية في مجالس مفتوحة، يحضرها الطلبة ثم تحولت هذه المجالس إلى مؤسسة تعليمية ذات قواعد محددة، حيث تتناول هذه المجالس فنون الأحاديث، وأسانيدها ورجالها جرحاً وتعديلاً، ولقد كانت مجالس المذاكرة تعقد في دار الوزير ابن هبيرة المتوفى سنة (٥٥٥ هـ ١١٦٠ م)، والتي كانت مجمعاً للعلماء والفقهاء والمحدثين ليلاً ونهاراً، وكيف كانت تعقد بحضرته مجالس المذاكرة في الحديث، حيث كان يقرأ عنده الحديث عليه وعلى الشيوخ بحضوره حيث يحصل من البحث والفوائد الشيء

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص.
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٥ ص ١١٩ ـ ١٢٠.
(٣) جامع البيان للقرطبي جـ ١ ص ١٣٢.

الكثير.. ويقول ابن الجوزي مثلاً في حوادث عام (٥٧١ هـ - ١١٧٥ م) بأنه: في: يوم الجمعة تاسع رجب استدعانا صاحب المخزن للمناظرة فحضر فقهاء بغداد ولم يتخلف إلا النادر»[١].

أما مجالس الفتوى والنظر فكان الغرض منها إصدار فتوى، وربما تم عقده مرة في الأسبوع، وتكون عادة مفتوحة للجميع، وكان الطلبة يحرصون على حضورها، وتدوين الفتاوي التي تصدر فيها، كما تتاح لهم الفرصة لمشاهدة الجانب العملي لتطبيق الأحكام الفقهية التي درسوها على شيوخهم وإضافة إلى ذلك فلقد كانت تعقد أحياناً مجالس أدبية خاصة في بيوت الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة»[٢].

المجالس العلمية التي تعقد في دور العلماء:

«كان لهذه المجالس العلمية تأثير بالغ، في التعليم والوعي الثقافي، والحركة الفكرية، ذلك أنها استلزمت أن يكون المتناظرون على معرفة جيدة بشتى العلوم مع الالتزام بقواعد وآداب المناظرة»[٣].

ولقد حاول الإمام الغزالي جاهداً توضيح شروط المناظرات العلمية وآدابها، وحذر من أن يساء استعمالها، فخصص لها فصلاً في كتابه (إحياء علوم الدين) جـ ١ ط ٤ وهو يشير إلى فوائدها شريطة أن يتولاها من هو أهل لها، وأن يلتزم بقواعدها وآدابها، وربما يجتمع لدى الشيخ من طلبته ومريديه في منزله يسألونه في كثير من الأحيان عن قضايا علمية غامضة، وربما يجيئونه في بيته من أجل أن يلقي عليهم الدروس... وتذكر المصادر في هذا المجال أن محمد بن أحمد بن هبة الله الفزاري الضرير المتوفى سنة (٦٠٣ هـ - ١٢٠٦ م) كان عالماً بالنحو والقراءات وأنه انقطع في بيته فقصده الناس للقراءة عليه[٤].

---

(١) الحياة العلمية في العراق ص ٢٢٧ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر.
(٣) الحياة العلمية في العراق ص ٢٢٩.
(٤) نفس المصدر السابق

وعندما اتهم علي بن محمد الفصيحي المتوفى سنة (٥١٦ هـ - ١١٢٢ م) بالتشيع، وعزل عن المدرسة النظامية، بعد أن كان من مشاهير مدرسيها، جلس في داره فقصده الكثيرون لمواصلة القراءة عليه»[١].

ولم تكن المجالس العلمية مقتصرة على العلماء، فقد برز في بغداد والعراق عدد من العالمات في تخصصات متنوعة، كعلوم الشريعة والآداب والشعر، ولعل أشهرهن العالمة شهدة بنت الآبري البغدادية التي استطاعت بثقافتها وفصاحتها وعلمها أن تأخذ مكانها بين مشاهير العلماء وفطاحل المدرسين حتى حضرتها الوفاة عام (٥٧٤ هـ - ١١٧٨ م)[٢].

مجالس المناظرة:

«تعتبر من أهم معاهد التعليم حيث تعقد المناظرات في الدور والقصور والمساجد بين العلماء، وفي حضرة الخلفاء، في العلوم الدينية والعربية، ولقد استعد كثير من العلماء للمناظرة رغبة منهم في إثراء الحركة العلمية ونشرها بين الناس.

لقد كانت مناهج التعليم حرة يختار المدرس منها ما يريد التعلم والتفقه فيه، ولم يكن هناك إكراه من الدولة على تعلم علم بعينه، وكذلك كان للعلماء حرية اختيار العلم الذي يريدون تعليمه[٣].

عدد الطلاب بالمجالس العلمية:

«أما المجالس العلمية التي كان يعقدها العلماء والمحدثون، فكان عدد المتلقين في بعضها يعد بالآلاف»[٤].

---

(١) الحياة العلمية بالعراق ص ٢٢٩ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر.

(٣) النفقات الإدارية في الدولة العباسية ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٤) الحياة العلمية بالعراق ص ٢٢٩ وما بعدها.

أحـرز مجلس عبد الله بن المبـارك المتوفى سنـة ١٨١ هـ ـ ٧٩٧م ، وكان يعقده بباب الطاق ببغداد بعشرة آلاف محبرة يكتبون ما يملي عليهم(١).

ووجـه المعتصم بمن أحـرز مجلس عـاصم بن علي بن عـاصم سنـة ٢٢١هـ ـ ٨٣٥م في رحبة النخل ببغداد فأحرز بعشرين ألف ومائة ألف !!(٢).

وكـان في مجلس الحسن بن عيسى بن ماسـرجس توفى سنـة ٢٤٠ هـ ـ ٨٥٤م بباب الطاق بضع عشرة ألف محبرة (٣).

ومجلس محمـد بن داوود الأصفهاني ٢٩٨ هـ ـ ٩١٠ م الفقيـه صـاحب كتاب الزهرة يحضره أربعمائة صاحب طيلسان(٤).

ويحضر مجلس أبي الطيب الصعلوكي (٤٠٤هـ ـ ١٠١٣م) أكثر من خمسمائة محبرة ، وأبو حيان أحمد بن محمد الإسفراييني توفي ٤٠٦هـ ـ ١٠١٥م ، يحضر مجلسه سبعمائة فقيه(٥).

وذكر ناصـري خسرو عن الحـركة العلميـة في جامـع عمرو بن العـاص بمصر: ويقيم بهذا الجامع المدرسون والمقرئون، ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم(٦).

كما أن كثرة الوراقين في المدن الإسلامية تعطينا فكـرة عن الإقبال على اقتناء كتب الدراسة وغيرها .

وذكـروا أن في بغداد مـائة وراق في القـرن الرابـع للهجرة، وفي دمشق قيصرية خاصة للوراقين وفي القاهرة سوق خاصة بالوراقين، وفي أحد أربـاض قرطبة مائة وثمانون فتاة تشتغل بالوراقة (٧).

---

(١) الحياة العلمية بالعراق ص ٢٢٩ .
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.
(٥) الحياة العلمية بالعراق ص ٢٢٩ وما بعدها.
(٦) سفر نامة (رحلة ناصر خسرو) ص١٠٢
(٧) الحياة العلمية في العراق ص٢٢٩ وما بعدها .

تعليم الملوك

والتـرتيب في العلم أن:[1] يبتدأ بتعليم اللغـة وحفـظهـا عنـد الحـداثـة وعنفوان الشباب والشره، وعند غلبة الحفظ وفراغ القلب عما يدفع إليه الملك في حال تملكه والاشتغال بسياسة مملكته ورعاية رعيته. ثم إذا بلغ وعقل ولزمته حجة الله.

٢ ـ ابتدأ في علم الدين الذي طريقه علم الكلام، حتى يعلم من ذلك ما يجب عليه علمه ولا يسعه جهله ولا يجوز للعاقل إغفاله.

أ ـ [إذ هو أولى العلوم بالتقديم لأن الإصابة فيه إيمان وسعادة، والخطأ فيه كفر وشقاوة. فالواجب على الإنسان أن يبادر بالشيء الذي يعظم ضرهُ ونفعهُ].

ب ـ ولعلة ثانية وهي أنه أجل العلوم في ذاته، وأفضل الفنون في ميزاته لأنه البحث عن الله وعن آياته، ومعلومه هو الله جل وتعالى.

وكل ما كان من العلوم أجل معلوماً وأعلى وأفضل وأسنى، كان العلم به أجل وأفضل، ولا معلوم أجلُّ مما يبحث بهذا العلم ويستدل به عليه.

٣ ـ وثالثه ـ أنـه بحث عن الديـانة، وذب عن الملة التي بينـا أنها أصل المملكة، ورأس العمارة وقطب السياسة وصلاح الدنيا والآخرة.

٤ ـ ورابعـه ـ أن الملك يحتاج إليـه ويستعين به في المجـالس الحـافلة والعسـاكر الكثيفـة الجامعـة عند قتـال أهل الملل المخالفـة مـرة وأهـل البغي

---

(١) نصيحة الملوك ص ١٢٢.

والعصيـان أخرى، فيجب عليـه أن يعرف هـل يجـوز لـه قتـالهم أو يجـوز لـه اغتيالهم، لأنه إن ظفر بظلم وجور فقد خسر، وإن غلب بهما فقـد غُلب، وإن خصم بهمـا فقد خُصم، ثم يحتـاج إلى محاجتهم، ومنـاظرتهم ودعـوتهم إلى الإيمان والطاعة، وقد جرت السنة بتقديم الدعوة وإقامة الحُجة عند القتال، فإذا لم يكن عند الملك عِلمٌ دينه ومذهبه كان مغلوباً محجوجاً، وربما صارت حجج عدوه عليه تفريقاً لجمعه وتشتيتاً لجيشه وإفساداً لقلوب أوليـائه عليـه، وهذه إحـدى الحيل التي لم يـزل الملوك يحتالـون بها ويلتجئـون إليهـا عنـد التقـاء الجيشين ومـوازاة الفئتين، وفي الخـطب والـرسـائـل المـذكـورة والمحـافـل المشهورة.

فبالحجـاج فـرّقَ علي ـ رضي الله عنـه ـ بين طلحـة والـزبيـر، ثم بين الخوارج، وبالحجاج من قبل استحلّ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قتال أهل الردّة.

وبالشبهة المخرجة في صورة الحُجَّة غلب معاوية علياً وفرق بين بصـائر أصحابه ونيّات أوليائه بصفين.

وحاجة الملوك إلى المعرفة بالحجاج أشهر من أن يُحتاج معه إلى احتجاج واستشهاد واستدلال.

ويجوز ألّا يـحضر الملك في كل وقت من يسد مسده، ويجـوز أن لا يحضر الملك في كل وقت، ولكن الملك في نفسه إذا لم يكن عالماً مُقِتَ وصار غير موقور ومتخلفاً غير مبرز.

٥ ـ ثم خامسه: أن يتحرز به عن حيل المموهين المخرقين وأعداء الملك والـدين من الزنـادقة والملحـدين الذي ذكـرنا بغيتهم قصـد الملوك وإفسـادهم واغتيالهم واصطيادهم ثم الاستعانة بهم على إفساد الرعية مـرة، وقصد الـرعية وإفسـادها على الملك وتفـريق كلمتها وشق عصـاها وارتفـاع الخـلاف بينهمـا أخرى، وفي كـل منهما هدمُ أركان الملة، واستئصال الديانة والمملكة.

وفي أحكام علم الدين تحرز من هذا الفساد، وتحصّنٌ من هذا العـارض المجتاح.

فمن أقبح الأشياء بالملك أن يقصده عدد من أعداء دينه ومُلكه وهو هارب من حجة العالم الخاصي وسطوة الجاهل العامي، فيصطاده اصطياد الوحش والطير حتى يخرجه من دينه ويفسد عليه آخرته، ويهدم به مملكته، فيسلم له ذلك جهلاً بأهل دينه وعجزاً عن نصرة مذهبه.

٦ ـ وسادسه: أن علم الدين أهله وطريقه الاستدلال بالشاهد على الغائب، وبالمتفق عليه على المختلف فيه، وجهة استخراج الرأي، وهذا هو علم السياسة على الحقيقة، وطريق النظر في العواقب ومناظرة العمال والكتاب والوزراء.

فهذه الوجوه كلها توجب أن يكون الملك أولى الناس بتقديم علم الدين على سائر فنون العلم ثم إن أحب الازدياد من العلم والاستكثار منه طلبه واستفاده على الترتيب الذي ذكرناه والتنزيل الذي نزلناه.

وقد قدمنا أن أولى الأشياء به تقديم رواية وعلم أخبار الرسول ﷺ، وأهل القدوة من أصحابه والخلفاء الراشدين من بعده، وأخبار السِّيَرِ والمغازي، فإن في ذلك ما يؤكد الفن الأول والعلم الأجل لأنه يقف به على معرفة أصول الملة وبذورها وفضائل بنيتها وآياته ومعجزاته ومحاسن شريعته ودينه وملته وتفسير كتابه ومُشْكِلِه ومعاني آثاره، فلا يمكن لمزور تزوير جديد عليه، ولا لأهل ملة ادعاء فضيلة لمذهبهم، ومنقبة لخلتهم لا يكون عنده أحسن منها في دينه وشريعته، ولا سيرة الخلفاء وأخبار الوزراء وآثار الأمراء الإسلاميين بأخبار الأمم المتقدمة وآثار الملوك الماضين، إلا أن يكون الإنسان ممن يُؤثر الكذب على الصدق عمداً والمزور على المحقَّقِ قصداً، ويميل من الرشاد إلى الضلال عناداً وبهتاناً، وهذا داء يُعيي الطبيب دواؤه، وجنون يُوئِسُ الحكماءَ علاجُهُ.

ثم إن معرفة الأخبار وسماعها أُنْسٌ يُرْبي على كل أُنْسٍ ، وأدب يفوق كل أدب، وسبب يبين الأخلاق المحمودة والمذمومة، وعلم السياسيات العادلة والجائرة، واستفادة علم بمكائد الرجال وآداب الملوك وفنون المذاهب، ومعرفة بالرجال واعتبار بالزمان وفقه بالأحكام، وعلم بالحلال والحرام.

ثم إن أراد الازدياد من العلم فليتعلم الفقه الذي هو علم الشرائع والأحكام فإنه فرض على كل مسلم، وجمال لكل أحد، ولا غُنية بالملوك والأئمة - خصوصاً - عنه، لأنه لا بد لهم من النظر في مظالم الرعية والبرية، وسماع دعاويهم وبيناتهم، وأيمانهم وشهاداتهم والأمر بها، وربما أمر الأمير بالصلاة، وكتب إليه بأحد الزكوات والصدقات ورفع إليه في المناكح والتزاويج والبيوع والمواريث وسائر فنون الأحكام. وربما رفع إليه في شيء من قسمة المغنم والفيء ووضع أموال المملكة مواضعها.

فالملك أحقُ الناس باقتناء هذه الفضيلة لئلا يحل محل الجاهل المحتاج إلى فقيه وقاضٍ في العلم الذي هو خاص به وعام لجميع رعيته، وفيه قوام سياسته، ولا يتكل على قاضٍ أو مفتٍ في كل نازلة وحادثة.

ثم لا يجوز أن يُخْلي نفسه من فضيلة يجدُ إلى إدراكها سبيلاً اعتماداً على كل كافٍ يكفيه ونائب ينوب عنه، لأنه إن فعل ذلك كان قد فاز بالفضيلة غيره وسبق إلى المنقبة سواه.

على أنه إن بلغ من الفقه مبلغاً مرضياً أمكنه الاجتهاد والنظر لنفسه، وطلب الحجج لها والتأويل لآرائه، فلا يعمل إلا ما يجوز له في التأويل، ويتهيأ له بالحيل الفقهية الهربُ من كثير من الحرام إلى الحلال، ومن الباطل إلى الحق، فيكون له فيه حجة في ديانته، وزينة في مملكته وإزالة التهم والريب عن نفسه، ونجاة في آخرته.

ثم علم المواعظ والتذكير، فقد بينا أن الملك من أحوج الناس إليه وأحراهم بالنظر فيه، للخلال التي ذكرناها آنفاً وحكيناها عن غيرنا بدءاً.

ثم ليس شيء من فنون العلم بعدُ إلا وفيه مستمتع ظاهر، وبه منتفع، من الطب والحساب والهندسة والنجوم، ولكن علم الدين أولى وأفضل وأرفع وأجل وأخص بالملك الفاضل والسائس الكامل، لامتساس الحاجة إليه وتعويل الجماعة عليه، ولأن الملك قد يجد من يحسب له ويمسح، ويتطبب له ويكتب ولا يجد من يعتقد عنه الصواب ويعبد عنه الرب، ويرغب عنه في الآخرة ويذب

عنه في الديانة، وللخصال الأخر التي ذكرنا، والعلل التي سطرنا.

ولا يمكن استفادة هذه العلوم إلا بمعونة أمرين: أحدهما.

١ ـ مجالسة العلماء والحكماء من أهل كل طبقة.

٢ ـ النظر في كتب الديانة والعناية بتعلُمِها ودراستها.

فيجب على الملك الفاضل أن يستكثر من مجالسة العلماء والفقهاء من كل طبقة من هذه الطبقات، ولا يخلي مجلسه في أوقات فراغه من كتب ينظر فيها، ويستأنس بها، وليعلم أن الأنس بالعلماء إذا حضروا مجلسه ليس بأقل من الأنس بالمطرب والمغني والمسخرة والملهى. بل ذلك أوقر وأفضل وأحسن وأنبل وأزين وأجمل، على ما فيه من اكتساب الأجر وجميل الذخر وحُسن الأحدوثة على مر الزمان ، ومن ممالأة الخاصة والتحبب إلى العامة، واستمالة العلماء الذين هم أشرف طبقات الرعية مرتبة وأرمقهم درجة.

ـ وصية الخليفة هارون الرشيد لخلف الأحمر مؤدب ابنه:

يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته إليك واجبة، فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار وروه الأسفار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، ولا تمرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه»[1].

المنهاج التعليمي لأولاد الملوك:

فإذا بلغ مبلغ التأديب والتعليم فالوجه أن يبدأ ـ في هذه الملة خاصة:

ـ «بتعليم القرآن مع اللغة العربية، لأنها اللغة التي أنزل الله بها كتابه وخاطب بها في شرائع دينه وفرائض مِلّته، وبها بلّغ رسول الله ﷺ سُنته، وبها أُلِّفت الكتب الدينية والحكمية والجدلية والهزلية، وبها تكتب رسائلهم والصكوك

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٩، الحياة العلمية بالعراق ص ٢٢١.

التي جعلها الله وثائق بينهم، فلا بد للناشىء في هذه الملة، من تعلمها وإلا كان جاهلاً بالدين منقوصاً في الملل[1].

- مع أن لهذه اللغة من الفضيلة ما ليس للغة من اللغات، من الفصاحة والبيان والطلاوة على اللسان، والحلاوة على الأسماع والآذان، وكثرة التصاريف واحتمال المقاييس النحوية، وسعة الألفاظ وتوسط الحروف بين القلة والكثرة وأشباه هذه الخصال ما لو تُعلمت تجملاً واستفيدت تأدباً، لكانت لذلك موضعاً. ولهذا كان ملوك العجم يتعلمونها، فإن كثيراً منهم يستعملونها، في أوقات حفله ومجالس زينته[2].

طريقة تعلم اللغة العربية عند الماوردي:

«والوجه في تعليم اللغة العربية أن يُقصد إلى الأخف فالأخف من كُتُبِها والأسهل فالأسهل من مؤلفاتها ومصنفاتها، وألّا يشغل أولاد الملوك بالقريب الوحشي والنادر الأجنبي، ولا بدقائق النحو ودواوين العروض فإن ذلك مما يشغله عن المعاني، وإنما تُتُعلم الألفاظ قصداً إلى معرفتها فإذا أفنى الإنسان عمره في تعلم الألفاظ فاتته المعاني، إلا أن يكون ذلك لمن يجعله صناعة مثل الأدباء والمؤدبين والمعلمين من النحويين ويحتاج في الاستعانة على تعلم اللغة إلى رواية أشعار العرب وأيامها وأخبارها، والصواب في تدبير ذلك أن تُروى له ويُعلَّم ويحفظ الأشعار الحكيمة التي ضمت الحكمة والتوحيد والدين، والبعث على العلم والزهد والشجاعة والجود ومكارم الأخلاق، دون التي يذكر فيها الزنى والتجميش[3] والفسق والفحش والأهاجي التي فيها قذف المحصنات وذكر العورات، لينشأ على معرفة الفضائل ومحبة نيل الممادح نشوءاً، ويعتادها عادة فيجتمع له في ذلك فائدة الفصاحة والبيان ومعرفة المبتذل من الكلام وكثير من القريب، والوقوف على المعاني الفاضلة[4].

(١) نصيحة الملوك ص ١٦٨.
(٢) نصيحة الملوك ص ١٦٨ - ١٦٩.
(٣) التجميش: المغازلة والملاعبة.
(٤) نصيحة الملوك ص ١٦٩.

«ويجب أن يحفظ من الأخبار أخبار المغازي والسير، وآثار الخلفاء دون آثار الفساق وكتب الإفسانقات من كتاب سيد باد وهرار أفسان وأشباههما»[1].

«إنه بهذه الكتب يستأنس، وبها يبلغ مرتبة العلماء، ويحل في دينه محل الفقهاء، ويتقدم في أهل مملكته وملته، ويبرز في سياسته، وليس ينال من تلك الكتب في هذه الأبواب إلا قليلاً. ولعله يتصور ما في تلك الكتب من الإفسانقات صدقاً، ويظنه حقاً فيكون منه غباوة وجهلاً، ويبقى بأصول دينه جاهلاً، وعن فضائل ملته ومحاسنها غافلاً، ثم لا تنفعه تلك الكتب والأسماء في سياسته وحكومته، ولا يجد منها معونة على مناظراته في دينه، ومباهاته في محافله، ونظره في مظالم رعيته»[2].

«وقد قال بعض أهل التفسير في معنى قول الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحديثِ لِيُضِلَّ عن سَبيلِ اللَّهِ بغيرِ عِلْمٍ﴾[3] أن شأن هذه الآية أن الحارث[4] بن كلدة اشترى كتاب كليلة ودمنة فكان يجمع الناس ويقرؤه عليهم ويزعم أن هذا ألذ وأحسن مما جاء به محمد ﷺ من أساطير الأولين فأنزل الله - جلَّ وعزَّ - للرد عليه هذه الآية.

وقال النبي ﷺ في رواية الشعر «إنَّ من الشعر لحكمة»[5] «وإن من البيان لسحراً» وقال: «الشعر ديوان العرب» وقال: «إن من الشعر لحكماً»[6].

«وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده «اِرْوِ لهم الشعر يسخوا ويمجدوا، وحكي أنه قال: عجبت لمن روى لعنترة أربعين بيتاً كيف لا يكون من

---

(١) نصيحة الملوك ص ١٦٩.
(٢) نصيحة الملوك ص ١٦٩ - ١٧٠.
(٣) سورة لقمان آية: ٦.
(٤) الحارث بن كلده طبيب عربي مشهور بالجاهلية.
(٥) رواه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه.
(٦) نصيحة الملوك ص ١٧٠.

أشجع الناس، وعجبت لمن روى لحاتم الطائي أربعين بيتاً كيف لا يكون من أحكم الناس[1].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: من روى عني أربعين حديثاً بعث فقيهاً عالماً»[2].

ولا بد لأولاد الملوك من الرياضة بالثقافة والرماية والرماحة والفروسية والسباحة والمراكضة، حتى إذا بلغ العلم والتفقه ابتدأ فيها على الترتيب الذي ذكرنا[3].

الشروط الواجب توفرها بمعلم أولاد الملوك:

«ثم يجب أن يجتهد في اختيار المعلم والمؤدب له اجتهاده في اختيار الوالدة والظئر بل أشد منه فإن الولد يأخذ من مؤدبه من الأخلاق والشمائل والآداب والعادات أكثر مما يأخذ من والده، لأن مجالسته له أكثر، ومدارسته معه أطول، والولد قد أمر حيث سلم إليه الاقتداء به جملة، والائتمار له دفعة، وإذا كان هكذا فيجب ألّا يقتصر من المعلم والمؤدب على أن يكون قارئاً للقرآن وحافظاً للغة أو راوياً للشعر، حتى يكون تقياً ورعاً عفيفاً ديناً فاضل الأخلاق أديب النفس نقي الجيب عالماً بأخلاق الملوك وآدابهم، عارفاً بجوامع أصول الدين والفقه، وافياً بما ذكرنا أنه يحتاج إلى أن يعلمه على الترتيب، فإن فاته شيء مما ذكرنا فلا يفوته التُقَى والدين والفقه وكل أدب تحت هذه الخصال على ما بيناه في الباب المتقدم لهذا الباب»[4].

«ويجب أن يُنهى غاية النهي، ويمنع أشد المنع من مواقعة الريب ومجالسة أهلها من المضحكين والمساخرين ومن لا أدب له من الصبيان وأن لا يشتم بين يديه وفي مجلسه وبحضرته أحد، ولا يتكلم بالخنا والكذب والفحش

(١) نصيحة الملوك ص ١٧٠.
(٢) نصيحة الملوك ص ١٧٠.
(٣) نصيحة الملوك ص ١٧١.
(٤) نصيحة الملوك ص ١٧١.

والمقذع، ومن فعل شيئاً من ذلك أدب بحضـرته وعـوقب عليه ليعتبـر وينزجـر عنه»[1].

«ثم لا يفتن كل التفتين، ولا ينعم كل التنعيم حتى لا تسترخي مفاصله وتضعف منته، بل يصلب وتخشن أطرافه ويؤمر بتعرية اليدين والوجه، وإن أمر بالسباق والعدو خُلي بينه وبين ذلك في الوقت بعد الوقت، ويضرب الصولجان راجلاً وراكباً ليس به بأس، فـإن ذلك ممـا يخفف بدنـه ويصححه ويهيـج في جسمه الحرارة الغريزية التي تذيب الـرطوبـة وتنفي كثيراً من العلل الـزمانيـة، ويرفع عنه عادة العجز والدعة»[2].

«ويؤدب مع ذلك في جلسته وركبته ولبسته ورزانته، ويُراض بالرياضات التي ذكرناها في باب سياسة النفس، ويحسَّن عنده ويؤمر به»[3].

وقال بعض الحكماء لولده: يا بُني تأدبوا فإنكم إن كنتم ملوكاً برزتم، وإن كنتم أوساطاً قدمتم على الناس، وإن كنتم فقراء عشتم بفضل أدبكم، ثم أنشأ يقول: [4]

ما يأكل الناس شيئاً من مآكلهم — أحلى وأطيب عقباناً من الغضب
ومـا تلحَّف إنســان بملحفـةٍ — أبهى وأزيـن من ديـن ومن أدب

«وما أحسن ما صَدر به صاحب كليلة ودمنة كتـابه حيث قـال: إن أفضل ذخائر الأحـداث الأدب الصالـح، واقتناؤه. في الحـداثة والحفظ واعٍ والقلب فارغ غُنْمٌ، والمستفاد في الصغر باقٍ كالنقش في الحجر»[5].

وروي عن عتبة بن أبي سفيان كلاماً تقدم فيه إلى مؤدب ولـده، لـو لـم يكن في هذا الباب غيره لكان فيه كفاية عن غيره، ومندوحة عن سواه، إذْ قال له يا عبد الصمد:

---

(١) نصيحة الملوك ص ١٧١.
(٢) نصيحة الملوك ص ١٧١.
(٣) نصيحة الملوك ص ١٧٢.
(٤) نصيحة الملوك ص ١٧٢.
(٥) نصيحة الملوك ص ١٧٢.

«ليكنِ أولَ ما تبدأ به من إصلاحِ - بُنَيَّ - إصلاحُ نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، علِّمهم كتاب الله ولا تستكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم فيهجروه، وروِّهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرج من علم إلى علم حتى يُحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مَضَلَّة للفهم، وتهدَّدْهُمْ بي، وأدبهم دوني، وكن لَهم كالطبيب الرفيق الذي لا يضع الدواء إلا بعد معرفة الداء، روهم سير الملوك وجنبهم محادثة النساء، ولا تتكلن على عذر مني فإني اتكلت على كفاية منك واستزدني بزيادتك إياهم أزدك إن شاء الله»[1].

هارون الرشيد يحدد منهاج وطريقة تعليم ولده:

«قال الهيثم بن عدي أخبرني خلف الأحمر النحوي: قال بعث أمير المؤمنين هارون الرشيد لتهذيب ابنه محمد، فلما دخلت عليه قال: يا أحمر! إن أمير المؤمنين دفع إليك مهجة قلبه وثمرة فؤاده، وجعل يدك فيه مبسوطة ومقالتك فيه مصدقة. فكن له بحيث وضعك فيه أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وروه الشعر، وفهمه السنن وعلمه الفرائض، بَصِّرْهُ مواضعَ الكلام، ومُرْهُ به لرزانه والاقتصاد في نظره، وامنعه الضحك إلا في في وقته، ومُرْهُ بتعظيم بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، فقال: فقلت: نعم يا أمير المؤمنين! لا أتعدى أمرك فيه وأكون على ما أمرتني[2]».

«قال: وكنت كثيراً ما أشد عليه في التأديب وأمنعه الساعات التي يتفرغ فيها للعب، فشكى ذلك إلى خالصة جارية زبيدة. قال: فجائتني خالصة ذات يوم برسالة من أمه زبيدة بالكف عنه، وأن أجعل له وقتاً يرتع فيه، قال فقلت لها: إن أمير المؤمنين في عظم قدره لا يحتمل عليَّ التقصير ولا يرضى منه بالزلل والمنطق والجهل بشرائع السنن والغفلة عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام سياسة الرعية، فقالت خالصة: صدقت يا أحمر! غير أنها والدة ولا

---

(١) نصيحة الملوك ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٩ والحياة العلمية بالعراق ص ٢٢١.

تملك نفسها ولا تقدر على كف إشفاقها عليه][1].

- «وقال عثمان بن سليم: حدثني العباس بن الفضل قال: كان أمير المؤمنين الرشيد قد جعل ابنه محمداً في حجر الفضل بن يحيى، وأمره أن يبالغ في أمره وتأديبه وأن يدخل العلماء والفقهاء عليه»[2].

وصية هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي لمؤدب[3] ولده محمد

عليك بتقوى الله وأداء الأمانة فيه بخصال لو لم تكن فيك إلا واحدة منها لكنت حقيقاً بهذا الأمر، فكيف إذا اجتمعت؟

أما أولاها فأنت مؤتمن عليه فحق عليك أداء الأمانة فيه.

وأما الثانية فأنا إمام ترجوني وتخافني.

وأما الثالثة فكلما ارتقى الغلام في الأمور درجة ارتقيت معه ففي هذا ما يرغبك فيما أوصل به إليك.

إن أولى ما آمرك به أن تأخذه بكتاب الله وتقرئه في كل يوم عشراً ليحفظ القرآن حفظ رجل يريد التكسب.

وروه من الشعر أحسنه، وتخلل به في أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم من هجاء ومدح فإنه ليس من قوم إلا وقد هُجوا ومُدحوا.

وروه جماهير أحياء العرب ثم تخلل في مغازي النبي ﷺ، وحفظ من كان معه وحسن بلائهم.

وبصره طرفاً من الحلال والحرام والخطب، وما يحتاج إليه في قدره وموضعه، ثم أجلسه في كل يوم، وأدخل عليه أشراف قريش والعرب وعلية

---

(١) الفتوح لابن الأعثم ص ٤١٨ جـ ٧ ـ ٨.
(٢) نفس المصدر جـ ٧ ـ ٨ ص ٤٢٠.
(٣) اسمه سليمان بن سليم بن كيسان مولى كليب.

الناس، وأطيبوا لهم الطعام وعجلوا بالغداء، فمن أحب بعد الغداء أقام، ومن أحب أن ينصرف فإن للناس حوائج.

وأدخل عليه أهل الفقه والدين، فإنهم إذا خرجوا من عنده فرآهم الناس ظنوا أنه مثلهم وإن لم يكن مثلهم.

ولا يدخل عليه أهل الفسق والدعارة وشراب الخمر، فإنهم إذا خرجوا فرآهم الناس ظنوا أنه مثلهم، وإن لم يكن مثلهم.

وإذا سمعت منه الكلمة الحسنة فنبه القوم لها فلعلهم لم يفطنوا لما جاء به، وفطنت لاهتمامك بأمره. لأنهم إذا خرجوا أذاعوا ذلك عنه، وإذا سمعت منه الكلمة العوراء فاصمت عنها فلعل القوم لم ينتبهوا لها، فإذا خرجوا من عنده فانقله منها إلى غيرها وخبره بفسادها، ثم انظر إليه في بدنه فمره فليستن عرضاً، وليحلق شعره، وليقلم أظافيره، ولا يجعلن ثيابه طوالاً فإنها ثياب النوكي ولا سيما أبناء الملوك.

ولا تحملنه على شرح صغير فتبدو منه إليتاه فإن ذلك فعل الفساق، ولا تُجْلِسْه مع حشمه، فإنهم له مفسدة، وإياك والسوقة فإنهم أسوأ شيء آداباً.

وخذ خدمته باللين وطلاقة الوجه على بابه، والبشاشة بالناس والتألف لهم وإذا أعطيتهم فأعطوا حملة القرآن وحملة العلم وأهل الفضل فإنكم تؤجرون على تقريبيهم ويحمدكم الناس على عطيتهم إلا أن يكون في سبب تجده أو وسيلة تكون لأحدهم تعصي ذمامه.

وابسطوا أيديكم بالفضل ووجوهكم بالبشر، فإنكم ملوك والناس سوقة، وإنهم يطأون أعقابكم بسارع الفضل ولين الجناح، ولا يخرجن إلا معتماً، ولا يركبن محذوفاً ولا مهلوباً.

ولا يعقدون له ذنب دابة إلا في أبق، ولا يسيرن ملتفتاً ولا طامحاً. وإياك أن تكتم عيبه فيؤدي إليَّ ذلك غيرك، فأنزل لك عما يسرك إلى ما

يضرك، فما قصر عن شيء مما أمرته بـه في أدبه، أو تقـاعس عنه لكثـرة في نفسه وقدره.

فأدخل عليه بعض أهله حتى يجره برجله إلى مجلس أدبه، خـذه بهذا كله وزده من عندك ما استطعت فإني ثبت عقله اليوم أو بعد اليـوم، فإن رأيتـه ازداد خيراً إلى ما كان عليه رُئي أثر أمير المؤمنين عليك، وإن كـانت الأخرى فلا تلم إلا نفسك، وقد أجريت لك في كل شهر ألف دينار][1].

كتاب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدِّب ولده [سهل]:

أمـا بعد فـإني اخترتـك على علم لتأديب ولـديَّ، فصرفتهم إليـك عن غيرك من مواليَّ وذوي الخاصة بي.

فَخُذْهُمْ بالجفاء فهو أمعنُ لاقدامهم، وتركِ الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة،وقلةِ الضحك فإن كثرته تميت القلب.

وليكن أولَ ما يعتقدون من أدبك بُغْضُ الملاهي التي بدؤها الشيـطان، وعـاقبتها سخط الـرحمن، فإنـه بلغني عن الثقات من أهـل العلم أن حضـور المعـازف[2]، واستماع الأغـاني واللّهج[3] بهـا ينبت النفاق في القلب، كمـا ينبت العشب الماء، ولعمري لتوقي[4] ذلك بترك حضور تلك المـواطن أيسر على ذي الذهـن من الثبوت على النفاق في قلبه، وهو حين يفارقهـا لا يعتقد بما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به.

وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت من قراءته.

فـإذا فرغ تنـاول قوسـه ونبله، وخرج إلى الغَـرَض حافيـاً فـرمى سبعـة

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر لبدران جـ ٦ ص ٢٧٩ جـ ٦.
(٢) الملاهي.
(٣) المثابرة عليه.
(٤) الابتعاد.

أرشاق[1] ثم انصرف إلى القائلة[2]. فإن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول [يا بني قيلوا فإن الشياطين لا تقيل][3].

---

(١) نوع من الرمي.
(٢) القيلولة وهي النوم بعد الظهر.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٥٧.

الرحلة في طلب العلم

«والرحلة في طلب العلم تعتبر من أهم مميزات جهود المسلمين في هذا المجال، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال دراسة الآلاف من العلماء في هذا العصر، فقد ارتحل هؤلاء إلى مناطق نائية سعياً وراء العلم والمعرفة غير مبالين بما يعترضهم من مشقة وعناء، وجهد ونفقة، بجانب متاعب السفر وصعوبته ومخاطره في ذلك الوقت وما يكتنفه من عراقيل وبطء في وسائل المواصلات، وما يتطلبه ذلك من استعدادات وتجهيز القوت، ويبدو أن الطلبة كانوا يعتمدون على أنفسهم أثناء رحلاتهم العلمية إلى الأقطار البعيدة قال الخطيب [ولو كان حكم المتصل والمرسل واحداً لما ارتحل كتبة الحديث وتكلفوامشاق الأسفار إلى ما بعد الأقطار، للقاء العلماء والسماع منهم في سائر الآفاق][1].

«وكان طلبة العلم أثناء رحلاتهم يعملون من أجل توفير النفقة، ويدرسون ويتلقون عن الشيوخ، ويجتمعون بالعلماء في المساجد والمدارس المنتشرة في العالم الإسلامي آنذاك، فكانت رحلاتهم العلمية بجانب المتعة في تحقيق الهدف، هي عناء ومشقة يواجهها الطالب بعيداً عن أهله، وهكذا كان علماء الفقه يرحلون إلى البادية ويختلطون بقبائل العرب يقيدون اللغة وقواعدها وينقلون الشعر والأدب. ورحل علماء الحديث إلى الأمصار المختلفة، يروون الحديث ويقيدونه، ويتابعون سماع ما لم يتيسر لهم سماعه في بلدانهم، يقول

(١) الحياة العلمية في العراق ص ٢٤٤، الخطيب في علم الرواية ص ٤٠٢.

ابن الصلاح [إذا فرغ من سماع العوالي والمهمات التي ببلده فليرحل إلى غيره»][1].

[إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم فعليك به وذلك لأمرين:

١ - إن على قدر كثرة الشيوخ تكون حصول الملكة ورسوخها لما في ذلك من تكرير المباشرة والتلقين بحسب تعدد لقائهم[2].

٢ - إن تكرر الأخذ عنهم يفيد المتعلم تمييز الاصطلاحات، لما يرى من اختلاف طرقهم فيها بمجرد العلم عنها، وتحقق أنها أنحاء تعليم وطرق توصل، لا أنها جزء منها، كما يعتقده كثير[3].

فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[4].

عن مالك بن دينار رضي الله عنه: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: أن اتخذ نعلين من حديد، عصا من حديد، ثم اطلب العلم واصبر، حتى تخرق نعالك، وتكسر عصاك[5].

قال ابن العربي: وهو أول من رحل في طلب العلم، من أهل الشرائع[6].

- أما الأدباء فإنهم يديمون ترحالهم في نواحي العراق وأقطار الدول

---

(١) الحياة العلمية في العراق. وابن الصلاح علوم الحديث ص ٢٢٢.
(٢) بدائع السلك وفي طبائع الملك جـ ٢ ص ٣٧٠.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.
(٥) نفس المصدر.
(٦) نفس المصدر.

الإسلامية الأخرى، يأخذون عن أدبائها ويفيدون من شراحها ونقادها، وقد رحل الجغرافيون المسلمون إلى مختلف أصقاع العالم الإسلامي يسجلون مشاهداتهم ويقيدون أحوال الناس والبلدان، وعاداتهم وتقاليدهم، ويصفون حضارتهم ويقدمون تفصيلات موسعة عن بلادهم، طرقها ومسالكها وأوديتها وجبالها ومدنها وقراها.

كان أصحاب الحديث أنشط الطلاب على الرحيل في طلب العلم، وأصبرهم على عنائه، وكان أساتذتهم وشيوخهم يحثونهم عليه، فقد استشار الخطيب البغدادي أستاذه أبا الطيب الطبري (المتوفي عام (٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م) فأشار عليه بالتوجه إلى الشرق ذلك أن الصحابة تفرقوا في الأمصار أثناء الفتوح، فمنهم من استقر ببلاد العراق، وآخرون بالشام، ومنهم من ساكن بلاد فارس وخراسان ومنهم من استوطن مصر وبلاد الغرب، وكان هؤلاء يحملون الأحاديث عن الرسول ﷺ وقد تلقاها التابعون، ثم تابعوهم من بعدهم، فكان في كل مصر طائفة من الأحاديث انفردت بها عن الأمصار الأخرى، فجد علماء الحديث في الرحلة يأخذون الأحاديث عن أهلها بعد أن يتحروا عنهم، ويتأكدوا من درجة عدالتهم، وهكذا فإنهم يجمعون ما تفرق منها وطال لإدراكهم أهمية ذلك ومكانته في الشريعة ما ذلل لهم جميع الصعاب التي واجهتهم، وما كابدوه من مشاق السفر وأخطاره التي يعجز المرء عن وصفها»[1].

وهكذا فإن المشاق والأخطار لم تقف حائلاً دون تنفيذ الرحلات التي ملأت نتائجها وأخبارها بطون الكتب، فقد حملهم دافع العقيدة وحب العلم إلى آفاق بعيدة، وقلما وجدنا في هذا العصر من أصحاب الحديث والقراءات من لم يرحل في طلب العلم، بل إن منهم من قطع آلاف الأميال، والتقى بمئات الشيوخ من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، مروراً ببغداد مرتع العلم وملتقى العلماء[2].

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك. ج ٢ ص ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك. ج ٢ ص ٣٦٠ وما بعدها.

ولعلّ خير مثال على ذلك: يوسف بن علي بن جبارة المغربي أبو القاسم الهذلي (المتوفي سنة ٤٦٥ هـ - ٧٢) المقرىء الجوال الذي أجهد نفسه كثيراً في طلب العلم والقراءات والذي رحل من أقصى جنوب المغرب إلى بلاد الترك، ودرس خلال رحلته على مائة واثنين وعشرين شيخاً موزعين في مراكز العلم المختلفة في كل من القيروان وفاس وطرابلس ودمياط واللاذقية، والرملة وبيت المقدس وعسقلان وصيدا وصور وبيروت والمعرة وحران وآمد والجزيرة والموصل وبغداد والأنبار وواسط والأهواز وشيراز وكرمان وأصفهان ونيسابور»[1].

- أما الحافظ محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي (المتوفى سنة ٥٠٨ هـ - ١١١٤ م) فقد كان أحد الرحالين في طلب الحديث، وسمع بمصر والشام والجزيرة والثغور والعراق وفارس الجبال وخوزستان وخراسان والحجاز[2].

- أما طاهر بن عبد الله بن طاهر أبو الطيب الطبري (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ - ١١٥٥ م) فقد سمع بجرجان ونيسابور وقدم بغداد وسمع على عدد من علمائها»[3].

- ومن هؤلاء هبة الله بن المبارك بن موسى السقطي (المتوفى سنة (٥٠٩ هـ - ١١١٥ م)[4].

المحدث الرحال الذي سمع ببغداد وواسط والبصرة والكوفة والجبال والموصل وأصفهان. والحافظ المحدث أبو الفرج يوسف بن أحمد بن يحيى الشيرازي (المتوفى ببغداد عام (٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م) الذي طلب الحديث بالحجاز والشام وفلسطين وديار بكر والجزيرة وأذربيجان وبلاد الروم والعراق

(١) بدائع السلك في طبائع الملك جـ ٢ ص ٣٧٠ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر. وعيون التاريخ جـ ١٢ ص ٢٥.
(٣) نفس المصدر وتاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣٥٨.
(٤) نفس المصدر وتاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣٥٨.

والأهواز وفارس وكرمان وخراسان وبلاد ما وراء النهر»[1].

- والحافظ المحدث أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (المتوفى عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م) الذي رحل في طلب العلم إلى البصرة ونيسابور وأصبهان وهمذان والجبال والشام ودمشق وصور ومكة المكرمة، وكان من رواد الحديث في الإسلام، وقد صنف الكثير من كتب الحديث[2].

- هذا وقد قطع بعضهم آلاف الأميال، وتردد على العديد من المدن من الأصقاع، وكانوا يقضون السنين وهم دائبون على لقاء الشيوخ والأخذ عنهم، ويمكن القول بأن مما كان يساعدهم في رحلاتهم هذه مساعدة الشيوخ لهم إضافة إلى وجود المدارس النظامية وغيرها من المدارس المنتشرة في البلاد خلال هذه الفترة، حيث كان طلاب العلم يقيمون فيها بالإضافة إلى إقامتهم في الخانات والفنادق (٣).

لم تقتصر الرحلات على طلاب الحديث، إنما شملت طلاب العلوم الأخرى، فالعلامة والرحالة والمحدث موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (المتوفى سنة ٦٢٩ ه - ١٢٣١ م) خرج من بغداد في رحلة علمية برع من نتيجة ما تحصل منها في شتى أصناف العلوم والمعارف، وكان نتائجها ذلك الإنتاج العلمي الضخم الذي صنفه والذي بلغ أكثر من ١٧٣ مؤلفاً بين كتاب ومقالة صغيرة، تناول فيها صنوفاً شتى من المعارف والعلوم. وقد دامت رحلته أكثر من عام رجع بعدها إلى مسقط رأسه، بغداد حيث توفي فيها»[4].

---

(١) ابن الفوطي مجمع الآداب جـ ١ ص ٤٦٠.

(٢) المنتظم جـ ٨ ص ٢٦٥.

(٣) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ١١، جـ ١٠ ص ٣٧٢، جـ ١٢ ص ٣١٣.

(٤) عيون الأطباء ص ٦٨٣.

ونظراً لأهمية الرحلات العلمية في تاريخ المسلمين التعليمي، فلقد صنف فيها عدد من العلماء كالخطيب البغدادي المتوفى عام (٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م)[١].

وأبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج البناني الأندلسي (المتوفى عام ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م). وهكذا فقد اعتبرت الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة فريد كمال في العلم، والسبب في ذلك أن البشرية يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون من المذاهب والآراء والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها[٢].

- والملاحظ أنه منذ نشأة المدارس في العالم الإسلامي وانشارها منذ منتصف القرن الخامس الهجري، بدأت الرحلات في طلب العلم تتركز نحوها، فكان طلبة العلم يقصدونها للاستفادة من شيوخها وعلمائها في مختلف العلوم والفنون. ومن الجدير بالملاحظة أنه قد أصبح للرحلة في طلب الحديث أهداف وآداب وشروط خاصة بها خلال هذا العصر[٣].

- الترغيب في الرحلة لطلب العلم:

١ - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»[٤] رواه مسلم وغيره.

٢ - وعن زر بن حُبَيْش قال أتيت صفوان بن عسّال المرادي رضي الله عنه قال: ما جاء بك؟ قلت أَنْبطُ العِلَم، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من خارج، خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضىً بما يصنع»[٥] رواه الترمذي وصححه ابن ماجه.

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ١٥ وما بعدها.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٩.

(٣) الرحلة في طلب الحديث ص ١٦ وما بعدها.

(٤) الترغيب والترهيب ص ١٠٤.

(٥) الترغيب والترهيب ص ١٠٤.

٣ - وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يُعلمَ كان له كأجر حاج تاماً حجته»[١] رواه الطبراني.

٤ - ورُوي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما انتعل عبد قط، ولا تخفف، ولا لبس ثوباً في طلب العلم إلا غفر الله له ذنوبه حيث يخطو عتبة داره»[٢] رواه الطبراني.

٥ - وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع [٣] رواه الترمذي وقال حديث حسن.

آداب الرحلة العلمية:

وهي أصول ينبغي مراعاتها حتى تؤتي الرحلة ثمارها وتتحقق أهدافها أياً كان العلم الذي يرحل فيه الطالب ونجمل لك أهمها فيما يأتي:

١ - أن يقدم السماع من علماء بلده على الرحلة للآفاق، فهو أيسر وأقل كلفة، وأمكن له من التثبت مما يسمع وتدوينه وضبطه ومراجعة ما يشكل منه، ولا يستخفنَّ طالب العلم بأساتذة بلده شأن بعض الغافلين يرى أحدهم الدرهم في بيت جاره خيراً من الدينار في بيته، فإذا فرغ من التلقي عن علماء بلده عزم على الرحلة وسلك سبيلها[٤].

٢ - حسن اختيار أماكن الرحلة، بأن تكون عامرة ببعض العلماء أو الفضلاء ممن يفاد منهم وكان العلماء يعتنون بذلك ويستشيرون فيه. عن أحمد بن حنبل رداً على سؤال له حول عمن يرى أن يكتب الحديث؟ فقال له: أخرج إلى أحمد بن يوسف فإنه شيخ الإسلام[٥].

---

(١) الترغيب والترهيب ص ١٠٤.
(٢) الترغيب والترهيب ص ١٠٥.
(٣) الترغيب والترهيب ص ١٠٥.
(٤) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٩.
(٥) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٩.

٣ ـ أن يهتم بكثرة المادة العلمية المتلقاة، وكثرة المسموع مما ليس عنده من الأسانيد والمتون ويقدم ذلك على الاستكثار من الأساتذة. قال الحافظ بن حجر في شرح النخبة: ثم يرحل فيحصل في الرحلة ما ليس عنده، ويكون اعتناؤه بتكثير المسموع أولى من اعتنائه بتكثير الشيوخ][١].

٤ ـ أن يعتني بالمذاكرة مع المحققين لتمكين التعمق في العلم، وذلك بأن يحضر ما توصل إليه من آراء أو علاج لمشكلات العلم، فيلقيه على أهل التحقيق والدقة ويعرض عليهم ما وقع له من إشكال، فيكسب بذلك آراء جديدة تزيده تمكناً وتعمقاً، أو تزيل ما وقع له من أشكال، وهي فائدة هامة يكمل بها العالم ويسمو[٢].

٥ ـ مراعاة الآداب العامة في السفر:

وهي مطلوبة من كل مسافر خصوصاً صاحب الرحلة لطلب العلم، أو لتحصيل شيء من خصال الخير فهو أحرى بمراعاتها وأجدر، ومن أهمها المداومة على الطاعات والعبادات وذكر الله تعالى والسخاء بالمال، ثم تحمل متاعب السفر والطريق والصبر على الرفاق[٣].

فوائد الرحلة:

أ ـ التمكن من الجوانب العملية:

وذلك أن الإنسان يتأثر ببيئته ومحيطه، وقد تتحكم فيه المألوفات التي عاش بينها، فإذا رحل إلى بيئة أخرى ألفى مشاكل جديدة تبحث، أو آراء جديدة في مسائل سبق له أن درسها، فيتسع أفقه واجتهاده، بدراسة الجديد من المسائل أو الجديد من الآراء، وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى تغيير في آرائه واجتهاداته بعد أن كان سار عليها زمناً لايحيد عنها[٤].

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٩ وما بعدها.
(٢) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٩ وما بعدها.
(٣) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٩ وما بعدها.
(٤) الرحلة في طلب الحديث. ص ٢٩ وما بعدها.

وقد أبان ابن خلدون هذه المزية في فصل خاص مختصر نسوقه بنصه وهو: أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم، وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقي أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها[1].

والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل وتُنهِضُ قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات، وتصحح معارفه، وتميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين، وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم[2].

وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[3] ».

٢ ـ نشر العلم الذي حصله العالم:

وذلك أن العالم كثيراً ما ينبغ في بلد يضيق عن حمل نبوغه، لعدم توفر الكفاءات أو لقلة اهتمام البلد بهذا الفن أو الاختصاص، فيرحل إلى مدينة تكون أوسع مجالاً للآراء الخطيرة، أو أشد حاجة، فتعظم مكانته، ويكثر الانتفاع بحكمته، ولولا الرحلة لما عظم شأنه، ولما كثرت ثمرات نبوغه، وهذا الشيخ العز بن عبد السلام مر عند خروجه من الشام بالكرك فتلقاه صاحبها وسأله الإقامة

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٤ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

عنده، فقال له الشيخ: «بلدك صغير عن علمي» وتوجه إلى القاهرة[1].

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو آدبه وانتشاره في الآفاق.

قال الأديب أبو بكر المعروف بابن بقي :

ولي هممٌ ستقذف بي بلاداً نأت إمّا العراق أو الشّآما
لكيما تحمل الركبان شعري بوادي الطلح أو وادي الخُزاما
وطُولُ مُقامِ المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ لِديباجَتَيْـهِ فاغتَـرِبْ تَتَجَدَّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زِيدَتْ محبةً إلى الناسِ أنْ ليسَت عليهم بِسَرْمَدِ

٣ ـ اتساع الثقافة العامة:

وذلك لكثرة احتكـاك الإنسان بـالجديـد عليه من النـاس وما لـديهم من عادات وثقافة وحكم وأمثال ونوادر، فيتأثر بذلك، وينطبع في نفسه حتى تتكون لديه من كل رحلة ولقاء فائدة أو يحفظ كلمة أو نكتة، أو تقع له حادثة طريفة، فيحفظ ذلك كله ويصبح له زاداً يجتذب إليه الناس بالحديث عنه، وفي الناس حب التـطلع لأخبار غيـرهم ومعرفـة ما لم يـألفوه من أحـوالهم، لذلـك احتـل الرحالون مراكز الصدارة في المجالس، واجتذبوا الناس إليهم، بما يحكون من أنباء رحلاتهم العلمية[2]. . .

٤ ـ تنمية الفضائل والكمالات في النفس:

وقد كان هذا غَرَضاً يرحل إليه الراحلون، يقصدون أهل الفضل للتـأسي بأحوالهم وصفاتهم.

قـال الإمام العـالم الحافظ الـزاهد أحمـد بن فرح الإشبيلي في «الإمـام

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٤ وما بعدها.
(٢) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٤ وما بعدها.

محيـي الدين النووي: الإمام محيـي الدين قد صار إلى ثلاث مراتب، كل مرتبة لو كانت لشخص لشدت إليه الرحال: العلم، والزهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

٥ ـ كسب صداقات جديدة:

والصداقة الخاصة من ألذ ما يتمتع به الإنسان في الدنيا، وقد ذكر الله تعالى من نعيم الحب أن متعهم بمحبة بعضهم بعضاً [ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ إخوانا][2]. وما أحسن قول الشاعر الحكيم أبي تمام[3]:

وطُولُ مُقامِ المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ ... لِـديباجَتَيْـهِ فـاغتَـرِبْ تَتَجَـدَّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زِيدَتْ محبةً ... إلى الناسِ أنْ ليسَت عليهم بِسَرْمَدِ

أهداف الرحلة عند المحدثين:

١ ـ تحصيل الحديث:

«ولعل هذا أول أسباب الرحلة، خصوصاً في عهود الإسلام الأولى، ومنه جاءت رحلات الصحابة ثم التابعين وهكذا ...

وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم تفرقوا في البلاد، ومع كل واحد منهم علم حمله عن النبي ﷺ، وإن كان هناك عدد منهم نستطيع أن نقول إنهم كانوا يحملون جملة الحديث وهم الذين كان الخلفاء يرسلونهم إلى البلاد دعاة ومعلمين، مثل عبد الله بن مسعود في العراق، وأبي الدرداء في الشام[4]...

ثم انتشر علم الصحابة في تلامذتهم التابعين وتفرق بينهم، فاحتاج

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ٢٤، وما بعدها.
(٢) سورة الحجر من الآية ٤٧ .
(٣) ديوان أبي تمام ج٢ ص٢٣ (طبعة دار المعارف ـ تحقيق محمد عبده عزام).
(٤) الرحلة في طلب الحديث ص ١٧.

العلماء إلى تحصيل الحديث من صدور حملته، استكمالاً لعلم السنة النبوية، وقد ضرب المسلمون في ذلك مثلاً عالياً، وبلغوا شأواً عزيز المنال، حتى رحلوا في طلب الحديث الواحد[1].

٢ - التثبت من الحديث:

وهذا كان مقصد أبي أيوب رضي الله عنه، في رحلته من المدينة المنورة إلى مصر ليتثبت من حديث سمعه من النبي ﷺ لم يبقَ أحد سمعه غيره وغير عقبة بن عامر[2]. . .

٣ - طلب العلم في السند:

والعلو هو قلة عدد الوسائط في سند الحديث مع اتصال السند، ويحصل العلو بأن يسمع المحدث حديثاً من راوٍ عن شيخ موجود، فيذهب المحدث إلى ذلك الشيخ ويسمعه منه، وهكذا يقل عدد وسائط النقل في السند[3].

وللعلو فائدة عظيمة هي أنه يبعد الإسناد من الخلل، لأن كل رجل من رجاله قد يحتمل أن يقع من جهته خلل في النقل، فإذا قلت الوسائط تقل جهات الاحتمال للخلل، فيكون علو السند قوة للحديث[4]. . .

قال أبو العالية: كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم[5].

٤ - البحث عن أحوال الرواة:

وذلك لأن معرفة أداء الراوي للحديث كما سمعه هو المقصد الذي عليه مدار هذا العلم ومن أجله بذلت كل الجهود، ووضعت قواعد النقد، فكان لا بد

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ١٧ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) نفس المصدر السابق.

من تقصي أحوال الرواة وأخبارهم حتى يتميز مقبولهم من مردودهم[1].

٥ ـ مذاكرة العلماء في نقد الأحاديث وعللها:

وهو فن جليل يحتاج إلى عمق النظر وتقصي الأسانيد والروايات، لذلك قال العلماء إن التعمق فيه، وتحصيل الملكة العلمية لا يتم إلا بالمجالسة والمذاكرة ولقاء جهابذة الفن[2].

وكان سفيان بن عيينة بمكة يرحل إليه علي بن المديني من العراق للمذاكرة في ذلك. فقال ابن عيينة [يلومونني على حب ابن المديني والله ما أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني][3].

وكان الإمام أحمد بن حنبل يصلي من الليل مائة ركعة وأكثر، فإذا زاره يحيى بن معين اكتفى بالقليل من النافلة وجلس للمذاكرة مع يحيى، فقال له ابنه في ذلك؟ فقال: يا بني إن ما يفوت من النافلة يدرك، لكن إذا كان ما عند هذا الفتى لا يدرك[4]».

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ١٧ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.



نفقات التعليم

١ - عرض عام:

- لقد أنفق نظام الملك على إنشاء المدرسة النظامية ببغداد الكثير من الأموال، ويمكن تصور تلك المبالغ من خلال وشاية أعدائه لدى السلطان ملكشاه حين قالوا: [إن الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية][(١)]. [على أن أحد الباحثين المحدثين ذكر ما أنفق على إنشاء المدرسة النظامية ببغداد يقدر بمبلغ مائتي ألف دينار][(٢)].

- وكان نظام الملك ينفق على ذلك الكثير من الأموال، فقد بلغت نفقاته على النظاميات والتكايا والربط من ماله الخاص مبلغ ستمائة ألف دينار][(٣)].

- كانت المدرسة النظامية أولى المدارس في ديار الإسلام اهتماماً بمنسوبيها في دراستهم وفي معاشهم وسكناهم ومتطلباتهم، ومنذ عهده أصبحت عادة جارية في أغلب المدارس، فكان الطلبة يتسابقون إلى الإقامة في المدرسة النظامية في بغداد، لما توفره من علم ميسر وانقطاع إلى الدروس وجرايات دائمة «فقد خصص لطلاب العلم وظائف مرتبه» «وأجرى على المتفقهة لكل واحد منهم أربعة أرطال خبز في كل يوم» وعليه فقد توافد الطلاب إليها من أرجاء

---

(١) الجامعة المستنصرية: مقالة مجلة المقتطف مجلد ٣١ جـ ١١ ص ٨٧٤ سعيد نفيس، والمدرسة النظامية في بغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٣ جـ ١ ص ١٤٧.

(٢) الطرطوشي: سراج الملوك ص ٢٣٨.

(٣) الحياة العلمية في العراق بالعصر السلجوقي ص ٢٦٦.

العالم الإسلامي حتى بلغ عددهم الآلاف وكان نظام الملك ينفق عليهم الكثير من الأموال «ففي سنة (٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م) دخل نظام الملك مدرسته فجلس بها وأملى الحديث وسمع عليه وسأل عن علماء بغداد فلم يبقَ من يشار إليه، وفرق الخلع والمال في الفقهاء وأحسن إليهم، وكان يهتم اهتماماً كبيراً بالعلماء والمدرسين، فقد أجرى عليهم وقرر لهم المشاهرات الدائمة[1].

ولقد كان على الصبي في بعض الأحيان أن يعلم نفسه على نفقته الخاصة، فكان الطالب يدفع أجراً مقابل ما يتعلم منه والأمثلة:

ابن الزجاج النحوي تعلم على يد العالم اللغوي المبرد كل يوم بدرهم، وابن الزَّجاج النحوي علم أولاد بني مازن كل شهر بثلاثين درهماً، ثم أن محمد ابن الحسن الشيباني أنفق على تعلمه الحديث والفقه والنحو نحو ثلاثين ألف درهم، لهذا نجد أن العديد من العلماء والفقهاء والأدباء نبغوا وهم من طبقات فقيرة كأبي العتاهية، فقد كان خزافاً، وكان أبو تمام يسقي الناس بالجرَّة، وكان أبو يوسف قاضي القضاة زمن الرشيد في صباه قصاراً[2].

إلا أن الدولة كانت تشجع على التعليم وتدفع في ذلك الأموال، فمنذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تدل الروايات على أنه أمر لمن يحفظ القرآن ويتعلمه برزق جار[3]، وهذا يدل على اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب بكتاب الله وتشجيعه على حفظه، وعدم إهماله، وبعث الخليفة عمر بن عبد العزيز من قبله وفوداً من العلماء لتعليم أبناء البادية وتفقيههم في أمور الدين، وأجرى على تلك البعثة الأرزاق الجارية.

وفي زمن هارون الرشيد وضع سلم الرواتب لطلبة العلم، وكان على النحو التالي:

---

(١) الحياة العلمية في العراق بالعصر السلجوقي ص ٢٦٨.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الأموال لابن سلام ص ٣٣٣.

١ ـ من جمع القران وأقبل على طلب العلم، وعمر مجالس العلم يكون راتبه ٢٠٠ دينار[١].

٢ ـ من جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر فيه يكون راتبه ٤٠٠٠ دينار[٢].

تلك النصوص تدل على تشجيع الخلفاء وولاة الأمر على طلب العلم، ولم يكن ذلك في مدارس أو معاهد رسمية منظمة، وإنما كان من خلال أماكن التعليم الآنفة الذكر، ويجب ألّا ننسى أن كثيراً من الفقهاء والعلماء كان يلقي دروسه أمام طلابه لوجه الله تعالى لا يريد على ذلك جزاء ولا شكوراً[٣].

أما قيام المعاهد العلمية بترجمة الكتب إبان الدولة العباسية فقد ظهر الاهتمام بذلك جلياً وأول من أنشأ بيت الحكمة في بغداد الخليفة هارون الرشيد، وأنفق الأموال الطائلة على العلماء للترجمة والتأليف، وقد ازدهر بيت الحكمة إبان خلافة المأمون فعمل على تهيئة السبل وتذليل المصاعب أمام حركة الترجمة والتأليف، وأنفق على ذلك الأموال الطائلة، وعين كثيراً من المترجمين والنقلة والنساخ والقائمين على خدمة بيت الحكمة، ولعل أبرز من اشتهر بالترجمة والاهتمام بالناحية العلمية، بنو موسى بن شاكر فلقد برز موسى بن شاكر في عصر المأمون، وسطع هو وبنوه الثلاثة [محمد وأحمد وحسن]، في سماء العلم، ونبغوا في الرياضيات وخاصة الهندسة والفلك وكذلك في الفلسفة، واهتموا بترجمة الكتب اليونانية، وقد تحدثت المصادر عن اجمالي رواتبهم وصلاتهم، ولكنها لم تفصل في ذلك، فقد بلغ إجمالي رواتب ومدخولات محمد بن موسى بن شاكر في السنة ٤٠٠,٠٠٠ دينار»[٤].

وبلغت رواتب ومدخلات أحمد بن موسى بن شاكر في السنة ٧٠,٠٠٠

---

(١) الإمامة والسياسة جـ٢ ص ١٥٧.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الحياة العلمية في العراق بالعصر السلجوقي ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٤) ابن القفطي أخبار العلماء ص ٧٨٧.

دينار، ولقد خصص بنو موسى بن شاكر جزءاً من أموالهم للنفقة منه على أشهر المترجمين وهو حنين بن إسحق، فكانوا يدفعون له في كل شهر /٥٠٠/ دينار وكانوا يدفعون ٥٠٠ دينار في الشهر لجماعة أخرى من المترجمين ومن أشهر المترجمين في عهد المأمون حنين بن إسحق، وقد خصص له المأمون راتباً شهرياً مقداره ٥٠٠ دينار، علاوة على ذلك تذكر بعض المراجع أنه كان يأخذ من الذهب زنة ما ينقل من الكتب إلى اللغة العربية(١).

وخصص المأمون راتباً شهرياً لحُبيش بن الحسن، ولثابت بن قرة الحراني مقداره /٥٠٠/ دينار لكل واحد منهما(٢).

وقد بلغ إجمالي ما أنفقه المأمون على ترجمة الكتب اليونانية ٣٠٠,٠٠٠ دينار. وفي عهد المعتصم، كان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات يهتم بأمور دار الحكمة ويشرف عليها في بغداد مع العلم أن دار الخلافة انتقلت إلى سر من رأى، فقد خصص الزيات خلال وزارته للمعتصم وللواثق مبلغاً شهرياً قدر بألفي دينار»(٣).

غير أن مجرد انتقال دار الخلافة إلى سر من رأى حصل فتور في حركة الترجمة بسبب عدم اهتمام الخليفة المعتصم بالله بذلك، مع أن الدراسة والترجمة مستمرة، والأرزاق تصرف بانتظام ولكن سرعان ما عاد النشاط من جديد إلى بيت الحكمة، إذ عمل الواثق على رعاية العلم، واحتضان العلماء، فحضروا مجالس المناظرة بين الفلاسفة والمتطببين وأجاز المتفوقين بالصلات ووجه الواثق عناية كبيرة للترجمة، وبرز يوحنا بن ماسويه ولمع نجمه، فأغدق عليه الواثق الصلات، حتى قيل منحه من الدراهم ما ملأ به ثلاثة أكياس(٤).

---

(١) الحياة العلمية في العراق بالعصر السلجوقي ص ٢٦٨، وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) جلال مظهر حضارة الإسلام ص ٢٦٣.

(٤) الحياة العلمية في العراق بالعصر السلجوقي ص ٢٦٨.

وقد خصص المتوكل لحنين بن اسحق راتباً شهرياً مقداره ١٥,٠٠٠ درهم، وأهداه ثلاثة قصور بما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والكتب، وأقطعه بعض الإقطاعات، كما وهبه ثلاثة من الخدم من الروم، هذا عدا ما اسبغه على أهله من الأموال والإقطاعات[١].

وقد أجرى الخليفة المعتز لجعفر محمد البلخي (أبي معشر)[٢] راتباً شهرياً مقداره ١٠٠ دينار و٣٠ ديناراً للضيافة و ١٠٠٠ دينار صلة[٣].

وفي عهد الخليفة المعتضد اهتم بأمور التعليم وخصص لذلك دوراً ومساكن، رتب في كل موضع رؤساء كل علم أو مذهب من مذاهب العلوم النظرية أو العلمية وأجرى عليه الأرزاق السنية»[٤].

وهو هنا عمل على فصل العلوم عن بعضها الآخر، ليصير كل من اختار علماً أو مذهباً رئيس ما يختاره فيأخذ عنه[٥].

ويبدو أن معدل رواتب العلماء زمن المعتضد ١٠٠ دينار، ويظهر ذلك من خلال مقدار ما كان يتقاضاه الزَّجاج النحوي، إذ كان يأخذ ثلاثة رواتب مجموعة مع الفقهاء راتب، ومع العلماء راتب، ومع الندماء راتب مجموعها شهرياً مبلغ ٣٠٠ دينار[٦].

وفي خلافة المقتدر، استمر الاهتمام بطلاّب العلم، فكان يجري الأرزاق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين، أكثرهم مائة دينار، وأقلهم خمسة دراهم في الشهر[٧].

---

(١) الحياة العلمية في العراق بالعصر السلجوقي ص٢٦٨ .

(٢) أبي معشر: رئيس المنجمين في دار الخلافة زمن المعتز، اهتم بامور النجوم والحساب، وكان من قبل ذلك بعد أصحاب الحديث توفي في واسط سنة ٢٧٢ هـ - (الفهرست لابن النديم ص ٣٨٦).

(٣) الفرج بعد الشدة ص ٩٢.

(٤) المقريزي الخطط حـ٣ ص ٣١٤.

(٥) النفقات وادارتها في الدولة العباسية ص ٣٥٥ - ٣٦٢.

(٦) النفقات وادارتها في الدولة العباسية ص ٣٥٥ - ٣٦٢ وما بعدها.

(٧) نفس المصدر السابق.

وفي سنة ٣١٢ هـ أمر بأن يصرف لطلاب الحديث ٢٠,٠٠٠ درهم، ولطلاب الأدب ٢٠,٠٠٠ درهم وكان يجري ذلك سنوياً، وكان الخليفة الراضي يكرم العلماء ويقربهم ويحترمهم، ويبذل لهم العطايا، ويخصص لهم الجرايات(١).

ولا بد من الإشارة إلى أن ما كان يصرف على الفقهاء المحدثين وغيرهم من الاختصاصيين في العلوم المختلفة لا يمثل نهاية المطاف بالنسبة لما تتحمله الدولة، فقد كانت تهيىء المكتبات وتنفق كثيراً في توفير الكتب للدارسين، ولا بد للباحث أن يدخل في اعتباره أسعار الورق والأحبار والأقلام والنسخ والتجليد، وما إليها مما يضيف إلى مسؤولية بيت المال مبلغاً إضافياً لا تقدم المصادر تفصيلات عنه، وبذلك نرى الخلفاء وقد عملوا على تذليل المصاعب على الناس في سبيل المطالعة والدرس في بيت الحكمة الذي أنشىء لنشر العلوم والمعارف، التي رغب جل الخلفاء في نشرها بين الناس ليقفوا على حقائق الأمور وما غاب عنهم فهمه(٢).

كتاب هارون الرشيد إلى ولاة الأمصار يطالبهم بتشجيع العلم وأهله:

[فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألف دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث والفقه في العلم فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء واسمعوا قول فضلاء عصركم وعلماء دهركم، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، وهم أهل العلم](٣).

---

(١) النفقات وإدارتها في الدولة العباسية ص ٣٥٥ وما بعدها.

(٢) النفقات وإدارتها في الدولة العباسية ص ٣٥٥ وما بعدها.

(٣) د. عصام الدين عبد الرؤوف: الحوافز الاسلامية الكبرى ص ٢٤٥.

دور الوقف في الانفاق على التعليم :

من خلال نموذجين لحجتين وقفيتين نتبين أهمية الوقف في الانفاق على التعليم :

١ ـ نموذج من حجة وقفية للمدرسة المرجانية في بغداد[1]:

(تبدأ الوقفية فوق المحراب ضمن كتيبة يعلوها عقد مدرب)

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم

٢ ـ الحمد لله [رب العالمين] الذي وفق المطيعين لعمارة أبنية بيوت العبادات وألهم المخلصين باشادة أعمدة دور الطاعة ورفع الذكر.

٣ ـ الولاة بتأسيس قواعد معالم المكرمات، ودلَّ أرباب السعادات على سلوك سبل الخيرات ومنح المحسنين بتشريف أن الحسنات يذهبن السيئات، وحباهم الله بماله، إن المتصدقين والمتصدقات.

٤ ـ والصلاة على نبي الرحمة محمد المصطفى خير الأنام وأصحابه مصابيح الدجى وبدور الظلام، أما بعد فيقول المفتقر إلى عفو الملك المنان مرجان بن عبدالله بن عبد الرحمن ـ بدل الله سيئاته حسنات إني هاجرت.

٥ ـ في الأرض مدة وجاهدت سنين في الطول والعرض ذات شمال ويمين متورطاً في مخاوف البر والبحر حين أداني الجد الصاعد، وأدناني التوفيق المساعد. فعلمت أن الدنيا دار الضراء وأن الآخرة دار القرار، وأيقنت أن أولى.

٦ ـ ما أُنفقت فيه الأموال، وأحرى ما توجهت إليه همم الرجال ما كان وسيلة إلى أبواب رحمته محط الرحال، وذخيرة ليوم المحاسبة والسؤال قال النبي عليه الصلاة والسلام: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث،

---

(١) حضارة العراق جـ ١٠ ص ٣٤٣.

صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعـو له، والصـدقة الجـارية، هي الوقف فشمرت عن نية صادقة، وسريـرة للخير وافية وشرعت في عمـارة هذه المـدرسة المشهـرة بالمـرجانيـة وتوابعها المتصـلات بهـا بعضهـا بـالبعض في زمان.

٧ ـ هي لوقف فشمرت عن نية صادقة وسريـرة للخير وافيـة وشرعت في عمـارة هذه المـدرسة الشهيـرة بالمـرجانيـة وتوابعهـا المتصلات بهمـا بعضهـا بالبعض في زمان المخدوم الأعظم الدارج إلى جوار الله وجنـاته المستـريح على أعلى غرفات جناته شيخ حسن نويان أنار الله برهانه وتمت في أيام دولته .

(وتستمر على يسار المحراب)

١ ـ نور حدقته ونور حديقته المخدوم.

الأعـظم الأعـدل رافـع رايـات السلطة على الأفـلاك، نـاصب غـايـات المملكة إلى

٢ ـ الشمال ساحب ذيـل الرحمـة على الأعراب والأتـراك محيي مراسم الله المصطفوية مزين شعر الدولـة الجنكيزخـانية شيـخ شاه أويس [خلد الله ملكه، ووقف الفقهاء، وطـلاب العلم والتفسير والحـديث والفقه على مـذهبي الإمام الأعظم محمد بن ادريس الشافعي المطلبي.

٤ ـ والإمام الأقدم أبي حنيفـة نعمان بن ثـابت الكوفي رضي الله عنهمـا ووقف على مصالحهما كما شرع في الوثيقة الموقعة بتوقيعات قضاة.

٥ ـ الإسلام والموشحة بشهادات الأمراء والوزراء والعظماء.

ـ بالريحانيين أربعـة وأربعين دكـانـاً واثنتي عشـر عصـارة في السـوق الجديد.

(التكملة في الجهة المقابلة للنص الواقع يسار المحراب)

١ ـ للمدرسة والصناعة وتسعة وعشرين دكانا أخرى وثلاث خانات ونصف خان إحداهن إنشاء الواقف، ومواضع بالبدرية وبالأمشاطين.

٢ ـ ثلاثة دكاكين، وبالمشرعة أربعة عشر دكاناً وخاناً فيه إنشاء الواقف، تقبل الله منه صالح الأعمال وبالحلبة ثلاثة عشر دكاناً وعصارة وخاناً.

٣ ـ اثنتان وخمسون حجرة وبالجانب الغربي بمحلة القصر داراً ومداراً وخاناً يعرف بالجواري وبالخليلات، خان الزاوية ومداراً هي الآن من حقوق.

٤ ـ الخان المذكور، وبالحريم دكان كاغد أي مخزن لبيع الورق، وبنهر عيسى ناحية عقرقوف ونصف القايمية وتل دحيم وبساتين بالمخرمية، وبساتين بقرية الترك والجوبة وقراح الجاموس.

٥ ـ وبالصراة مزرعة وبالقاطون ناحية رادمان وبجلولاء من خاناباد النصف ومن بساتين ببعقو باوببوهرز وبخانقين دوري والنصف زرين جوي (أي النهر الذهبي).

التكملة في الكتيبة المقابلة للمحراب

١ ـ وأرحية الماء ونعمتا بادود ولتاباد.

٢ ـ وبساتين بالبندريجين وبستان جديد ببوهريز انشاء الواقف ونهر خرما باد وسائر أراضيها ومزارعها.

٣ ـ المدعو هزار نشته وذلك بين جبل حمرين وخانقين وقفاً صحيحاً شرعياً مؤيداً مخلداً محرماً بجميع ما حرم الله به مكة والبيت الحرام والركن والمقام لا يزال ذلك.

٤ ـ كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، لا يندرس بكرور الأعصار، ولا ينطمس بمرور الأدوار لا يؤجر من متغلب ومتعزز وجندي ومن يخالف غائلته بل يؤجر من رجل مسلم معامل بمكان الوالي.

٥ ـ على هذا الوقف من مرافعته بين يدي الحكام وقضاة الإسلام قادراً على أداء ما يتوجه عليه من ضمان الوقف ومن فعل ذلك فتلك الإجارة باطلة وتصرفه حرام سُحت ووصيتي إلى حكام كل زمن وعصر وأوان وإلى قاضي القضاة ببغداد أن يساعد الوالي.

٦ ـ على هذا الوقف وعلى استخلاص الحقوق الواجبة لوقف هذه المدرسة، وأن ينظروا إليهم بنظر الرحمة والرأفة فإن الحاكم العادل في رعيته كالوالد الشفيق على ولده ألا وكلٌّ من سنَّ سُنَّة حسنة كان له أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة ومن سَنَّ سُنَّة سيئةً فعليه وزرها.

٧ ـ ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة وألّا يتعرّضوا بمتولي هذا الوقف ومستوفيه ومشرفه من استرفاع حساب أو نصب وترتيب ولا يداخلوهم في ذلك بشبه من الشبه ولا يعقد بهذه المدرسة ديواناً لفصل القضايا الشرعية والبارغوجية فإن هذا الموضع موطن العلماء ومنزل الصلحاء فطوبى ثم طوبى لمن.

التكملة في الكتيبة الواقعة على يمين المحراب

١ ـ استجلب ترحماً لنفسه وويل ثم ويل لمن صاحبته اللعنة في رمسه، فمثل ما تعاملون في حياتكم تعاملون في مخلفتكم بعد مماتكم.

٢ ـ فإن المكافأة من الطبيعة واجبة كما تدين تُدان، وكما تزرع تحصد فإن الدنيا غدارة غرارة وإن طالت مدتها فما طالت وإن نال صاحبها ما نال.

٣ ـ ومن غيَّر شروط هذه الأوقاف أو تصرَّف فيها بخلاف ما شرطت في الوقفية فهو ظالم عند الله ألا لعنة الله على الظالمين وعليه لعنة الله.

٤ ـ والملائكة والناس «مأواه جهنم وبئس المصير» وأُلحق بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

٥ ـ وما ذلك على الله بعزيز «وشرط الواقف تقبل الله منه الحسنات ولا واخذه بما كسبت أيديه من السيئات أن لا يُسلِّم من أراضي الموقوفات.

(التكملة في الكتيبة المقابلة للنص الواقع على يمين المحراب)

١ ـ من النواحي والبساتين والبسوط وبالقرار الشمس شيئاً أصلاً ولا من المسقفات من الدكاكين والخانات والطواحين بالعرصة أبداً ومن فعل فحكمه باطل.

٢ ـ وشرطه مفسوخ وتصرف من تصرف فيها بهذه الشبهة حرام سُحت وفاعله مأثوم ملوم الخالق فمن بدله بعدما سمعه فإنما اثمة على الذين.

٣ ـ يبدلونه أن الله سميع عليم وكتب في شهور سنة ثمان وخمسين وسبعمائة والحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبي الرحمة.

٤ ـ وشفيع الأمة وكاشف الغمة النبي العربي الهاشمي القرشي المكي المدني سيد المرسلين ورسول رب.

٥ ـ العالمين وخاتم النبيين محمد النبي وعلى آله وصحبه الطاهرين الكرام المنتخبين البررة وسلم تسلم كثيراً.

إن الدارس لهذه الوثيقة التي نُحتت على الحجر لتبقى خالدة وشاهدة على دور الوقف في تمويل التعليم عند المسلمين ابتغاء وجه الله ومرضاته، وابتغاء عمل الخير والآخرة نتركها بدون تعليق.

كتاب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص لتكريم رجال الفقه:

انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فاعط كل رجل منهم مائة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه، من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله والسلام عليك].

وفي خبر آخر أنه كتب إليه أن: [مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث][1].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٠٣.

١ ـ نموذج من حجة وقفية للأشرف برسباي

١ ـ أوقاف خاصة بالجامع الأشرف (ورقة ١).

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم. وقف مولانا السلطان الأشرف برسباي جميع ما يأتي ذكره وهو:

١ ـ جميع المكان الكامل أرضاً وبناء بالقاهرة برأس الحريريين. وَوُصفَ ذلك وَحُدِّد.

٢ ـ وذلك جميع المدرسة بالجامع الأشرف.

٣ ـ وجميع الوكالة بخط الركن المخلَّق على يسرة السالك ذاهباً إلى مدرسة جمال الدين الأستادار والخانقاه الصلاحية وغير ذلك، بها مخازن سفلى وعليا عدتها ثمانية وخمسون مخزناً وبظاهر بابها الذي بالدرب الأصفر سبعة مخازن وبها طباق بعضها مطل على رحبها وبعضها على الدرب الأصفر وبعضها حبيس عدتها ثمانية وثلاثون طبقة. ومن حقوق الوكالة المذكورة مطلع به طبقة مطلة على رحبتها ووصف ذلك جميعه وحدّد.

٤ ـ وجميع المكان الكائن بخط الدُجاجيين بالقرب من الجامع الأقمر وهو الرَّبع والحوانيت. ووُصفَ ذلك وَحُدّد أيضاً.

٥ ـ وجميع المكان بخط الصنادقيين المجاور للمدرسة السيفية وهو الربّع وبه طباق علو الحوانيت السبعة. وَوُصِّفَ ذلك وحدّد أيضاً.

٦ ـ وجميع الحصة التي مبلغها النصف من بناء البئر الكائنة بجنينة الصلاحي ابن الكويز ببركة الحاجب بباب الشعرية. ووصف ذلك وحدّد أيضاً.

والحصة التي مبلغها النصف اثني عشر سهماً من جميع الطاحونة

والسـرجة بظـاهر باب الشعرية على يمنـة السـالك إلى باب البحر وغيره . ووصف ذلك وحدّد أيضاً.

٧ ـ وجميع الحاصل الكائن بخط الخراطين بالقـاهرة المحـروسة على يمنه السالك إلى الجامـع الأزهر ووصف ذلـك وحدّد أيضـاً. وجميع النصف من بناء الحوانيت الكـائنة بـالخراطين وعـدتّها ثمـانية (ورقـة ٢) ومن الطبـاق علوها وعدّتها تسعة متجاورة على الطريق. وحدّد ذلك ووصف أيضاً.

٨ ـ وجميع الحوانيت المتجاورة الكائنـة بخط الوراقين وعـدتها ستـة، والطباق علوها وعُدتها أربعة عشر طبقة متجاورة ومتطابقة ووصف ذلك وحـدّد أيضاً.

٩ ـ وقف الجـامع المـذكور بمـا يشتمل عليـه تفصيـل فصـل وبيّن في كتاب وقفه والأماكن المذكورة وقفها على ما يذكر بعد العمارة. فيصرف لستة مؤذنين حسني الأصـوات مبلغ ألف درهم ومائـة درهم فلوساً جـدداً مضروبـة مختومة معاملة الديار المصرية يومئذ أو ما يقوم مقامها من النقود.

ولرجل من أهل الخير والدين حافظ لكتاب الله العزيز ألف درهم أو ما يقوم مقامها يؤم الناس ويصـلي عـلى الـعادة وشرط فيه بمقتضى فصل بها بهامش الأصل أن يكون حنفياً عالماً بأحكام الصلاة محسناً للقـراءة. ولرجـل من أهل العلم والدين والخير عارف بطريق الوعظ يخطب بالناس أيام الجمع والعيدين ويؤم بهم بعد الخطبة مبلغ خمسمائة درهم.

ويصرف لرجل عالم بالأوقاف يتولى مباشـرة الأوقاف على العـادة مبلغ ثـلاث مائـة درهم. ولرجـل يخرج أمـام الخـطيب يـوم الجمعـة ويؤذن أمـام المؤذنين على العـادة مائـة درهـم. ولـرجـل من أهـل العلم حنفي مـوصـوف بـالديـانـة يكـون شيخـاً للصـوفيـة الآتي ذكرهـم على مـا جرت بـه العـادة في الطلبة وشيخهم في الخوانق مبلغ ثلاثة آلاف درهم.

ويصرف لخمسة وعشرين رجلاً من طلبة العلم الحنفية الموصوفين بالخير والدين والفقر وبالسوية بينهم سبعة آلاف درهم وخمسمائة درهم، لكل ثلاث مائة درهم من الفلوس في كل شهر (ورقة ٣) على أنهم يجتمعون هم وشيخهم المذكور كل يوم بعد صلاة العصر وتفرق عليهم الربعة الشريفة ويوضع المصحف الشريف بين يدي الشيخ المشار إليه ويقرأ كل منهم حزباً من تجزئة ستين حزباً ، فإذا فرغ من القراءة يقرأ قراءة الصفة الآتي ذكرهم ما سيذكر.

ويصرف لأربعة نفر حسنى الأصوات يجلسون مع الصوفية ويقرؤون ما شرط على كل من الصوفية. فإذا فرغوا من القراءة قرأ الأربعة صورة الإخلاص على العادة في ذلك، وإذا فرغوا ذكر واحد منهم شيئاً من كلام أهل الحقيقة ثم يدعوا على العادة.

ويصرف لرجل يقوم في خدمة شيخ المكان ويجتمع مع مباشريه إذا اجتمعوا في المكان لعمل مصلحة الوقف ومستحقيه ويوم النفقة وما جرت العادة به لأمثاله من الفلوس الموصوفة أربعمائة درهم.

ويصرف لرجل يتولى بسط سجادات الصوفية قبل الحضور وطيها بعده وتفرقة الربعة الشريفة على الصوفية على العادة ويبخر يوم الجمعة والمؤذنون على المئذنة على العادة مبلغ مائة درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لرجل من أهل الدين والأمانة يضبط غيبة أرباب الوظائف مبلغ مائة درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لخمس جوق كل جوقة ثلاث نفر من حفاظ القرآن العظيم، تقرأ كل جوقة بعد كل صلاة حزبين من القرآن العظيم على العادة ألف درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لرجل من حفاظ القرآن يقرأ في المصحف الشريف في كل يوم جمعة حزباً واحداً مبلغ مائة درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لرجل عارف بقراءة حديث سيدنا رسول الله ﷺ يقرأ البخاري من أول شهر رجب من كل سنة ويختمه في الشهر الأخير من شهر رمضان في كل شهر مبلغ مائتي (ورقة ٤) درهم.

ويصرف لعشرين يتيماً في كل شهر مبلغ ألفي درهم وفي كل سنة كسوة الشتاء والصيف تسعة آلاف درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لمؤدبهم في كل شهر ثلاث مائة درهم ويكون حافظاً للقرآن ومن أهل العفة والصيانة والدين مشهوراً بذلك يتولى تعليمهم على العادة. على أن من بلغ منهم وحفظ القرآن الكريم استبدل به.

وإن بلغ وقد بقي عليه اليسير فيستمر في المكتب إلى أن يكمل حفظ القرآن إذا رجى فلاحه وخيره ثم يستبدل به غيره. ويصرف لرجل من أهل الأمانة يتولى خزانة كتب العلم على العادة مبلغ ثلاث مائة درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لرجلين من أهل الخير والأمانة وطلبة العلم الشريف يكونان شاهدين بالوقف على العادة مبلغ ستمائة درهم من الفلوس الموصوفة بالسوية.

ويصرف لرجل عارف بنظم الحسابات ووضعها يكون عاملاً بالوقف على العادة في كل شهر اربعمائة درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لرجل يكون من أهل الدهقنة والمروءة يقيمه الناظر شاداً بالوقف على العادة في كل شهر خمسمائة درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لرجل يقيمه الناظر برداراً بالوقف على العادة مبلغ مائتي درهم من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لرجل من أهل الأمانة والحراسة يقيمه بواباً بالجامع المذكور على العادة في كل شهر اربعمائة من الفلوس الموصوفة.

ويصرف لرجل يسقي المسلمين بالسبيل على العادة في رمضان بعد المغرب إلى بعد عشاء الآخرة مبلغ خمسمائة درهم.

ويصرف لأربعة نفر فراشين على العادة مبلغ ثمان مائة درهم من الفلوس الموصوفة بالسوية.

ويصرف من ذلك في كل شهر لرجلين وقادين العادة على العادة اربعمائة درهم.

ويصرف (ورقة ٥) برسم علوفة أثوار الساقية وكلفة ثمن قادوس وغاشوش وطونس وغيره على العادة مبلغ ستمائة درهم.

ويصرف برسم الصهريج بالجامع الأشرفي في كل شهر مبلغ سبعمائة درهم وخمسين درهماً لتتمة ذلك في السنة مبلغ تسعة الآف درهم في ثمن ماء عذب من النيل المبارك من جريانه ما فيه كفايته إلى آخر السنة.

ويصرف في ثمن الزيت برسم الوقود على العادة مبلغ الفي درهم في كل شهر، وبرسم التوسعة في شهر رمضان في كل سنة على العادة مبلغ مائتي درهم وخمسمين درهم.

ويصرف لمن يتولى الكنس والرش أمام الجامع المذكور على العادة مبلغ ثلاث مائة درهم.

ويصرف لرجل من أهل الدين والأمانة يتولى استخراج ريع الوقف وقبضه وصرفه مبلغ ستمائة درهم.

ويصرف للناظر على الوقف على أن يتولى عمل مصالح الوقف ومستحقيه ومساعدة مباشريه ويتفقد أحواله ويجتهد في كف أسباب الضرر عنهم وتنمية ريع الوقف على العادة في ذلك المبلغ ألفي درهم.

١٠ ـ ومهما فضل بعد ذلك يتناوله الواقف لنفسه ما دام حيا ثم من بعده يكون الفاضل لمن يوجد من أولاده وأولاد أولاده ونسله وعقبه وذريته من الذكور والإناث من أولاد الظهر والبطن طبقة بعد طبقة تحجب العليا السفلى أبداً ما توالدوا.

يستقل به الواحد إذا انفرد ويشترك الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع ويستوي الذكر والأنثى. على أنه من توفي منهم وترك ولداً أو وَلَدَ ولدٍ أو أسفل من ذلك انتقل نصيبه إليه، فإن لم يترك أحدا ممن ذكر انتقل إلى من هو في درجته من أهل الوقف من الذرية فإن لم يكن فإلى أقرب الطبقات إلى المتوفى. وعلى أنه من مات منهم أجمعين قبل دخوله في هذا الوقف وترك ولداً أو ولدَ ولدٍ أو أسفل من ذلك وآل الوقف إلى حال لو كان المتوفى حياً لاستحق، قام ولده (ورقة ٦) وإن سفل مقامه في الاستحقاق. فإذا انقرضوا كان مصروفاً في مصالح الجامع على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده. وعند تعذر الصرف إلى الجامع يصرف إلى فقراء الحرمين الشريفين بالسوية وعند تعذره عليهما ـ والعياذ بالله تعالى ـ صرف إلى الآخر. فإن عاد امكان الصرف إلى الجهة المتعذر إليها صرف إليها، فإن تعذر الصرف إلى الحرمين وأمكن الصرف إلى الجامع صرف إليه فإن تعذر ذلك صرف للفقراء والمساكين أينما كانوا.

١١ ـ وشرط من توفي من أرباب الوظائف المذكورة وله ولد صالح لوظيفة والده قرره الناظر مكان والده فيها بمعلومه. فإن لم يكن له ولد قرر الناظر فيها أحداً من المترددين إلى الجامع من طلبة العلم الشريف المتصفين بالصفات المذكورة!

أولاً ويبدأ بالأسبق منهم في التردد فإن اشتركوا وتساووا في السبق قدم أفضلهم.

١٢ ـ وإن من غاب من أرباب الوظائف عن وظيفته شهراً كاملاً من غير عذر وهو مقيم بالقاهرة قطع واستبدل به غيره فإن غاب عنها أقل من شهر من غير

عذر قطع معلومه لجهة الوقف مع بقائه على وظيفته، فإن حج حجة الإسلام أجرى عليه معلومه مدة غيبته فإذا جاور قطع واستبدل به غيره. ومن حج نفلاً ولم يجاور قطع معلومه زمن الحج لجهة الوقف، فإن عاد أجرى عليه معلومه بشرط مباشرته الوظيفة. وإن لشيخ الصوفية وللصوفية المسامحة ثلاثة أيام من كل شهر، وأن يبطلوا حضور الدروس على جاري عادة الفقهاء بالديار المصرية أيام العيدين والتشريق والمطر المانع من الحضور ويجري عليهم معلومهم مدة البطالة.

وألا ينزل أحد منهم عن وظيفته بالجامع المذكور فإن نزل فلا يُمضى وينزل غير النازل والمنزول له.

١٣ ـ وإن (ورقة ٧) لا يؤجر بأقل من أجرة الوقف أكثر من سنتين ولا يدخل عقداً على عقد قبل مضي ما قبله ولا يؤجر بأقل من أجرة المثل ولا لمتجوّه[١]، ولا لأحد من أرباب الشوكة، ولا لمشهور بسوء المعاملة.

١٤ ـ وألّا يستبدل بشيء من الوقف ولو بلغ من الخراب ما بلغ، وتقطع جوامك المستحقين إلا المؤذنين والخطيب حتى يعمر الوقف فإن كان في الوقف ما يعمر به صُرف في العمارة ولا يقطع شيء من الجوامك.

١٥ ـ وأن يجري الماء من البئر المستأجرة إلى الفسقية بقيسارية بَكْتَمر الساقي في كل يوم للوضوء وغيره ما دامت في إيجار الوقف.

١٦ ـ وأنه جعل لنفسه الزيادة فيما قرره من الجوامك وفي أوقافه على الجامع ما يرى زيادته ويُنقص ما يرى نقصه ويغيره بحسب ما يراه ويعيد إن شاء ويستبدل به من شاء ولم يكن ذلك لأحد بعده.

١٧ ـ وأن يتعاهد كُتّاب الوقف في كل عشر سنين بالإثبات والتنفيذ على السادة القضاة ويصرف أجرة الموقعين على العادة وثمن أوراق وغير

(١) المتجوه : صاحب الجاه .

ذلك. وأن يتعاهد كُتّاب الوقف بالقـراءة في كل سنـة بحضرة شيـخ الصوفيـة والمستحقين ليحيطوا علماً بحال الوقف وشروطه.

١٨ ـ وجعل النظر لنفسه وله وأن يُسنده ويُفوضّه فإن مـات بغير إسنـاد ولا تفـويض أو أسند وفـوض وتعذر نـظر المسند إليـه كان النـظر للداودار بـالـديـار المصرية مع مشاركة الأرشد من أولاد أولاده وإن سفلوا على الشـرط المتقدم في الاستحقـاق يقدم الأرشـد فالأرشـد من الذكـور على الإناث. فـإن تعـذر واحد ممن جعل له النظر نظر من بقي من المشروط له النظر، فإن عاد الإمكان عـاد النظر إليـه، فإن تعـذر النظر لمن ذكـر كان النـظر» (ورقـة ٨) في ذلـك لحاكم المسلمين بالديار المصـرية. ويشهـد في تواريـخ آخرهـا يوم الثـلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وثمانمائة[١].

---

(١) حجة وقف الأشرف برسباي تحقيق أحمد دَراج ط المعهد الفرنسي بالقاهرة ١٩٦٣.

آراء بعض علماء المسلمين التربوية

آراء ابن الأزرق في طرق التعليم:

إن وجه الصواب في تعليم العلم وطرقاته أن يلقى للمتعلم على التدريج في مرات ثلاث:

١ ـ يلقى عليه أولاً مسائل في كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب فيه ، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ومراعاة قوة عقله واستعداده، حتى ينتهي إلى آخر الفن ومنذ ذلك تحصل له ملكة ضعيفة غايتها تهيئتهُ لفهمه وتحصيله[١].

٢ ـ يرفعه في التلقين على تلك الرتبة، باستيفاء البيان الخارج عن الإجمال، وإعلامه بما هناك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته[٢].

٣ ـ يرجع به، وقد شدا، فلا يترك عويصاً ولا مبهماً إلا أوضحه، وفتح له مقفله فيتخلص من الفن، وقد استولى على ملكته[٣].

قال: وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له وييسر عليه[٤].

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك ص٣٦٠ ج٢ .
(٢) نفس المصدر السابق
(٣) نفس المصدر السابق
(٤) نفس المصدر السابق

مخالفة صواب:

قال: وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين يغفلون عن طريق هذا التعليم بإلقاء المسائل المقدمة في أول وهلة، ثم مطالبة المتعلم بإحضار ذهنه في حلها، وحفظ ما تلقى منها، اعتقاداً أن ذلك مران على التعليم، وصواب فيه. فيخلطون عليه بإلقاء الغايات في المبادىء وقبل استعداده للفهم. فإن قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجياً، والمتعلم أول الأمر عاجز عن الفهم في الجملة إلا في الأقل، وعلى سبيل التقريب والإجمال، ثم لا يزال استعداده يتدرج بمخالطة مسائل ذلك الفن، وتكرارها عليه، والانتقاد فيها من التقريب إلى الإسهاب حتى تتملكه الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل وإذا ألقيت عليه الغاية في ابتدائه، وهو عاجز عن الفهم والوعي، وبعيد عن الاستعدادات كلٌ ذهنه، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عن قبوله، وتمادى في هجرانه فقال: وإنما أتى ذلك من صعوبة التعليم وسوئه[1].

وصايا نافعة للمعلم والمتعلم:

١ - ينبغي للمعلم أن يزيد المتعلم على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه، بحسب طاقته، وقبوله مبتدئاً أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها، حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويستولى منه على ملكة به ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصَّل ملكة ما، استعدَّ بها لقبول ما بقي، حتى يستولي على الغاية، وإذا خلط عليه الأمر، عجز عن الفهم، وأدركه الملل، وانطمس فكره، وآيس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم، والله يهدي من يشاء[2].

٢ - ينبغي له ألاّ يطول على المتعلم في الفن الواحد، أو الكتاب الواحد بتقطيع وتفريق ما بينهما لأنه ذريعة إلى النسيان، وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض لعسر حصول الملكة بذلك وإذا كانت أوائل العلم وأواخره

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك ص ٣٦٠ ج ٢.
(٢) بدائع السلك في طبائع الملك ص ٣٦٠ ج ٢

حاضرة عند الفكر، كانت الملكة الناشئة أيسر حصول وأحكم صبغة، لأن الملكة إنما تحصل بتتابع الفعل وتكرره وحتى تُنوسي الفعل، فالملكة الناشئة عنه كذلك، والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون[1] .

٣ ـ ينبغي ألا يخلط على المتعلم علمين معاً، فإنه حينئذٍ قل أن يظفر بواحد منهما،لتقسم البال، وانصرافه عن كل واحد منهما، إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معاً. ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة[2] .

قلت: من كلام ابن رشد الحكيم، مقرراً لهذا المعنى: من أحب أن يتعلم أكثر من شيء واحد في وقت واحد، لم يتعلم واحداً منهما. وقديماً وردت الوصية بذلك. وعن بعضهم أنه قال لمؤدب ولده: لا تخرجهم من علم إلى علم، حتى يحكموه، فإن اصطكاك العلم في السمع وازدحامه في الوهم، مضلة مغلقة للفهم[3].

٤ ـ إن مذاهب أهل الأمصار مختلفة في طرق تعليم الولدان وقيل بيان ذلك، فتعليم القرآن من شعائر الدين ومراسمه، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه لما يسبق به إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده[4].

إذ هو أصل التعليم المبني عليه ما يحصل بعده من الملكات. وذلك لأن تعليم الصغار أشد رسوخاً، وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول إلى القلوب كالأساس للملكات وعلى كل حال الأساس، يكون حال كل ما يبنى عليه، إذ تقرر هذا، فلأهل الأمصار الإسلامية في هذا التعليم طرق :

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٦٠ وما بعدها.
(٢) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٦٠ وما بعدها.
(٣) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٦٠ وما بعدها.
(٤) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٦٠ وما بعدها.
(٥) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٦٠ وما بعدها.

طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية

١ ـ طريقة أهل المغرب ومن تبعهم من قراء البربر:

وهي اقتصارهم على تعليم القرآن فقط، وأخذهم ذلك بالرسم واختلاف القراء فيه، من غير مزيد عليه من الحديث والفقه أو الشعر أو كلام العرب، إلى أن يحذق في ذلك قبل البلوغ ويعود إلى الشبيبه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعاً عن العلم بالجملة. وكذا في إذا راجع ذلك بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقوم، على رسم القرآن وحفظه من سواهم[1].

٢ ـ طريقة أهل الأندلس:

وهي تعليمهم للقراءة والكتابة من حيث هو، لكنه لما كان القرآن أصل بذلك، ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم، وخلطوا به رواية الشعر والترسيل، وحفظ قوانين العربية وتجويد الخط والكتابة. وعنايتهم به أكثر من الجميع، إلى أن يخرج عن حد البلوغ إلى الشبيبة، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر، وبرز في الخط والكتابة، وتعلق بأذيال العلم على الجملة، لو كان فيها سند لتعليم العلوم، ولكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في أفقهم، ولا يحصل لهم إلا ذلك التعليم الأول وفيه كفاية واستعداد، إذا وجد المعلم[2].

٣ ـ طريقة أهل إفريقية:

وهي خلط هذا التعليم بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم، وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم باستظهار القرآن، ووقوفهم على اختلاف روايات قرائه أكثر من سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك، وبالجملة فطريقتهم أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لاتصال سند طريقتهم بمشيخة أهل الأندلس

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٥٩ وما بعدها.
(٢) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٥٩ وما بعدها.

الذي جازوا عند تغلب النصارى على شرق بلدهم، واستقروا بتونس، وعنهم أخذ ولدانهم من بعد ذلك[1].

٤ ـ طريقة أهل المشرق:

وهي خلط التعليم كذلك فيما بلغ عنهم:

قال: ولا أدري بم عنايتهم منه، والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم في زمان الشبيبة، ولا يخلطونه بتعليم الخط، لاختصاص المنتصبين لتعليم قوانينه على انفراده،كسائر الصنائع، فلذلك لا يتداولونه في المكاتب. وإذا كتبوا لهم الألواح، فبخط قاصر عن الإجادة، ومن أراد تعلم الخط ابتغاه من أهل صنعته[2].

نقد طريقة تعليم أهل إفريقية والمغرب:

[فأما أهل إفريقية والمغرب، فأفادهم الاقتصار على القرآن، القصور عن ملكة اللسان جملة، لأن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة، لعجز البشر عن الإتيان بمثله، ولا ملكة لهم في غير أساليبه فلا ملكة لهم في اللسان، وحظهم الجمود على العبارات، وقلة التصرف في الكلام.

وربما أهل إفريقية أخف من أهل المغرب، لخلطهم في تعليم الولدان بعبارات قوانين العلوم، فيقتدرون على شيء من التصرف في الكلام الأول إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة، لنزول محفوظهم عن تلك العبارات[3].

نقد طريقة تعليم أهل الأندلس:

وأما أهل الأندلس، فأفادهم التفنن في التعليم بكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر، حصول ملكة، صاروا بها أعرف، في اللسان

(١) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٥٩ وما بعدها.
(٢) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٥٩ وما بعدها.
(٣) بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٣٥٩ وما بعدها.

العربي، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث، فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر حسب التعليم الكتابي، بعسر تعليم الصبا[1].

١ - إن كثرة التواليف في العلوم عائقة عن التحصيل:

قال: اعلم أن مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التواليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، ثم مطالبة المتعلم باستحضار ذلك، وحينئذٍ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج إلى حفظها كلها أو أكثرها، ولا يفي عمره بما كتب منها في صناعة واحدة، إذا تجرد لها، فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل[2].

مثال:

مطالبة المشتغل بالمذهب المالكي بكتاب المدونة[3] وما كتب عليها من الشروحات ككتاب ابن يونس[4]، واللخمي[5]، وابن بشير[6]، والتنبيهات

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك. ص ٣٥٩ .

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك. ص ٣٥٩ وما بعدها.

(٣) المدونة: في فروع المالكية لأبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم المالكي، المتوفى سنة ١٩١ هـ ويقول حاجي خليفة، وهي من أجل الكتب في مذهب مالك، وقد اعتنى بها المالكية مشرقاً ومغرباً، وقد وضع عليها القاضي عياض بن موسى اليحصبي المالكي تنبيهات سماها التنبيهات المستندة في شرح مشكلات المدونة والمختلطة علاوة على الشروح المتعددة عليها في المغرب بخاصة كشف الظنون ج ٢ ص ١٦٤٤ .

(٤) ابن يونس: هو محمد أبو بكر بن عبد الله بن يونس: هو محمد أبو بكر بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي. كان فقيهاً إماماً فرضيها ألف كتاباً في الفرائض وكتاباً جامعاً المدونة أضاف إليها غيرها من الأمهات، وعليه اعتماد القلم للمذاكرة وتوفي سنة ٤٥١ هـ. الديباج ص ٢٧٤ .

(٥) اللخمي: أبو الحسن علي بن محمد الربعي باللخمي القيرواني من كبار أئمة المالكية في تونس. له كتاب التبصرة وهو تعليق كبير على المدونة. توفي عام ٤٩٨ هـ. كشف الظنون ج ٣ ص ٢٢ .

(٦) ابن بشير: محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير: أصله من العجم وهو من موالي قريش، ومن =

والمقدمات[1]، وكتاب العتبية[2] والبيان[3]، والتحصيل، وكتاب ابن الحاجب[4]، وما كتب عليه مع احتياجه إلى تمييز الطريقة القيروانية من الطريقة البغـدادية، والمصـرية، وطـرق المتأخـرين عنهم والإحاطـة بذلـك كله، وحينئذٍ يسلم لـه منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والعمر ينقضي في واحدٍ منها.

ومثـال آخـر:

قد نصوا على قريب من هذا فاللمازري في تعقيبه على إحياء الغزالي، وقد قرر بأن التعليم لا بد فيه من مؤونة عظيمة، وهذه المدونة تشتمل على ستة وثـلاثين ألف مسـئلة ومـائتين، وليس في العصـر من يسـامـح المقتصـر عليهـا بالفتوى، ولا يصفه بإمامه أو الفتيا حتى يضيف إليها الاطـلاع على أمثال هـذه المسائل[5].

وقال ابن خلدون: ولو اقتصر المعلمون المتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان سهل وكان التعليم دون ذلك بكثير ومأخذه قريباً، ولكنه داء لا يرتفع لاستقراء الفوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا تتبدل[6].

مثـال آخـر:

كبار أصحاب سحنون وهو من أكبر أئمة المـالكية، أهم كتبـه: المجموعـة على مذهب مـالك وأصحابه، وكتاب التفاسير، وله أربعة أجزاء في شرح مسائل من كتب المدونة، وكتاب الـورع وفضائل أصحاب مالك، توفي ابن بشير عام ٢٦٠ هـ. الديباج ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(١) كتـاب المقدمـات: للقاضي أبي الـوليد محمـد بن أحمد بن محمـد بن رشيـد جـد الفيلسـوف المشهـور ابن رشد، وقـد اشتهر الجـد بالفقـه المالكي، وكـان من كبار رجـالـه واسم كتـابـه المقدمات لأوائل كتب المدونة توفي سنة ٥٢٠ هـ ـ ١١٢٦ م. الديباج ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) البيان والعتبية: أو المستخرجة هي للفقيه القرطبي أبي عبـد الله محمد العتبي بن أحمـد بن عبد العزيز ابن عتبة وقد اختلف في وفاته ما بين سنتي ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
والعتيبية من أهم كتب الفقه المالكي. الديباج ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) البيان والتحصيل على العتبية والتحصيل للقاضي أبو الوليد بن رشد الجد. الديباج ص ٢٧٩.

(٤) ابن الحاجب هو الإمام جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي المتـوفى سنة ٦٤٨ هـ وهـو صاحب المختصـر الأصلي والفرعي في الفقـه، وله الكـافية في النحو.

(٥) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ ٢ ص ٣٥٢.

(٦) نفس المصدر. جـ ٢ ص ٣٥٢.

مطالبة الناظر في العربية بكتاب سيبويه[1]، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين وطرق المتأخرين، كابن الحاجب[2]، وابن مالك[3]، والعمر ينقضي دون ذلك. . فلا يطمع أحد في الغاية منه إلا القليل النادر، لتشعبه بما ذكر، وصعوبته، هذا، وهي آلة ووسيلة، فكيف يكون الحال في القصد الذي هو الثمرة .

تنبيه :

تكثير التواليف لمريدها من طلبة العلم، لا يقال فيه أنه عائق عن التحصيل، بل هو كفيل بكماله. ومن ثم قال ابن حزم: الاستكثار من الكتب من دعائم العلم، إذ لا يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم، وقد كشف الخليل عن فائدة جمعها وغاياته، فقال: أقلوا من الكتب لتحفظوا، وأكثروا منها لتعلموا[4].

٢ ـ إن كثرة الاختصارات الموضوعية في العلوم مخلة بالتعليم :

ذهب كثير من العلماء المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، بوضع مختصرات مشتملة على حصر مسائلها وأدلتها، باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة، أو باختصار ما وضع من المطولات للتفسير

---

(١) سيبويه: أبو بشير عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه، مولى بني الحارث بن كعب وقيل آل الربيع بن زياد الحارثي، كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يؤلف فيه مثل كتابه، أخذ سيبويه النحو عن الخليل بن أحمد وعن عيسى بن عمرو يونس ابن حبيب وغيرهم، وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش. ويعرف مؤلفه في النحو باسم الكتاب واختلف في وفاته، ولكن الأرجح أنه توفي سنة ١٨٠ هـ، وعمره اثنتان وأربعون سنة. وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٥ .

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) ابن مالك جمال الدين أبو عبد الله الطائي الجهاني النحوي صاحب الكافية والشافية في النحو والمقدمة الأسدية في النحو.

(٤) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ ٢ ص ٣٥٤.

والبيان، تقريباً للحفظ، كما فعل ابن الحاجب في الفقه وأصوله، وابن مالك في العربية، والخونجي[1] في المنطق، وهو فساد في التعليم وإخلال في التحصيل[2].

وينشأ في هذا الإخلال بالنقاط التالية:

١ ـ أن فيه تخليطاً على المبتدىء بإلقاء الغايات إليه، وهو لم يستعد بعد لقبولها، وهو من سوء التعليم[3].

٢ ـ إن فيه مع ذلك شغلاً كبيراً على التعليم بتتبع الألفاظ العويصة للفهم، لتزاحم المعاني عليها، واستخراج المسائل من بينها، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد ذهاب حظ صالح من الوقت[4].

٣ ـ إن الملكة الحاصلة بعد ذلك كله من التعلم منها، إذا تم سداده، ولم تعقبه قاصرة عن الملكات الحاصلة من الموضوعات البسيطة، لكثرة ما يقع فيها من التكرار والإطالة المفسدين لحصول الملكة التامة[5].

إلى أن يقول: فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلم، فأركبوه صعباً، يقطعه عن تحصيل الملكات النافعة، وتمكنها، ومن يهدِ الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له[6].

آراء ابن الأزرق بالكتب:

١ ـ قال ابن الأكفاني: كتب العلوم لا تتحصر لكثرة العلوم، واختلاف

---

(١) الخونجي: هو محمد بن ناماروين عبد الملك الخونجي أبو عبد الله الفارسي الشافعي، من علماء المنطق والفلسفة المتأخرة وله من الكتب الموجز في المنطق، تولى قضاء مصر، ومات بالقاهرة ولد عام ٥٩٠ هـ ـ وتوفي ٦٤٦ هـ. الوفيات لابن منقذ ص ٣٢٠.

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ٢ ص٣٥٤.

(٣) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ٢ ص ٣٥٥.

(٤) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ٢ ص ٣٥٥.

(٥) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ٢ ص ٣٥٥.

(٦) نفس المصدر السابق.

الأغراض. في الوضع والتأليف، لكنها من جهة المقدار ثلاثة، مختصرة في لفظها، وجزء معناها.

وهذه تجعل تذكرة لرؤوس المشاكل، ينتفع بها المنتهي للاستحضار، وربما أفادت بعض المبتدئين الأذكياء، لسرعة جرأتهم، على المعاني من العبارات الدقيقة، ومبسوطة ينتفع بها للمطالعة، ومتوسطة لفظها بإزاء معناها ونفعها عام[1].

٢ ـ قال أيضاً: المصنفون المعتبرة تصانيفهم، فريقان:

أ ـ أحدهما: من له في التعليم ملكة تامة، ورؤية كافية، وتجارب وثيقة وحدس صائب، واستخبار قريب، وتصانيفهم عن قوة تبصرة ونفاذ فكر وسداد رأي، يجمع إلى تحرير المعاني بتهذيب الألفاظ، وهذه لا يستغني عنها أحد من العلماء، فإن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، بل لكل عالم ومتعلم منها حظ وهؤلاء أحسنوا إلى الناس، كما أحسن الله تعالى إليهم، زكاة عن علومهم، لبقاء الذكر في الدنيا، وجزيل الأجر في الآخرة[2].

ب ـ من له ذهن ثاقب، وعبارة طلقة، ووقعت له كتب جيدة جمة الفوائد، ولكنها غير أنيقة التأليف والنظم، فاستخرج دررها، وأحسن نظمها، وهذه ينتفع بها المبتدئون، والمتوسطون، وهؤلاء مشكورون على ذلك، شكر الله سعيهم[3].

٣ ـ شرط الشيخ الإمام أبو إسحاق الشاطبي في الانتفاع بمطالعة الكتب العلمية شرطين:

١ ـ تقدم فهم مقاصد علمها، ومعرفة اصطلاحاته. وقال: وذلك يحصل من

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ ٢ ص ٣٥٦.
(٢) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ ٢ ص ٣٥٦.
(٣) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ ٢ ص ٣٥٧.

مشافهة العلماء أو بما هو راجع إليه، إذ الكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئاً، دون فتح العلماء، كما هو مشاهد[1].

٢ ـ تحري كتب المتقدمين من أهل العلم المراد تحصيله، فإنهم أقعد به من المتأخرين.

قال: وأصل ذلك التجربة المشاهدة في أي علم كان، فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ فيه ما بلغه المتقدم، والخبر الدال على ذلك فمنه: خير القرون قرني، الحديث، وهو يشير أن كل قرن مع ما بعده كذلك. ثم ذكر من الأخبار ما يقتضي الإعلام بنقص الدين والدنيا، وأعظم ذلك العلم، فهو إذا في نقص بلا شك، فلذلك صار تحري كتب المتقدمين وكلامهم وسيرهم، أنفع لمن أراد الأخذ به للاحتياط في العلم، أي نوع كان، وخصوصاً علم الشريعة الذي هو العروة الوثقى والوزر الأحمى[2].

فقد حكى أبو الحسن الشاري في تاريخه عن بعض شيوخه: أنه كان يبالغ في الوصية بالاعتماد على كتب المتقدمين، حتى أنه كان لا يقتني كتابا من كتب المتأخرين.

وحكي عن ابن خروف[3] أنه كان لا يقرأ من كتب النحو حاشا كتاب سيبويه، ويرى أن يطرح ما سواه، كمفصل الزمخشري[4]، وكان يسمح في

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ ٢ ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك. جـ ٢ ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٣) ابن خروف: أبو الحسن علي بن محمد الحضرمي المعروف بابن خروف القرطبي الفقيه النحوي، أخذ على أبي بكر بن صافي وأبي عبدالله بن المجاهد وأبي اسحق بن ملكون، وكان اماماً في صناعة العربية، مشاركاً في علم الكلام وأصول الفقه، وله شرح على كتاب سيبويه. تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب، عول فيه على طراز ابن طاهر شيخه، وله شرح على كتاب الجمل للزجاجي، وله كتاب الفرائض. توفي في اشبيلية سنة ٦٠٩هـ ـ نفح الطيب جـ٢ ص ٦٤٠.

(٤) الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد عمر الخوارزمي، الزمخشري، الإمام الكبير في التفسير والنحو واللغة وعلم البيان، وقد عرف الزمخشري باسم صاحب الكشاف. والكشاف في تفسير القرآن العزيز، وله كتب متعددة في النحو اشتهر منها المفصل، وقد اعتنى بشرحه عدد من النجاة، وكان الزمخشري معتزلي العقيدة، ولد سنة ٤٦٧ هـ بزمخشر وتوفي سنة ٥٣٨ هـ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٥.

بعض الأوقـات في الأصـول لابن السـراج[1]، التبـصـرة المـنسـوبـة[2] للصيمري[3].

(1) ابن السراج، هو أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج من كبار النحويين والأدباء، أخذ الأدب عن العباس بن المبرد وأخذ عنه أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني وتصنيفه المشهور في النحو هو كتاب الأصول توفي ابن السراج سنة ٣١٦ هـ. وفيات الأعيان جـ٣ ص٣٣٩ .

(2) التبصرة في النحو: ذكرها حاجي خليفة فقال: التبصرة. . . للشيخ أبي محمد عبدالله بن علي الصَّيمري وعليه نكت لابراهيم بن محمد المعروف بابن ملكون الأشبيلي المتوفى سنة ٥٨٤ هـ. كشف الظنون جـ١ ص٣٣٩ .

(3) بدائع السلكِ في طبائع الملك جـ٢ ص٣٥٩ .

في بيان الرؤوس الثمانية في العلم: عند القنوجي

قالوا: الواجب على من شرع في شرح كتاب ما أن يتعرض في صدره لأشياء قبل الشروع في المقصود يسميها قدماء الحكماء الرؤوس الثمانية:

أحدها: الغرض من تدوين العلم أو تحصيله، أي الفائدة المترتبة عليه لئلا يكون تحصيله عبثاً في نظره»[1].

ثانيها: المنفعة، وهي ما يتشوق الكل طبعاً، وهي الفائدة المعتدة بها ليتحمل المشقة في تحصيله ولا يعرض له فتور في طلبه فيكون عبثاً عرفاً[2].

ثالثها: السمة وهي عنوان الكتاب ليكون عند الناظر إجمال ما يفصله الغرض[3].

رابعها: المؤلف، وهو مصنف الكتاب ليركن قلب المتعلم إليه في قبول كلامه والاعتماد عليه لاختلاف ذلك باختلاف المصنفين. وأما المحققون فيعرفون الرجال بالحق لا الحق بالرجال، ولنعم ما قيل[4].

خامسها: أنه من أي علم هو، أي من اليقينيات أو الظنيات، من النظريات أو العمليات من الشرعيات أو غيرها ليطلب المتعلم ما تليق به المسائل المطلوبة[5].

سادسها: أنه أية مرتبة هو، أي بيان مرتبته فيما بين العلوم إما باعتبار عموم موضوعه أو خصوصه، أو باعتبار توقفه على علم آخر، أو عدم توقفه عليه، أو

---

(١) أبجد العلوم جـ ١ ص ٨٥ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر. السابق.

باعتبار الأهمية أو الشرف ليقدم تحصيله على ما يجب، أو يستحسن تقديمه عليه ويؤخر تحصيله عما يجب، أو يستحسن تأخيره عنه[1].

سابعها: القسمة، وهي بيان أجزاء العلم وأبوابه ليطلب المتعلم في كل باب منها ما يتعلق به ولا يضيع وقته في تحصيل مطالب لا تتعلق به، كما يقال أبواب المنطق تسعة كذا وكذا[2].

ثامنها: الأنحاء التعليمية، وهي الأنحاء مستحسنة في طرق التعليم، أحدها: التقسيم، وهو التكثير من فوق إلى أسفل، أي من أعم إلى ما هو أخص، كتقسيم الجنس إلى الأنواع والنوع إلى أصناف، والصنف إلى أشخاص[3].

وثانيها: التحليل: وهو عكسه أي التكثير من أسفل إلى فوق أي من أخص إلى ما هو أعم كتحليل زيد إلى الإنسان والحيوان وتحليل الإنسان إلى الحيوان والجسم[4].

---

(١) أبجد العلوم جـ ١ ص ٨٥ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.

آراء الغزالي في التعليم

آداب العالم:

يشترط عند الغزالي في العالم «أي المعلم» ليصل إلى أهدافه الشروط التالية:

١ ـ أدبه مع نفسه وعلمه مع مراقبة الله تعالى:

وذلك بأن يقصد بتعليمه وتدريسه وتربيته وجه الله تعالى، فلا يبتغي من وراء ذلك غرضاً دنيوياً كتحصيل مال أو جاه أو شهرة أو سمعة أو وظيفة.

وأن يكون طليق الوجه، حليماً صابراً، نزيهاً ملازماً للورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع، مجتنباً للضحك الكثير، فإنه يميت القلب، مبتعداً عن كثرة المزاح فإنها تزيل الهيبة، مجتنباً كل الاجتناب عن الحقد والحسد والرياء والإعجاب بالنفس، واحتقار الناس وإن كانوا دونه بدرجات[١].

وينبغي أن يحافظ على مظهره الخارجي فيكون نظيفاً طيب الرائحة مهتماً بتنظيف الإبط والروائح الكريهة من جسمه، ومهتماً بتسريح شعر رأسه ولحيته ويلبس أحسن ثيابه فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»... فالعالم عزيز النفس، وإن كان قليل المال فلا يهين نفسه وعلمه في سبيل المال[٢].

٢ ـ أدبه في درسه واشتغاله:

ينبغي للعالم ألّا يغفل عن العلم والاستذكار، والاستحضار فيبقى مجتهداً مشتغلاً بالعلم قراءة وإقراءً، ومطالعة وتحقيقاً ومباحثة وتحقيقاً وتصنيفاً، ولا يألو جهداً في المزيد من المعلومات والتعمق في العلوم، ولا يستنكف من

---

(١) من كتاب أيها الولد للغزالي ص ٧١.

(٢) نفس المصدر السابق.

التعلم ممن هو دونه: قال سعيد بن جبير «لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك العلم وظن أنه استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون» وقال النووي رحمه الله: فقد كان كثير من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم[1].

٣ ـ أدبه مع تلامذته:

وذلك بأن يضعهم موضع أولاده فقد قال رسول الله ﷺ: [إنما أنا لكم مثل الوالد لولده] ينبغي أن يكون سمحاً مشفقاً عليهم معتنياً بمصالحهم، يعذرهم فيما لو بدا منهم شيء يفوح منه رائحة سوء الأدب ويحب لهم ما يحب لنفسه... ولا بد للعالم ألّا يفرق بين أولاد الفقير والغني فقد روى محمد بن سحنون بسنده عن سيف بن محمد قال: كنت جالساً عند سعد الخفاف فجاء ابنه يبكي فقال: يا بني ما يبكيك؟ قال: ضربني المعلم، قال: أما والله لأحدثنكم اليوم: حدثني عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: شرار أمتي معلمو صبيانهم أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين. فقد بين رسول الله ﷺ أن الشر يأتي إليهم من هذا الثغر، وإلا فإن معلمي الصبيان هم خيار الأمة، وهم ربانيوها كما فسر بذلك قوله تعالى: ﴿كونوا ربانيين...﴾[2].

ثم إن رسول الله ﷺ أجاز الضرب للصبي ثلاث درر[3] حيث قال: [أدب الصبي ثلاث درر] وقال ﷺ: «يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق»[4]:

وقال الإمام النووي في الحديث حول معاملة المتعلمين: «لينوا لمن تعلمون، ولمن تتعلمون منه» وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكني أصحابه إكراماً لهم»[5].

---

(١) أيها الولد للغزالي ص ٧١ وما بعدها.

(٢) نقلنا هذا الحديث دون التأكد من صحته ويبقى لذمة صاحب كتاب أيها الولد.

(٣) أيها الولد للغزالي ص ٧٤ وما بعدها.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

وقد وصى رسول الله ﷺ الكثير بطلبة العلم فقد روى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال ﷺ: «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحباً مرحباً بوصية رسول الله ﷺ واقنوهم أي علموهم»[1].

٤ ـ عدم أخذ الأجر على الدرس:

فالأولى للعالم أن يقتدي برسول الله ﷺ: فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولايقصد من ورائها جزاءً ولا شكوراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه قال تعالى: ﴿وَمَا أَسأَلُكُمْ عَلَيه مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ على رَبِّ العالَمِينَ﴾[2].

٥ ـ أدب النصح:

وذلك بأن يمنعه عن التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والاشتغال بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي وأن ينبهه على أن الغرض هو التقرب إلى الله تعالى لا المباهاة والرياسة والمنافسة، ويكون ليناً في نصحه وزجره[3]...

٦ ـ أدب التدرج معهم:

ينبغي للمربي أن ينظر بتعمق إلى تلميذه فيزن عقله وذكاءه وقوة إدراكه فيتدرج معه على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله اقتداء بسيد البشر حيث يقول: نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم. يقول الغزالي: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له شيخه بعد ذلك أن وراء هذا تدقيقاً وهويدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش على قلبه، ويوهم إليه البخل به عنه وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل، وحسن مع ذلك سريرته، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده[4].

٧ ـ الأدب مع الكتب:

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) سورة الشعراء الآية ١٠٩
(٣) أيها الولد للغزالي ص ٧٤ وما بعدها.
(٤) نفس المصدر السابق.

وقد اعتبر السلف الصالح الكتاب خير جليس للمرء فقد قيل لعالم: أما تستوحش، فقال: كيف أشعر بالوحشة وكل الإنس معي؟ فقيل: وما الإنس كله؟ قال الكتاب. فلأهمية الكتاب لا بد للعالم أن يعتني به ويحاول أن يجمع من كل فن ما يحتاج إليه، ولا سيما المصادر العامة الأصيلة فيشتري ويستعير وينسخ بيده كل ما يحتاج إليه، فسلاح العالم كتبه، روضته مكتبته ففيهما يرتع فكره ويسعد قلبه. وهناك أقوال كثيرة في تحبيب إعارة الكتب لأن فيها عوناً على الحفظ وعدم النسيان وأجراً عند الله(١) . . .

آداب المتعلم :

يشترط عند الغزالي في طالب العلم ليصل إلى هدفه الشروط التالية :

١ ـ طهارة الظاهر والباطن :

أما طهارة الظاهر فبأن يحافظ على الوضوء ونظافة جسمه ومظهره بقدر المستطاع.

أما طهارة الباطن فبأن يريد بعلمه وجه الله تعالى يقوم بتطهير نفسه عن الأخلاق الرذيلة والأوصاف المذمومة، لأن العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى، لا تصح الصلاة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأنجاس فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بتطهير الباطن، فطهارة العلم هو إزالة خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف.

يقول رسول الله ﷺ: إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» وإذا كانت الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه كلب فيكف ينزلون في القلب المليء بالأنجاس والخبائث والصفات الرذيلة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب. . . فهذه الصفات مثل الكلاب النابحة في الباطن. . فالقلب المظلم المشحون بالذنوب لا يستطيع استقبال الملائكة، ولا يكون فيه مكان للعلم الذي هو نور

---

(١) أيها الولد للغزالي. ص ٤٧ وما بعدها.

يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، فإصلاح القلب ضروري لمن يريد أن يفيد من علمه[1].

٢ ـ تفريغ القلب للعلم وقطع العلائق الشاغلة:

فطالب العلم لا يدرك مناه في طلب العلم إلا بتفريغ القلب للعلم وقطع العلاقات التي تشغله عنه والبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة قال تعالى: ﴿ما جَعَلَ الله لِرجلٍ مِن قَلبَين في جَوْفِه﴾[2] قال أبو حنيفة: ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة وقال الخطيب البغدادي: يستحب لطالب العلم أن يكون عزباً ما أمكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم[3].

٣ ـ أدبه مع شيخه وأستاذه:

لا يدرك العلم إلا بالتواضع، فعلى طالب العلم أن يكون متواضعاً ولا سيما مع شيخه وأستاذه فيكون مؤدباً وقوراً معه لا يتعدى حرمة مجلسه، وينظر إليه نظرة احترام وإجلال، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، قال الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال ابن عباس: هكذا تفعل بالعلماء والكبراء، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا يفعل بأهل بيت نبينا ﷺ.

فلا يجتمع التعلم مع الكبر، ولا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع[4].

ولا بد لطالب العلم ألّا يفرق بين شيخ مشهور، وآخر كامل غير معروف بل يأخذ عن الجميع[5] قال الغزالي: فالاستنكاف عن الاستفادة إلا من

(١) أيها الولد للغزالي ص ٤٧ ـ ٤٨. وما بعدها.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤.
(٣) من كتاب أيها الولد للغزالي ص ٤٩ ـ ٥٠.
(٤) من كتاب أيها الولد للغزالي ص ٤٩ ـ ٥٠.
(٥) من كتاب أيها الولد للغزالي ص ٤٩ ـ ٥٠.

المرموقين المشهورين هو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل فقد قال رسول الله ﷺ: الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجد المؤمن ضالته فليجمعها إليه»[1].

ومن أدبه مع أستاذه الصمت الكثير، والاستماع الشديد، والتسليم والصبر وعدم تكرار شيء فهمه عنده، وعدم الإكثار من الأسئلة التي قد فهم جوابها، وعدم المماراة حيث قال عمر بن الضحاك «لا أحب أن يحضر مجلسي مبتدع ولا طعان، ولا لعان، ولا فاحش، ولا بذيء ولا منحرف.. ويصون نفسه عن التلهي بغير الدرس ويحفظ يديه عن العبث والتشبك وعينه عن كثرة التقليب إلى هنا وهناك، وأن يتقي المزاح وكثرة الضحك[2].

٤ ـ اختيار أستاذ كامل في العلم والتقوى:

لا بد لطالب العلم أن يأخذ علمه ممن كملت أهليته وظهرت ديانته، وتحققت معرفته واشتهرت صيانته، ولا يكفي أن يكون كثير العلم فقط بل لا بد وأن يكون له دربة ودين وخلق جميل وذهن صحيح واطلاع تام[3].

٥ ـ أدبه في الاستفادة والتحصيل حيث يجب أن يكون لديه ما يلي:

أ ـ أن يصاحبه دائماً قلم ودفتر ليكتب كل فائدة يسمعها أو يستنبطها هو من خلال درسه وقد قيل العلم صيد والكتابة قيد[4].

ب ـ ألّا يصاحب الصديق السيء أو الكسلان[5].

جـ ـ التفرغ الكامل: ولا ينال العلم إلا فتى خالٍ من الأفكار والشغل[6].

ء ـ ترك الهموم: من الأمراض الفاتكة لذكاء الإنسان الهموم الكثيرة والتفكر بها[7]

---

(١) أيها الولد للغزالي ص٧١ وما بعدها.

(٢) أيها الولد للغزالي ص٧١ وما بعدها.

(٣) أيها الولد للغزالي ص٧١ وما بعدها.

(٤) أيها الولد للغزالي ص٧١ وما بعدها.

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر.

(٧) نفس المصدر.

هـ ـ النشاط في المدارسة والمراجعة والمناظرة: فقد كان الإمام إلكيا الهراسي يراجع درسه تسعين مرة وكان أبو يوسف يناظر الفقهاء وهو جائع لمدة خمسة أيام[1].

٦ ـ إتقان طريقة واحدة حميدة ثم التشعب:

لا بد أن يتدرج في العلوم واحداً بعد واحد، وينبغي أن يتقن الطريقة الحميدة المرضية لدى أستاذه ثم بعد ذلك يتشعب فيصغي إلى الخلاف والمذاهب والشبه حيث يقول الغزالي وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأي واحد، وإنما عادته نقل المذاهب، وما قيل فيها فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم[2].

٧ ـ عدم الاقتصار على علم واحد:

ولا بد لطالب العلم بعد أن أتقن بعض العلوم ألاّ يكتفي به، بل يحاول ليكون واسع الإطلاع مفهوماً ولا يشبع من الاستزادة في العلوم، فلا يدع فناً من العلوم النافعة إلاوينظرفيه نظراً عميقاً ليصل به إلى مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وأخذ طرفاً من كل العلوم لأن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض[3].

٨ ـ عدم الخوض في فن من الفنون دفعة واحدة:

وذلك بأن يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم فالأهم. فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بقدر المستطاع لكنه يتخصص في العلم الميسور لديه والمحبذ عنده. ولا يكلف نفسه في العلم الذي لا تتجه إليه نفسه وقلبه[4].

---

(١) أيها الولد للغزالي ص ٤٧ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) من كتاب أيها الولد للغزالي. ص ٤٧ وما بعدها.

(٤) من كتاب أيها الولد للغزالي. ص ٤٧ وما بعدها.

٩ ـ عدم تحقير أي علم من العلوم:

لا ينبغي له ـ أي لمن تعلم علماً شريفاً كالعلم المتعلق بالآخرة والكتاب والسنّة أو الفقه أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم، أعني علم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنّة وغير ذلك مما هو فرض كفاية على الأمة[١].

١٠ ـ أدبه عند درسه:

فيدخل في الدرس بكامل الهيبة، فارغ القلب من الشواغل، فيسلم على الحاضرين كلهم بصوت يُسمعهم ويخص الشيخ بزيادة إكرام، ثم يجلس حيث انتهى به المجلس ولا يتخطى رقاب أصحابه إلا أن يصرح له الشيخ أو الحاضرون بالتقدم والتخطي. ويجلس بأدب وتواضع ولا يرفع صوته، ويبكر في درسه[٢].

١١ ـ الحرص والمواظبة والخلق الكريم:

ينبغي لطالب العلم أن يكون حريصاً على التعلم مواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً حضراً وسفراً ويحافظ على أوقاته فلا يذهب منها شيء في غير العلم إلا بقدر الضرورة للأكل والشرب والراحة والرياضة... وينبغي له اختيار الأوقات والأماكن للحفظ والدرس قال الخطيب البغدادي، أجود أوقات الحفظ الأسحار، ثم نصف النهار، ثم الغداة، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع وأجود أماكن الحفظ الغرف وكل موضع بعيد عن الملهيات، وليس بمحمود الحفظ بحضرة البنات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق، لأنها تمنع غالباً خلو القلب[٣].

١٢ ـ الصبر والحلم والأناة:

لا بد لطالب العلم أن يكون صبوراً محتملاً أذى شيخه ـ إن كان ـ فيصبر

---

(١) من كتاب أيها الولد للغزالي. ص ٧٤ وما بعدها.
(٢) من كتاب أيها الولد للغزالي. ص ٧٤ وما بعدها.
(٣) من كتاب أيها الولد للغزالي. ص ٧٤ وما بعدها.

على جفاه ولا يصده ذلك عن ملازمته، بل هو يعتذر إليه ويلطف الجو بما يرضي شيخه بالمعروف. وأن يتأدب بالحلم ويحكي بالهدوء والأناة، فلا يوجد أدب أفضل من الحلم مع العلم، فقد قال عطاء بن يسار: ما أدى شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم»[1].

١٣ ـ طلب العلم من الصغر وعدم تركه في الكبر:

قال أبو عبيدة: تفقهوا وأنتم صغار قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم الأنفة عن الأخذ عمن هو دونكم فتبقوا جهالاً: وقال الشافعي: تفقه قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه، فوقت الصغر والحداثة هو من أحسن الأوقات للحفظ والتحصيل حيث يقول رسول الله ﷺ: من تعلم القرآن في شبيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه ومن تعلمه في كبره وهو يتفلّت منه ولا يتركه فله أجره مرتين[2].

١٤ ـ أدب الحفظ والمذاكرة:

وينبغي لطالب العلم أن يعتني بدرسه فيقوم بتحضيره ومراجعته ثم فهمه وهضمه بنفسه أو بواسطة شيخه، ويعتني بتصحيح درسه الذي يحفظه تصحيحاً متقناً على الشيخ، ثم يحفظه حفظاً محكماً، ويداوم على تكرار محفوظاته، ولا يحفظ من الكتب استقلالاً بل يصحح على الشيخ، فالاستقلال بذلك آخر المفاسد[3].

---

(١) من كتاب أيها الولد للغزالي. ص ٤٧ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.

كتاب حجة الإسلام الغزالي إلى ضياء الملك أحمد بن نظام الملك متولي المدرسة النظامية ببغداد، يعتذر فيه عن عدم استطاعته للعودة للتدريس بنظامية بغداد وذلك في سنة ٥٠٤هـ[١]

[بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله أجمعين. قال الله تعالى: ﴿ ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها، فَاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ ﴾[٢].

الخلق من جهة ما جعلوه قبلتهم ثلاث طبقات: عوام أهل غفلة، وخواص أولو كياسة، وخواص الخواص وهم ذوو البصيرة، أما أهل الغفلة فقد قصروا نظرهم على عاجل الخيرات، وظنوا نعيم الدنيا هو الخير الأكبر، وحسبوه أهل المال والجاه، فأقبلوا عليها، وعدوها قرة عين لهم. قال رسول الله ﷺ «ما ذئبان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً فيها من حب الشرف والمال في دين المرء المسلم»[٣]. لم يفرق أولئك الغافلون بين الذئب والصيد. ولم يميزوا بين العنزة والسَّخْلة، واصطفوا طريقاً أعوج، وزعموا أنه رفعة. قال رسول الله ﷺ ينبي بزيفهم هذا «تعس عبد الدينار. تعس عبد الدرهم»[٤].

أما الخواص، فقد أسلمتهم الكياسة والموازنة بين الدنيا والآخرة أن آثروا الآخرة على الأولى وهي خير وأبقى، والباقي أفضل من الفاني المنقضي. فمالوا عن الحياة الدنيا، وولوا وجوههم شطر الآخرة، ولكن قصر هؤلاء أيضاً، إذ لم يطلبوا الخير المطلق، وإن قنعوا بما هو أحسن من الدنيا[٥].

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي. ج ١ مجلد ٣، ١٩٥٤ م عن كتاب (غزالي نامة) للأستاذ جلال الدين الحمائي. جـ ١ طهران سنة ٢١٨.

(٢) سورة البقرة آية ١٤٨.

(٣) مجلة المجمع العراقي جـ ١ مجلد ٣، ١٩٥٤.

(٤) مجلة المجمع العلمي العراقي، جـ ١ مجلد ٣، ١٩٥٤.

(٥) مجلة المجمع العلمي العراقي، جـ ١ مجلد ٣، ١٩٥٤.

وأما خواص الخواص، وهم أولو البصيرة، فقد عرفوا أن ذلك ليس بالخير المطلق، وأن كل ما دونه من الآفلين، والعاقل لا يحب الآفل، ودروا أن الدنيا والآخرة مخلوقان، وأن أكثرها شهوة استوى فيها البهائم والأناسي. وهذه مرتبة لا تنبغي لهم. والله مالك يوم الدين، وله ملكوت الدنيا وهو خالقها، وهو خير وأعلى، وقد كشف عن هؤلاء غطاء قوله: ﴿والله خَيرٌ وأَبْقى﴾[1] واختاروا مقام ﴿في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مَليكٍ مُقتَدِر﴾[2] وآثروه على مرتبة ﴿إنَّ أَصحابَ الجَنَّةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكِهون﴾[3] بل أدركوا حقيقة لا إله إلا الله، وعرفوا أن الآدمي عبد ما قيد به نفسه، وأنه إلهه ومعبوده ﴿أفرأيت مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[4].. ومقصود كل نفس معبودها، لذلك قال رسول الله ﷺ: ﴿تعِسَ عبدُ الدرهم﴾[5] فمن كان مقصوده غير الله، فتوحيده غير تام، وهو من الشرك الخفي غير بريء، وقد قسم هؤلاء كل ما في الوجود قسمين متقابلين: الله، وما دونه. وهما ككفتي الميزان، جعلوا قلوبهم لسانه. فلما وجدوا طبعهم يميل طوعاً مع الكفة الراجحة، قالوا: قد ثقلت موازين الحسنات، وأيقنوا أن ما لم يوفه هذا القسطاس لا يزنه الميزان يوم الحساب[6].

وحال الطبقة الثانية عند الطبقة الثالثة، هو مثل حال الطبقة الأولى لدى الطبقة الثانية: عوام لا يفهمون قيلهم، ولا يدرون أن من نظر إلى وجه الله تعالى بالحقيقة حسن وجهه[7].

وقد دعاني صدر الوزارة ـ بلَّغهُ الله أعلى المقامات ـ من المحل الأدنى إلى المرتبة العلية، فأنا أدعوه من مقام الطبقة الأولى وهو أسفل السافلين، إلى أعلى عليين وهو مقام الطائفة الثالثة، قال النبي ﷺ: «من أحسن إليكم

---

(١) سورة طه آية ٧٣.

(٢) سورة القمر، آية ٥٥.

(٣) سورة يس آية ٥٥.

(٤) سورة الفرقان آية ٤٣.

(٥) الحياة العلمية بالعراق ص ٥٣٩ وما بعدها.

(٦) الحياة العلمية بالعراق ص ٥٣٩ وما بعدها.

(٨) نفس المصدر.

فكافئوه»[1]. وأنا لم أُصب سبيلاً إلى جزائه، ومكافأته فقد عجزت عن إسعافه بالإجابة، فلْيُهَيِّىء لي أمر السفر من حضيض درجة العوام إلى علو درجة الخواص، والطريق إلى الله واحدة من طوس وبغداد وسائر البلاد، ولكن بعضها أقرب من بعض. ولكن ليست تلك الطرائق الثلاث إلى الله تعالى سواء. ثم ليعرف حق المعرفة أنه لو ترك فرضاً من الفروض التي أوجبها الله تعالى، أو ارتكب ما حظره الشرع، أو لذَّ له النوم وفي البلاد مظلوم واحد يتململ من السقام، فما درجته إلا حضيض المقام الأول وهو من أهل الغفلة، أولئك هم الغافلون، لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون. أسأل الله تعالى أن يوقظه من نوم الغفلة لينظر في يومه لغده قبل أن يخرج الأمر من يده[2].

عدنا إلى حديث مدرسة بغداد، وعذر التقاعد عن امتثال إشارة صدر الوزارة،أما العذر فإن الخروج من الوطن لا يلتمس إلا ابتغاء زيادة دين أو طلب زيادة دنيا، أما الدنيا فقد زال طلبها من القلب والحمد لله تعالى. فإذا أتوا ببغداد إلى طوس وهيأوا أسباب الملك والمملكة للغزالي، وأسلموها إليه، والتفت إليها، كان ذلك من ضعف الإيمان، فالميل من نتائجه. وأما زيادة الدين فإنه يستحق الحركة والاطِّلاب، ولا ريب أن إفاضة العلم هناك أيسر، وأسبابه أوسع وطلابه أكثر، ولكن العذر أن السفر يوجب خللاً في الدين لا تسده هذه الزيادة، فإن ها هنا نحو مائة وخمسين محصلاً متورعاً مشغولون بالاستفادة ونقلهم وإعداد وسائلهم متعذر وتركهم وكسر قلوبهم والسفر لكثرة نظائرهم في مكان آخر لا رخصة فيه، مثل ذلك كمثل رجل يكفل عشرة أيتام ثم يعدل عنهم لتعهد عشرين في موضع آخر والموت والآفات في طلبه[3].

ثم إنني كنت فرداً لما دعاني الصدر الشهيد ـ نظام الملك ـ قدس الله روحه ـ إلى بغداد، لا أهل ولا بنون، وقد بليت بالأهل والولد ولا يجوز إغفالهم وكسر قلوبهم[4].

---

(١) الحياة العلمية بالعراق ص ٥٣٩ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

والقدر الثالث أنني نذرت لما وصلت إلى تربة الخليل عليه السلام سنة ٤٨٩ هـ أي قبل خمس عشر سنة تقريباً، ألا أقبل مالاً من سلطان أو سلطاني، وألا أخرج للسلام على سلطان أو سلطة وألا أناظر. فإذا نقضت هذا النذر ضاع الوقت، وانصرف القلب، ولم أستطع شيئاً من أعمال الدنيا والدين، ولا بد من المناظرة في بغداد، ولا مناص من السلام على دار الخلافة بها. وأنا لم أمثل للسلام على أحد في بغداد منذ رجعت من الشام، ولم أتصرف في أي شغل، واجتبيت الاعتزال وإذا توليت أمراً لم أستطع الحياة سالماً، فالباطن حينئذٍ ينكر الانزواء[1].

وأعظم هذه المعاذير أنني لا أقبل مالاً من السلطان، وليس عندي في بغداد ملك، وباب المعيشة موصد. وعند هذا الحقير ضيعة في طوس تكفي هذا الضعيف وأطفاله جميعاً بعد المبالغة في الاقتصاد والقناعة وإذا غبت، قصرت عن ذلك، وهذا المعاذير جميعاً دينية، وهي لدى جليلة، وإن ظنها أكثر الناس يسيرة[2].

وقد بلغت غاية العمر. وهذا ـ على كل حال ـ وقت الوداع للفراق، لا وقت سفر العراق، أؤمل من مكارم أخلاقك قبول هذا الاعتذار، نظن أن الغزالي قدم بغداد، وأتاه أمر الله ألا يجب اعداد مدرس آخر؟ فاعمل هذا اليوم، والسلام. زين الله تعالى صدر العالم تحقيق الإيمان التي هي وراء صورة الإيمان، ليعمر العالم به، والحمد لله حق حمده، وصلاته على نبيه وآله وسلم[3].

---

(١) الحياة العلمية في بغداد، بالعصر السلجوقي ٥٣٩ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الحياة العلمية بالعراق ص ٥٣٩ وما بعدها.

الآراء التربوية عند ابن سحنون:

لعل كتاب آداب المعلمين لابن سحنون هو أقدم كتب التربية العربية التي وصلت إلينا، ألفه الإمام المربي الفقيه سحنون، وهو عبارة عن رسالة لطيفة الحجم تقع في حوالي ١٥ صفحة من القطع الكبيرة تدور حول سياسة الأولاد وتعليم الصبيان يمكن إدراج أهم النقاط الواردة فيها:

١ ـ المنهاج الدراسي عند ابن سحنون[١]:

يتألف المنهاج الدراسي عند ابن سحنون من قسمين إلزامي وقسم اختياري:

أ ـ القسم الإلزامي: وهو القرآن الكريم وضرورة تعلمه مستشهداً بالآية الكريمة ﴿ ثمّ أَوْرَثْنا الذينَ اصطَفَيْنا من عبادِنا ﴾[٢].

ويتبع ذلك بالأحاديث النبوية التي تبين مكانة حامل القرآن وفضل تعلمه «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه» ﴿يرفع الله بالقرآن أقواماً﴾[٣].

«عليكم بالقرآن فإنه ينفي النفاق، كما تنفي النار خبث الحديد»[٤].

«من تعلم القرآن في شبيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه في كبره، يتفلت منه ولا يتركه فله أجره مرتين»[٥].

ينبغي أن يعلمهم إعراب القرآن، وذلك لازم، والشكل والهجاء والخط

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها.

(٢) سورة فاطر آية ٣٢.

(٣) سورة المجادلة آية ١١.

(٤) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها.

(٥) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها.

الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل ويلزمه ذلك[1].

- يحذر ابن سحنون المعلم عند تعليم القرآن للصبيان أن يقرأ بالألحان لأن الإمام مالك قال: «لا يجوز أن يقرأ بالألحان»[2].

- وتعليم الصبيان، الوضوء، الصلاة، لأن ذلك من أركان الدين، عدد ركوع الصلاة، والسجود والقراءة والتكبير والإحرام، والسلام والتشهد[3].

- تعليم التلاميذ سنن الصلاة مثل ركعتي الفجر والوتر، صلاة العيدين، الاستسقاء، الخسوف صلاة الجنائز، الدعاء فإنه دينهم، ويجب أن يقترن التعليم النظري بالتطبيق العملي[4].

٢ - التعليم الاختياري:

الحساب، والشعر العربي، والعربية والخط، جميع النحو. . . ويبقى التعليم الاختياري حسب شروط أهل الولد. فبعض الأهالي يشترطون مثل هذا التعليم وهنا من واجب المعلم الإيفاء بهذا الشرط، وإن لم يكن هذا الشرط موجوداً يكون المعلم متطوعاً ولا بأس من تعليم الطلاب الخطب إن أرادوا ويشترط بالشعر ألاّ يكون فاحشاً أي أن منهاج ابن سحنون ينسجم مع فلسفة المجتمع الذي عاش فيه ويستهدف تحقيق غايتين[5]:

١ - الإعداد للحياة الآخرة عن طريق تعليم الصبيان كيفية أداء الشكر لله الخالق والابتعاد عن نواهيه[6].
٢ - تمكين الصبيان من معرفة طائفة من العلوم والمهارات التي تساعدهم على النجاح في الحياة وتنفع المجتمع الذي يعيشون فيه[7].

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون. ص ٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها .
(٢) المذهب التربوي عند ابن سحنون . ص٥٢ وما بعدها ، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها .
(٣) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها .
(٤) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها .
(٥) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢ وما بعدهما ، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها .
(٦) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها .
(٧) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢ وما بعدها ، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها .

لم يكن الهدف التربوي عند المسلمين دينوياً محضاً بل يتمثل بالآية الكريمة: ﴿وابتَغِ فِيما آتاكَ اللّهُ الدَّارَ الآخرةَ ولا تنسى نَصِيبَكَ من الدّنيا﴾(1).

إن من جملة الانتقادات الموجهة إلى منهج ابن سحنون أن قسم المنهاج إلى إجباري إلزامي، وقسم اختياري فبذلك يخسر الطالب مثلاً مادة الحساب التي هي من ضروريات الحياة العملية اليومية(2).

ومن مميزات منهج ابن سحنون إدخال مادة الخطابة وهي فن تعليم الصبيان فن الإلقاء لما لها من دور في تنمية الذوق الأدبي وتوسيع دائرة الخيال وإثارة الوجدان وإنماء شخصية الطالب(3).

طريقة التدريس عند ابن سحنون:

يلفت النظر ابن سحنون إلى بعض النقاط الشكلية التي لا تدخل في طريقة التدريس بل تدخل في الإطار الخارجي(4):

- إذا محت صبية الكتاب تنزيل من رب العالمين من ألواحهم بأرجلهم نبذ المعلم إسلامه ثم لم يبالِ حين يلقى الله على ما يلقاه عليه، وحل هذا الإشكال يكون كما قال أنس بن مالك [كان المؤدب له إجانة، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته ماءً طاهراً فيصبونه فيها فيمحون به ألواحهم، ثم يحفرون حفرة في الأرض فيصبون ذلك الماء فيها فينشف]. وكانت هذه الطريقة سائدة في المدينة في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم(5).

- لا يمس الصبي المصحف إلا على وضوء ولا بأس على الصبي إذا لم يبلغ الحلم أن يقرأ في اللوح على غير وضوء إذا كان يتعلم، وكذلك المعلم، وليأمرهم بذلك حتى يتعلموه.

---

(1) سورة القصص آية رقم ٧٧.
(2) المذهب التربوي عند ابن سحنون. ص ٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها.
(3) نفس المصدر السابق.
(4) نفس المصدر السابق.
(5) نفس المصدر السابق.

ـ إذا مر المعلم بسجدة وهو يقرؤها عليه الصبي فليس عليه أن يسجد، لأنه الصبي ليس بإمام إلا أن يكون بالغاً فلا بأس بسجدها، فإن ترك فلا شيء عليه لأنها ليست بواجبه.

ـ ينبغي أن يجعل للطلاب وقتاً يعلمهم فيه الكتب وحدد الوقت [من الضحى إلى وقت الانقياد].

ـ لا يجوز أن ينقلهم من سورة إلى سورة حتى يحفظوها بإعرابها وكتابتها [إلا أن يسهل له الآباء](١).

ـ تخصيص وقت للمناقشة كي يتعلموا أصول المناقشة وآداب الاستماع، ويتم ذلك بجعلهم: يتخايرون لأن ذلك مما يصلحهم ويبيح لهم أدب بعضهم بعضاً(٢).

ـ تخصيص آخر الأسبوع الدراسي للتسميع والتأكيد من استيعاب التلاميذ بأن [يتفقدهم بالتعليم والعرض، ويجعل لعرض القرآن وقتاً معلوماً مثل يوم الخميس وعشية الأربعاء ويأذن لهم في يوم الجمعة](٣).

ـ العدل بين الصبيان ومعاملتهم بالسوية ـ ويستشهد بحديث رواه أنس بن مالك: [أي مؤدب ولي ثلاثة صبية من هذه الأمة، فلم يعلمهم بالسوية، فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حُشر يوم القيامة مع الخائنين](٤) وليجعلهم بالسواء في التعليم: الشريف والوضيع وإلا كان خائناً(٥).

ـ لا بأس أن يجعلهم يملي بعضهم على بعض لأن ذلك منفعة لهم وليتفقد إملاءهم(٦).

---

(١) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها تحقيق محمد المطوي، ط تونس، دار الكتب الشرقية ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

(٢) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢، وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها.

(٣) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها.

(٤) المذهب التربوي عند ابن سحنون. ص ٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها.

(٥) المذهب التربوي عند ابن سحنون ص ٥٢ وما بعدها، آداب المعلمين ص٧٥ وما بعدها.

(٦) نفس المصدر السابق.

آراء الزرنوجي في التعليم:

يمكن تلخيص آراء الزرنوجي في التعليم بالنقاط التالية:

١ - يتحدث في الفصل الأول عن شرف العلم وأن العلم علمان علم الفقه للأديان وعلم الطب للأبدان حيث يؤكد على أن العلم الذي يجب تعلمه هو المفيد والضروري، وكل ما عدا ذلك فهو لا طائل منه[١].

٢ - الفصل الثاني يتحدث فيه عن النية في حال التعلم وفي رأيه: أن يبغي رضاء الله والدار الآخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الإسلام، وينوي به الشكر عن نعمة العقل وصحة البدن[٢].

٣ - الفصل الثالث في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات عليه.

أما اختيار العلم فينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه، ويقدم علم التوحيد والمعرفة، ويعرف الله بالدليل، فإن إيمان المقلد وإن كان صحيحاً عندنا ولكن يكون آثماً بترك الاستدلال، ونختار العتيق دون المحدثات، وتحذير الاشتغال بالجدال فإنه يبعد الطالب عن الفقه، ويورث الوحدة والعداوة، ويضيع العمر، أما اختيار المعلم والأستاذ فينبغي أن يختار الأعلم والأروع والأسن وأن يشاور من هو أعلم منه في اختيار المعلم[٣].

٤ - الفصل الرابع: في تعظيم العلم وأهله.

أعلم بأن طالب العلم، لا ينال العلم، ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الأستاذ وتوقيره ومن توقير المعلم ألا يمشي أمامه، ولا يجلس

---

(١) من كتاب تعليم المتعلم طريق المتعلم الفصل الأول.

(٢) نفس المصدر السابق الفصل الثاني.

(٣) نفس المصدر السابق الفصل الثالث.

مكانه ولا يبدأ الكلام عنده إلا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده إلا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده ولا يسأل شيئاً عند ملالته، ولا يتكلم عنده مع شريكه ولا يسأل شيئاً في طريقه، ويراعي الوقت، ولا يدق الباب عليه بل يصبر حتى يخرج. والحاصل أن يطلب رضاه، ويجتنب سخطه ويمتثل أمره من غير معصية الله تعالى!! ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[1].

٥ ـ الفصل الخامس: تعظيم الكتاب.

ينبغي لطالب العلم ألا يأخذ الكتاب إلا بطهارة، وألا يمد الرِجْل إلى الكتاب ويضع كتب التفسير فوق سائر الكتب، ولا يضع على الكتاب شيئاً آخر من محبرة وغيرها، وأن يجود كتابة الكتاب[2].

٦ ـ الفصل السادس في الجد والمواظبة والهمة:

لا بد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم وإليه الإشارة في القرآن: ﴿يايحيى خُذِ الكتابَ بقوّة﴾[3]﴿والذينَ جاهَدوا فينا لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا﴾[4]، وهناك بعض النصائح في هذا المجال منها: سهر الليالي والمواظبة على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره، فإن ما بين العشاءين ووقت السحر وقت مبارك و يغتنم الحداثة وعنفوان الشباب، ولا يجهد نفسه جهداً يضعف النفس، بل يستعمل المرفق لقول النبي ﷺ: «نفسك مطيتك فارفق بها»، كذلك الهمة العالية فإن المرء يطير بهمته كالطير يطير بجناحيه، تحبيذ السفر في طلب العلم. ثم يتحدث عن مورثات الكسل كالبلغم والرطوبات وطريقة تقليله بتقليل الطعام، والخبز اليابس يقطع البلغم، وكذا أكل الزبيب على الريق، والتسوك بالسواك يقلل البلغم ويزيد بالحفظ والوضاحة...

ويذكر فوائد للمطارحة والمناظرة حيث هما أقوى من التكرار، وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر، كذلك ينبغي لطالب العلم أن يكون متأملاً

---

(١) تعليم المتعلم طريقة التعلم للزرنوجي ص٩٠ ومابعدها.
(٢) تعليم المتعلم طريقة التعلم للزرنوجي ص٩٠ ومابعدها.
(٣) سورة مريم آية رقم ١٢.
(٤) سورة العنكبوت آية ٦٩.

في جميع الأوقات دقائق العلوم ويعتاد ذلك، فإنما يدرك الدقائق بالتأمل، وقيل تأمل تدرك، كذلك التأمل قبل الكلام حتى يكون صواباً، فإن الكلام كالسهم فلا بد من تقويمه بالتأمل قبل الكلام حتى يكون مصيباً، ويعـدد فوائـد التكرار في تثبيت العلم وحفظه حيث ينبغي أن يكرر سبق الأمس خمس مرات، وسبق اليوم الـذي قبل الأمس أربـع مرات، والسبق الـذي قبله ثلاثـاً، والـذي قبله اثنين، والذي قبله واحداً، فهذا أدعى للحفظ .

الفصل السابع :

يستحسن البداية بالتعلم في يوم الأربعاء لأنه يوم خلق فيه النور، وهو يوم نحس في حق الكفـار، فيكون مبـاركاً للمؤمنين، والتعليم بـطريقة التـدرج بعد الفهم ثم الانتقال إلى الأعقد، ويفضل عدم التكرار للحفظ حتى لا يصبح عادة، وأن يبتـدأ بشيء من العلوم يكون أقـرب إلى فهمـه حيث كـان بعضهم يختـار للمبتدىء (صغارات المبسـوطات) لأنـه أقرب إلى الفهم والضبط وأبعـد عن الملالـة وأكثر وقوعه بين الناس، ولا يكتب المتعلم شيئاً لا يفهمه، فـإنه يـورث كلالـة الطبع ويذهب الفطنة، ويضيع أوقاته، وقيل حفظ حرفين خير من سماع سطرين. ولا بد من المذاكرة، والمناظرة والمطارحة والمشاورة»[1].

الفصل الثامن : في التوكل على الله :

الحديث عن الرسول ﷺ : [من تفقه في دين الله ، كفاه الله همَّهُ ورزقه من حيث لا يحتسب]. ثم تحمل الغربـة وقساوتها في سبيل العلم وتحصيله حيث يقول قائل إن صناعتنا هذه من المهـد إلى اللحد فمن أراد أن يترك علْمَنا هذا ساعة فليتركه الساعة[2].

الفصل التاسع : في وقت تحصيل العلم وهو عنده من المهد إلى اللحد،

---

(١) تعليم المتعلم طريقة التعلم للزرنوجي ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر السابق.

وأفضل أوقاته شرخ الشباب ووقت السحر وما بين العشاءين، وإذا ملَّ من علم يشتغل بعلم[1] آخر.

الفصل العاشر: في الشفقة والنصيحة للطلاب، حيث يجب أن يكون المعلم مشفقاً ناصحاً غير حاسد فالحسد يضره ولا ينفعه، فالمحسن سيجزى بإحسانه والمسيء سيكفيه مساويه[2].

الفصل الحادي عشر: في الاستفادة والاقتباس.

وهي عنده بأن يكون طالب العلم مستفيداً في كل وقت حتى يحصل له الفضل، وتكون لديه محبرة حتى يكتب ما يسمع من الفوائد من مبدأ ما حُفظ فرَّ وما كتب قرَّ، لحديث الرسول ﷺ لهلال: يا هلال، لا تفارق المحبرة، فإن الخير فيها وفي أهلها إلى يوم القيامة[3].

الفصل الثاني عشر: في الورع في حالة التعلم.

ومن الورع أن يتحرز عن الشبع، وكثرة النوم، وكثرة الكلام فيما لا ينفع، وأن يتحرز عن أكل طعام السوق إن أمكن، لأن طعام السوق أقرب إلى النجاسة والخباثة، لأن أبصار الفقراء تقع عليه، ولا يقدرون على الشراء، فيتأذون بذلك وتذهب بركته، ومن الورع الابتعاد عن أهل الفساد والمعاصي والتعطيل، وكذلك استقبال القَبلة وليس استدبارها، والتحرز من دعوة المظلوم[4].

الفصل الثالث عشر: في ما يورث الحفظ والنسيان.

وعنده أقوى الأسباب للحفظ، الجد، والمواظبة، وتقليل الغذاء، وصلاة الليل، وقراءة القرآن، والقراءة نظراً أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل أعمال أمتي قراءة القرآن نظراً، وكذلك السواك، وشرب العسل، وأكل الكُندرة

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) تعليم المتعلم طريقة التعلم للزرنوجي ص٩٠ ومابعدها.
(٤) تعليم المتعلم طريق التعلم للزرنوجي ص٩٠ ومابعدها.

مع السكر وأكل إحدى وعشرين زبيبة كل يوم على الريق يورث الحفظ ويشفي من كثير من الأمراض والأسقام[1].

أما مورثات النسيان: فالمعاصي، وكثرة الذنوب، والهموم، والأحزان في أمور الدنيا وكثرة الأشغال والعلائق، وكذلك أكل الكزبرة الرطبة، والتفاح الحامض، والنظر إلى المصلوب وقراءة ألواح القبور[2].

الفصل الرابع عشر: فيما يجلب الرزق وما يمنع الرزق وما يزيد في العمر والصحة وما ينقص وهو فصل خارج عن نطاق التعليم ولكن فيه ـ برأي المؤلف ـ نصائح مفيدة للحياة العملية نقتطف بعضها: ارتكاب الذنوب، لقول الرسول ﷺ: لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر، وأن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وكذلك الكذب ونوم الصبحة، والنوم عرياناً، والبول عرياناً والأكل جنباً، والأكل متكئاً على جنب، والتهاون بسقاط المائدة، والمشي قدام المشايخ، ونداء الوالدين باسمهما، والبخل، وترك الدعاء للوالدين والإسراف والكسل، والتواني والتهادن في الأمور[3]...

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) تعليم المتعلم طريقة التعلم للزرنوجي ص٩٠ ومابعدها.
(٣) نفس المصدر السابق.

بعض طرائق التدريس عند الجاحظ:

في رياضة الصبي[1]:

وأما النحو فلا تشغل قلبه فيه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أرد عليه منه من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع[2].

وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يضطر إليه شيء فمن الرأي أن يعتمد به في حساب العقد دون حساب الهند ودون الهندسة، وعويص ما يدخل في المساحة وعليك في ذلك بما يحتاج إليه كفاة السلطان وكتاب الدواوين، وأنا أقول إن البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل، والترقي منه والسبب إليه، أرد عليه من البلوغ في صناعة المحررين»[3]. .

ورؤوس الخطاطين لأن في أدنى طبقات الخط مع صحة الهجاء بلاغاً وليس كذلك حال الحساب. ثم خذه بتعريف حجج الكتاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأزده حلاوة الاختصار وراحة الكفاية، وحذره التكلف واستكراه العبارة، فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع، ولا يُحوج إلى التأويل، والتعقب ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ولا فاضلاً عليه[4].

فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً، باللفظ المتعقد مُفرقاً في الإكثار

---

(١) رسائل الجاحظ جـ ٣ ص ٣٨.

(٢) نفس المصدر ص ٣٨.

(٣) نفس المصدر ص ٣٨ ـ ٤٠.

(٤) رسائل الجاحظ جـ ٣ ص ٣٩.

والتكلف فما أكثر من لا يحفل استهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة، فالمعنى بعد مقيم على استخفافه، وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً[1].

وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيىء المعنى عشقاً لذلك اللفظ، وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يُجر إليه المعنى جراً، ويلزمه إلزاماً، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ومنعه الإفصاح عنه إلا به، وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع مهزل أو جد وحزم أو إضاعة ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه[2].

ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد من المعاني فهو على سبيل صواب ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ والخسران ـ ها هنا في وزن الربح هناك لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ، حمله الحرص عليها، والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ويضعها في غير مكانها، ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه أنا أشعر منك! قال صاحبه ولم ذاك؟ قال: لأنني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه وسماع الألفاظ ضار ونافع[3].

فالوجه النافع أن يدور في مسامعه ويغلب في قلبه، ويختمر في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أطيب ثمرة، لأنها حينئذٍ تخرج غير مُسْتَرقةٍ ولا مختلسةٍ ولا مقتضبة ولا دالة على فقر. إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره. وبين الشيء إذا عشش في الصدر ثم باض، ثم فرَّخ ثم نهض وبين أن يكون الخاطر مُختاراً واللفظ اعتسافاً واغتصاباً فَرْقٌ بين[4].

ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهويني، والوكال وعلى السرقة

---

(١) رسائل الجاحظ جـ ٣ ص ٣٩ ـ ٤٠.
(٢) رسائل الجاحظ جـ ٣ ص ٤٠.
(٣) نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٠ ـ ٤١.
(٤) رسائل الجاحظ ص ٤١ ـ ٤٢.

والاحتيال. لم ينل طائلاً وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان واستهلكه سوء العادة[1].

والوجه الضار أن يتحفظ ألفاظاً بعينها من كتاب بعينه أو لفظ رجل، ثم يريد أن يعبر لتلك الألفاظ قسماً من المعاني فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً، وخائفاً سروقاً، ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه، متكلفاً لمعانيه، مضطرب التأليف منقطع النظام، فإذا مر كلامه بنُقَّاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله وبهرجوا علمهُ[2] وخير الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه وأوقفك على حده[3].

ثم يقول: دَرْسُهُ العلم ما كان فارغاً من أشغال الرجال ومطالب ذوي الهمم، واحتل في أن تكون أحب إليه من أمه، ولا تستطيع أن يمحضك المِقَةَ ويُصفي لك المودة مع كراهته لما تحمل إليه من ثقل التأديب، عند من لم يبلغ حال العارف بفضله، فاستخرج مكنون محبته، ببر اللسان، وبذل المال، ولهذا مقدارٌ من جازه أفرط، والإفراط سَرَف ومن قصَّر عنه فرَّط والمفرط مضياع»[4].

التعليم بلغتين في مجلس واحد:

«من القصاص موسى بن سيار الأسواري وكان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكر من لسان موسى بن سيار الأسواري»[5].

---

(١) رسائل الجاحظ ج٣ ص٤١ ـ ٤٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٤١ ـ ٤٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٤١ ـ ٤٢ .
(٤) رسائل الجاحظ جـ ٣ ص ٥٠ .
(٥) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٦٨ .

الـورق

مقدمة عامة

لم يعـرف العرب في الجـاهليـة وصـدر الإسـلام الـورق وإنمـا ورثـوا مواد مختلفة للكتابة كاللخاف وهي الحجارة العريضة الرقيقة، والعسب وهو جريد النخل، وأكتاف الإبل، والكرب وألواح الخشب والمهارق وهي صحف بيضاء من القماش والرقوق والأدم وقراطيس البردي المصريـة. لقد استعملت الجلود في الكتابة أكثر من غيرها من المواد في أول الأمر، وشاع استخدامها في صدر الإسلام وأصبحت للجلود العربية التي كانت تتخذ للكتابة خصوصيتها وصفاتها الجيدة، ، وكانت تصنع من جلود الإبل والغنم والمعز والغزلان والحمر الوحشي والظباء ومن أشهر أنواع الجلود التي استعملهـا في الكتابـة الرقـوق وهي نوع متطور من الجلود في الصنعة وأسلوب الدباغة والصقل، فكانت رقيقة لينة خفيفة آيـــة في الدقة الجمال وأصبحت مادة رئيسية في الكتابة، واشتهـرت في تلك الفتـرة مدن عـربية في صنـاعة الـرقوق والجلود منهـا صنعـاء وصعدة ونجـران والطائف، ثم انتقلت أحدث أصول الدباغة إلى الكـوفة وتم اتقـانها وتحسينهـا وفاقت في صناعتها الرقوق التي كانت تصنع في المدن الأخرى[1].

وقد كتبت على الرقوق سور وآيـات القرآن الكـريم عند نـزولها وكـذلك أقوال الرسول ﷺ والعقود والمواثيق والصكوك والأخبـار ورسائـل الرسـول إلى ملوك زمانه، ونسخت عليها المصاحف الكريمة ومنها المصحف الذي جمعه أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)وكذلك المصاحف التي أمر بنسخها الخليفة عثمان

---

(١) حضارة العراق ص ٤٣٩ ـ جـ ٩.

ابن عفان رضي الله عنه والتي أرسلت إلى الأمصار، كما نسخت على الرق المصاحف المنسوبة إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأئمة المسلمين[1].

إلى جانب الرقوق استخدمت أوراق البردي المصرية (القراطيس) التي كانت تصنع من البردي في مصر والتي استخدمت في زمن الرسول ﷺ، في كتابة آيات وسور القرآن الكريم إلى جانب المواد الأخرى التي ذكرناها[2].

واتسع استخدامها بعد فتح مصر سنة عشرين للهجرة، وكثر استخدامها في الفترة الأموية، وبداية الفترة العباسية خصوصاً في العراق، وكان للقراطيس دور هام في الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية[3].

وذكر لنا ابن عبدوس أن الخليفة أبا جعفر المنصور وقف على كثرة القراطيس في خزانته فدعى [فدعا] بصالح صاحب المصلى وأمره بإخراجها وبيعها إلا أن الخليفة المنصور عدل عن فكرته في اليوم التالي وأمر باستخدامها في لوازم الكتابة، وكان في بغداد درب يعرف بدرب القراطيس أو درب أصحاب القراطيس... أغلبهم من بغداد أوفيمن قدم إليها وعاش فيها ذكر بعضهم الخطيب البغدادي، والسمعاني في كتابه الأنساب[4].

وانتقلت صناعة القراطيس إلى سامراء أيام المعتصم في أوائل القرن الثامن الهجري حيث ذكر اليعقوبي أن المعتصم حين ابتنى سامراء جلب جماعة من أرباب المهن والصناعات إليها ومنهم قوم من أرض مصر يعملون القراطيس وقد استمر استعمال القراطيس حتى نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع لقد كانت الكتب في بادىء الأمر تكتب على شكل لفائف وألواح كبيرة إلا أن مساوىء هذا الأسلوب وتلف أوراق البردي والرقوق التي كانت تستخدم

(١) حضارة العراق جـ ٩ ص ٤٣٩ وما بعدها.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) وردت فدعى بالمصدر.
(٥) حضارة العراق جـ ٩ ص ٤٣٩ وما بعدها.

والحاجة العملية واليومية إلى حمل الكتب واستعمالها أدى إلى تقسيم اللفائف والألواح إلى صفحات تكون على شكل كراريس كل كراسة تحتوي على عدد من الملازم وكل ملزمة تحتوي على عدد معين من الأوراق، وقد قيل إن شكل الكراس كان صغيراً وعرض الكتاب يبلغ ثلثي الطول غالباً مع ترك هوامش العرض أكثر من الهوامش العليا والسفلى. لقد ظل المخطوط العربي يكتب في هاتين المادتين الرقوق والقراطيس حتى ظهور ورق الكاغد وذلك في النصف الثاني من القرن الأول الهجري. فمادة الرق والبردي مع جودتها وسهولة استخدامها إلا أن ارتفاع أسعارها وصعوبة صنعها وعدم توفر المواد الأولية بالنسبة لصناعة القراطيس التي كانت تصنع في مصر وتجلب إلى العراق، واتساع حركة التأليف والترجمة التي نشطت مع اتساع الفتوحات الإسلامية في مختلف حقول المعرفة خصوصاً في أوائل الدولة العباسية وما تبعها من كثرة المؤلفات وحرص الناس على تناقلها أدى كل ذلك إلى ظهور الحاجة إلى صناعة الورق الذي شاهده العرب لأول مرة عند فتحهم سمرقند سنة ٨٧ هـ - ٧٠٥ م حيث كانت أول مدينة إسلامية صنع فيها الورق وقد وصف الثعالبي كواغد سمرقند فقال: [. . من خصائصها الكواغد التي عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها لأنها أنعم وأحسن وأرق][1].

وقد ظهر الورق مجلوباً من سمرقند في أول الأمر ثم مصنوعاً في بغداد مركز الحضارة الإسلامية. وقد ذكر أن زياد بن صالح الحارثي المتوفى سنة ١٣٥ هـ - ٧٥٢ م الذي قاد وقعة أطلح على ضفاف نهر طراز سنة ١٣٤هـ ٧٥١ م التي جرت بين العرب وأمراء الترك وحلفائهم الصينيين فهؤلاء الأسرى الصينيون لا بد أن يكونوا قد أسروا في تلك الحادثة وجيء ببعضهم إلى بغداد. . . وبعد تلك الفترة ظهرت صناعة الورق في بغداد وقيل إن أول مصنع للورق أقيم في بغداد في عصر الرشيد وفعلاً نرى أن في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري أي في أوائل العصر العباسي شاع استخدام الورق وتبع

---

(١) النويري في نهاية الأرب. وحضارة العراق جـ ٩ ص ٤٣٩ وما بعدها.

ذلك سهولة الحصول عليه وتداوله بين الناس وتفرغ قوم لصناعة الورق في بغداد عرفوا بالوراقين، واحترفوا هذه الصنعة إلى جانب عدد كبير من العلماء والأدباء وقيل إن أول من أنشأ الوراقة مالك بن دينار المتوفى سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٧ م[١]. . .

لقد كان الورق الذي يصنع في الصين وسمرقند وخراسان من قطع الحرير والكتان، إلا أن غلاء هذه المواد وندرتها في البلاد العربية خصوصاً في العراق دعا إلى استخدام مواد بديلة عنها ومتيسرة وهي الألياف والقطن والقنب والخرق البالية، وهنا يبرز دور الإبداع والابتكار في العقلية العربية التي لم تنقل دون تجديد وإبداع بل أضافوا أسساً جديدة في (صناعته) أعطت الورق ألواناً وصفات متميزة وقد قيل كذلك ان جابر بن حيّان الكوفي المتوفى سنة ١٩٨ هـ-٨١٣م قد تمكن من صناعة ورق غير قابل للاحتراق، وقد كان الورق البغدادي معروفاً بجودته، وصفه القلقشندي فقال: [وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جداً، ولا يكتب في الغالب إلا المصاحف الشريفة أو ربما استعمله كتاب الإنشاء. . .][٢].

وقد استبدلت سجلات الدولة المصنوعة من الجلد والقرطاس بالكاغد البغدادي في أيام هارون الرشيد وشاع استخدام الورق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ورخص ثمنه وانتقلت صناعته من بغداد إلى دمشق وطرابلس وطبرية في القرن الرابع الهجري وإلى مصر في حدود القرن الخامس الهجري، ولكن بقي القطع البغدادي أكثر جودة من الحموي وهو دون القطع البغدادي، والشامي وهو دون القطع الحموي، وقد عرفته أوربا عن طريق التجارة، كما أن الورق السمرقندي استمر بجودته وصفاته وكان يحمل إلى حواضر العالم الإسلامي آنذاك لاستعماله[٣].

---

(١) حضارة العراق جـ ٩ ص ٤٣٩.

(٢) حضارة العراق جـ ٩ ص ٤٣٩ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر جـ ٩ ص ٤٣٩ وما بعدها.

الوراقة والوراقون:

«لعل من أهم العوامل المساعدة على انتشار الكتب وتعدد المكتبات أن صناعة الورق وشيوعه كانت عاملاً حاسماً في نشر العلوم والمعارف وفي توفير الكتب وتعدد المكتبات، وعليه فإن انتشار صناعة الورق في العالم الإسلامي (وبخاصة العراق) كان من عوامل شيوع المكتبات وكثرتها من جهة وظهور الوراقين على نطاق واسع نظراً للحاجة إليهم من جهة أخرى»[١].

إن أجود أنواع الورق ظهر في القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي، حيث حل الورق ابتداء من هذا التاريخ محل الرقوق في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولقد كانت بغداد في هذه الفترة تتباهى بأنها فيها أكثر من مائة حانوت للوراقين في سوق واحدة، وكان بعضها من حيث السعة بحيث تعرض فيها الكتب، ويلتقي فيها العلماء، ويذكر ياقوت الحموي: أن وراقاً عراقياً كانت له خزانة اكتنز فيها القديم من المخطوطات من الجلود والصكاك وقرطاس مصر والورق الصيني والورق الخراساني، وعلى كل مدرج توقيع الكاتب وتتمة شهادات خمسة أو ستة أجيال من العلماء[٢].

أما في مجال النسخ فلقد ظهر في العراق ـ كما تشير المصادر ـ أعداد كبيرة من النساخين، رجالاً ونساءً لا يتسع المجال لسرد أسمائهم، وإنما سنقتصر على ذكر المشاهير منهم، ويبدو أن هذا العمل كان يدر مردوداً اقتصادياً طيباً، وأنه ساعد على انتعاش الحركة الفكرية والاقتصادية معاً[٣].

ومما ساعد على ارتفاع شأن النساخين في هذه المرحلة نشاط حركة التأليف، بالإضافة إلى احتياج العلماء وهواة جمع الكتابة على اقتناء ما يظهر من المؤلفات وقيام الوراقين باستنساخات وقد كان الحسن بن شهاب العكبراوي المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ـ ١٠٧٤ م يقول: كسبت في الوراقة خمسة وعشرين ألف

---

(١) الحياة العلمية في العراق ص ١٨٢.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الحياة العلمية بالعراق ص ١٨٢ وما بعدها.

درهم، وكنت أشتري الكاغد بخمسة دراهم، فاكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليالٍ وأبيعه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهماً ولا شك أن نسخ الكتب كان يستنفذ من النساخين جهداً عظيماً فابن جماعة يقول: كان الحميدي من اجتهاده ينسخ بالليل في الحر، فكان يجلس في إجانة ماء يتبرد وكان محمد بن أحمد بن عبد الباقي المعروف بابن الخاضبة المتوفى سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م من أشهر نساخي زمانه معروفاً بالإفادة وجودة القراءة وحسن الخط وجودة النقل قال ابن الخاضبة: لما كانت سنة الغرق وقعت داري على قماشي ومكتبي، ولم يبقَ لي منها شيء، وكانت لي عائلة، وكنت أورق للناس فكتبت صحيح مسلم تلك السنة سبع مرات وقد مر بنا ياقوت بن عبد الله الرومي نزيل الموصل، وكان أوحد زمانه في جودة الخط واتقانه على طريقة ابن البواب، ورأيت كتباً كثيرة بخطه يتداولها الناس ويتغالون بأثمانها بينها عدة نسخ من الصحاح للجوهري والمقامات الحريرية، وكان من النساخ من له قدرة عجيبة على سرعة النسخ وسرعة إنجاز الكتب فقد ذكرت المصادر أن يحيى بن محمد أبو محمد الأرزني (كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب في بغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبيعه بنصف دينار ويشتري لحماً وفاكهة)[١].

أما ابن الإخوة العطار عام ٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م فقد نسخ ما لا يدخل تحت الحصر، وكان يكتب خطاً مليحاً وكان سريع القراءة والكتابة، قال ابن النجار: «رأيت بخطه كتاب التنبيه في الفقه لأبي إسحاق الشيرازي، وقد ذكر في آخره أنه كتبه في يوم واحد وكان يقول كتبت بخطي ألف مجلد[٢].

وظهر في هذا العصر نساء عرفن بجودة الخط أشهرهن أم الفضل فاطمة بنت الحسن بن علي العطار المعروفة ببنت الأقرع ت (٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م) وكانت من أحسن الناس خطاً واشتهرت بجودته على طريقة ابن البواب قال

---

(١) الحياة العلمية بالعراق في العصر السلجوقي ص ١٨٢.
(٢) نفس المصدر السابق.

الذهبي : وبكتابتها يضرب المثل وهي التي ندبت للكتـابة، كتـابة الهـدنة إلى طاغية الروم من جهة الخلافة وكانت تقول: كتبت ورقة لعميد الملك الكندري فأعطاني ألف دينار[1].

أمـا السيدة نسيم التي عـاشت في بغداد في خـلافـة النـاصـر لـدين الله العباسي، فقد كانت من الناسخات المجيدات وكان الناصر قد عجز عن النظر لما ضعف بصره فاستحضر هذه السيدة، فكانت تكتب خطاً قريباً من خطه، وقد جعلها بين يديه تكتب الأجوبة، كما ينبغي ألّا نـنسى العالمة المشهورة شُهدة بنت الأبري البغدادية التي عرفت بأنها تنسخ بخط حسن[2].

وكـان من عمل الـوراقين في هـذا العصـر بيـع الـورق وأدوات الكتـابـة والتجليد وذلك أن عمل النساخ يحتاج إلى أدوات الكتابة، وقد ذكر القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» أنواع الأقلام وأوصافها وصناعتهـا وأحسن في وصف مواد الكتابة الأخرى كالمداد حيث ذكر أصنافه ومزايـا كـل صنف[3].

وقد ذكر ياقوت في ترجمة لعمر بن الحسين الخطاط بن خرنقا «المتوفى عام ٥٥٢ هـ - ١١٢٨م بأنه «كان له من آلة الكتابة ما لم يكن لأحد من قبله»[4].

أما الورق فقد كانت من أدوات الكتابة المهمة إذ كانت البضاعة الأساسية المعروضة في أسواق الوراقين، في بغداد وكانت أنواعه متعددة، وكمياته متوفرة وكان ثمن الكاغد في المتوسط خمسة دراهم[5].

أما تجـارة الكتـب فقد كانت سوقها رائجه في بغداد وكانت سوق الكتب تقع في الجانب الشرقي من بغداد «الـرصافـة» وكان يجلس فيهـا باعـة الكتب والوراقون وأكثرهم من الخطاطين والنساخين، بالإضافة إلى الدلالين. ولم تكن

---

(١) الحياة العلمية في العراق بالعصر السلجوقي ص ١٨٢ وما بعدها
(٢) معجم الأدباء ج١٩ ص١٩ .
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) معجم الأدباء ج١٦ ص٥٩ .
(٥) نفس المصدر السابق.

هذه الدكاكين مقصورة على تجارة الكتب والوراقة فقد كانت كذلك مجمعاً للعلماء وأهل الأدب، ذلك أن هؤلاء الوراقين كانوا في الغالب من رجال العلم والأدب، وكثيراً ما كانت تدور بينهم وبين زائريهم من العلماء مناقشات جادة[1].

وقد كان الشيخ أبو المعالي سعد بن علي الوراق الكتبي الحضيري المتوفى سنة (٥٦٨ هـ ـ ١١٧٢ م) دلالاً للكتب في سوق الكتب ببغداد وكان أديباً له فنون حسان منها لمح الملح، وكتاب الإعجاز في الأحاجي والألغاز ولعل أهم مصنفاته كتابه (زينة الدهر وعصرة العصر) قال عنه الأصفهاني «ولا يكون اعتناؤه أكثر زمانه إلا بالجمع والتأليف، وتعريف القول في التصنيف ولم يزل مجمع الفضل دكانه، ومنبع الفضل مكانه وكنت أحضر عنده وأقدح زنده» والكثير من المصادر التاريخية تذكر الكثير من العلماء في هذه العصر ممن كانون يمتهنون الوراقة وبيع الكتب في بغداد وغيرها من المدن العراقية بجانب اشتهارهم بفن من الفنون المختلفة[2].

حوانيت الوراقين:

من الأماكن التي أسهمت في حركة التعليم، والتثقيف في العراق في هذا العصر حوانيت الوراقين وذلك أنها لم تكن مجرد أماكن لبيع الكتب، حيث كان الكثيرون من أصحابها يتمتعون بثقافة واسعة وعلم غزير وثقافة متعددة الجوانب، فقد كانت حوانيتهم مجمعاً للعلماء والأدباء ومحبي الكتب الذين ما يكاد ينتظم عقدهم حتى تتعالى أصواتهم بالنقاش والمحاورة ولقد وصف ابن الجوزي سوق الوراقين ببغداد في عصره فقال: إنها مجالس للعلماء والشعراء[3].

ويقول (فيليب حتي) في كتابه تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٠٢ عن حوانيت الوراقين: أما باعة الكتب فكان أكثرهم من الخطاطين أو النساخين أو المتأدبين

---

(١) الحياة العلمية بالعراق بالعصر السلجوقي ص ١٨٢ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الحياة العلمية بالعراق في العصر السلجوقي ص ٢٣١.

الذين لم يجعلوا حوانيتهم مخازن للكتب فحسب بل مراكز للأبحاث الراقية .

إعارة الكتب :

للتعامل مع الكتب آدابٌ يذكرها ابن جماعة فيقول: ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها أو مخدة، أو مروحة، ولا مكبساً ولا مسنداً ولا متكأً ولا مقتله للبق وغيره، ولا سيما في الورق فهو على الورق أشد[١] .

وعن إعارة الكتب فيقول: وإعارة الكتب للطلبة والمشيخة أمر قد استحسنه الأولون والآخرون لما فيه من نشر العلم خاصة وإفادة الناس عامة[٢] .

وقد ذكر ياقوت أن الحسن بن محمد بن حمدون المتوفى سنة ٦٠٨ هـ - ١١٢١ م مع ما كان من اغتباطه بالكتب جواداً بإعارتها للطلبة: ما بخلت بإعارة كتاب قط ولا أخذت عليه رهناً ولا أعلم مع ذلك أنه فقد كتاباً في عارية قط[٣] .

ومن آداب التعامل مع الكتب عند شرائها أو استعارتها أو إعادتها أن يتفقدها المشتري أو المستعير أو مالكها بأن يتعهد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه ويتصفّح أوراقه ولعل من الأعمال الحسنة التي كان يقوم بها بعض العلماء والخلفاء في هذه الفترة وقف الكتب رجاء الأجر وللمحافظة عليها من التلف، أو انتقال الملكية بعد الموت، فكانوا يفضلون (وقفها ليستفيد منها طلبة العلم)[٤] .

ومن الآفات التي كان لها ضرر عظيم على المكتبات في هذا العصر إتلاف الكتب لأي سبب كان وهو العمل لا ريب بعد خسارة كبيرة في إطار جمع التراث وحفظه، وقد ذكر ابن الجوزي: من قيام البعض بكبس دور عدد من

---

(١) الحياة العلمية في العراق بالعصر السلجوقي ص ١٨٩ .

(٢) الحياة العلمية بالعراق ص ١٨٩ .

(٣) معجم الأدباء ج٩ ص١٨٤ .

(٤) نفس المصدر السابق.

العلماء، وكيف أنهم أخرجوا كتبهم فأحرقوا منها ما لم يكن منسجماً مع آرائهم وأفكارهم[1].

وفي معظم الأحيان يندر أن تخلو مدرسة أو مسجد أو جامع أو مستشفى أو غير ذلك من معاهد العلم دون أن تجد مكتبة عامرة ملحقة بها، وهذا إلى جانب (المكتبات) التي يؤسسها الخلفاء والعلماء والوزراء وكبار المسؤولين والعلماء والتي يكون الانفاق عليها من حسابهم الخاص، وكان يقوم على هذه المكتبات مشرفون وخزنة وخدم للقيام بمختلف الأعمال اللازمة لإدارتها والإشراف عليها والإفادة من خدماتها المختلفة، وكان الكثير منها مزوداً بالورق والحبر في قاعات رتبت لتصبح مواضع للمطالعة، وفي أحيان أخرى للنسخ والتعليم ولم تخل مكتبة من هذه المكتبات من فهارس يرجع إليها لتسهيل طلب أو استعمال واستخدام مجموعات من الكتب المخزونة، وكانت الفهارس عادة غاية في التنظيم يشرف على إعدادها وتطويرها خزنة المكتبة ومديروها ، ويذكر ابن الجوزي : أنه نظر في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد[2].

---

(١) الحياة العلمية بالعراق بالعصر السلجوقي ص ١٨٩ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

تسلسل تاريخي لتطور الورق

١ ـ الطين.
٢ ـ الحجر.
٣ ـ العسب: جريدة النخل إذا يبست ونزع خوصها.
٤ ـ الكرانين: أصل السعفة الغليظ الملتصق بجذع النخلة.
٥ ـ الأكتاف والأضلاع: المقصود بها عظام الإبل والبهائم.
٦ ـ اللخاف: الحجارة البيضاء الرقيقة.
٧ ـ الرق: الجلد الذي يرقق ليكتب فيه.
٨ ـ الأديم: الجلد الأحمر المدبوغ.
٩ ـ القضيم: الجلد الأبيض.
١٠ ـ المهارق: ثوب أبيض من الحرير يسقى بالصمغ ويصقل ثم يكتب فيه.
١١ ـ أوراق البردي المصرية: وكانت تسمى القرطاس.
١٢ ـ القباطي: نوع من النسيج.
١٣ ـ الورق العادي(١).

في أدوات الكتابة(٢)

الدواة: وهي وعاء الحبر، وتقول العرب دواة ودويات في أدنى العدد، وفي الكثير دُوِيٌّ ودِوِيٌّ (بضم الدال وكسرها) ويقال أيضاً أدواء، وأدويت دواة أي اتخذت دواة ورجل دَوَّاء إذا كان يبيعها كقولك عطار وبزاز.

---

(١) مجلة المنهل العدد ٤٤١ ص ٢٤٩.
(٢) صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٩٦ وما بعدها.

في فضل الدواة[1] :

عن أبي هـريرة رضي الله عنـه أن النبي ﷺ قال: «خلق الله النُّـون وهي الدواة» وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما خلق الله النون وهي الدواة وخلق القلم فقال آكتب فقال وما أكتب قال: أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

فالدواة أم آلات الكتابة، وقال عبد الله بن المبارك[2]: من خرج من بيته بغير محبرة وأداة فقد عزم على الصدقة، وقال غيره: مثل الكاتب بغير دواة كمثل من يسير إلى الهيجاء بغير سلاح.

فيما ينبغي أن تتخذ منه وما تحل به[3]:

أمـا مـا تتخـذ منـه فينبغي أن تتخـذ من أجـود العيـدان وأرفعهـا ثمنـاً كالأبنوس[4] والسَّماسم[5] والصندل[6] وقد غلب على الكتاب في زماننا من أهل الإنشاء وكتاب الأموال اتخاذ الدُّوي من النحاس الأصفر، والفولاذ، وتغالوا في ثمنهـا وبالغـوا في تحسينها، والنحـاس أكثر استعمـالاً، والفـولاذ أقـل لعـزتـه ونفاسته، واختصاصه بأعلى درجات الرياسة كالوزارة وما ضاهاها.

أما دُويُّ الخشب فقد رفضت وتركت إلا الأبنوس والصندل الأحمر فـإنه يتعاناه في زماننا قضاة الحكم وموقعوهم وبعض شهود الدواوين[7].

وأما التحلية فقال الحسن بن وهب: سبيل الدواة أن يكون عليها من الحلية أخف ما يكون ويمكن أن تُحلى بـه الدُويُّ، وفي وثـاقة ولـطف، ليأمن من أن تنكسر أو تنقصم في مجلسه، قال: وحق الحلية أن تكون ساذجة بغير حُفر ولا ثنيات فيها ليأمن من مسارعـة القذى والـدنس إليها. ولا يكـون عليها نقش ولا

---

(١) صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٦٩.

(٢) هو الحافظ، شيخ الإسلام وصـاحب التصانيف الكثيـرة والرحـلات، أفنى عمره في الـرحلات والأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً مات سنة ١٨١ هـ بهيت (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم.

(٣) صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٦٩ وما بعدها.

(٤ ـ ٥ ـ ٦) أنواع نفيسة من الخشب.

(٧) صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٦٩.

صورة. . . إلى غير ذلك من الأوصاف والتفصيلات[1].

في قدرها وصفتها:

قال الحسن بن وهب: سبيل الدواة أن تكون متوسطة في قدرها لا بالقصيرة فتقصر أقلامها وتقبح. ولا بالكثيفة فيثقل محملها وتُعجف. فلا بد لصاحبها أن يحملها ويضعها بين يدي ملكه أو أميره في أوقات مخصوصة. . . إلى غير ذلك من التفاصيل[2].

في الآلات التي تشتمل عليها الدواة:

١ ـ المِزْبَرُ: (بكسر الميم) وهو القلم أخذاً له من قولهم زبرت الكتاب إذا أتقنت كتابته ومنها سميت الكتب زُبُراً كما في قوله تعالى: ﴿وإنَّه لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾[3]

وأعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره وغيره من آلات الكتابة كالأعوان وقد قال الله تعالى: ﴿نٓ والقَلَم وَمَا يَسْطُرونَ﴾[4] فأقسم به وذلك في غاية الشرف، وقوله تعالى: ﴿إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكرَمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ﴾[5].

الحبر:

سُمي الحبر حبراً لتحسينه الخط في قولهم: حبرت الشيء تحبيراً وحبرته حبراً زينته وحسنته، وقيل مأخوذ من الحبار وهو أثر الشيء كأنه أثر الكتابة.

والمداد كل شيء يُمَدُّ به.

وقد صنع من العفص والزاج والصمغ والدخان ومن بذر الفجل والكتان.

---

(١) صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٦٩ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة الشعراء آية ١٩٦.

(٤) سورة القلم آية رقم ١.

(٥) سورة العلق آية رقم ٣.

وبطبيعة الحال كل نوع من هذه الأنواع يصلح لمادة ورقية من التي كانوا يستعملونها وربما استخدموا علبة المزج فسمي الحبر المركب.

- المحبرة وتشمل: الجونة (الظرف) والليقة (القطن الموضوع في الدواة).

والمداد والملواق (الذي تحرك به الليقة).. والمسقاة يصب منها الماء بالمحبرة وقد صُنعت أول الأمر من الخشب انتقلت إلى النحاس والحديد، وفضل الزجاج عند الخطاطين واستحسنوا عند الانتهاء من الكتابة إغلاقها خوف القذى والتراب لكي لا يظهر أذاه في الكتاب[1].

الأقلام:

إن البداية الأساسية المتوقعة للقلم أن يكون أداة حادة استخدمت للحفر على الحجر أو المواد الصلبة، ثم صنع من السعف والغاب والقصب، ثم وصلنا إلى مرحلة كان لبراية القلم أصول مدونة متعارف عليها ككتاب [سبيل الدراية في علوم الخط وفنون البراية] ومن راجع منظومة [العناية الربانية في الطريقة الشعبانية] لشعبان بن محمد الآثاري المتوفى سنة ٨٢٨ هـ يستطيع معرفة مدى الاهتمام بالقلم.. إمساكه... ومقداره... وفتحه... وشقه، وقطه... وبرايته[2].

ومن أراد التوسع ففي صبح الأعشى في صناعة الإنشا معلومات مستفيضة في هذا المجال.

---

(١) مجلة المنهل العدد ٤٤١ ص ٢٥٠.

(٢) صبح الأعشى جـ٢ ص ٤٦٩ وما بعدها.

الخاتمة

يتبين لدارس هذا الكتاب كيف تطورت نظم التعليم عند المسلمين، من نفر قليل في العصر الجاهلي كان يجيد القراءة والكتابة إلى أعداد كبيرة نمت وتطورت باضطراد وتصاعد بعد مجيء الإسلام، حيث بدأت بحفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ إلى تعلم الكتابة وعلى نطاق واسع، وتعلم اللغات الأجنبية، وكتابة الوحي. . . وقد نمت فيما بعد وترعرعت في المساجد والتي أسهمت بدورها ولعدة قرون في النهضة التعليمية والفكرية، وكانت بعد ذلك الكتاتيب نقلة نوعية مستقلة عن المساجد بسبب ازدياد أعداد المتعلمين، وللحفاظ على قدسية المساجد من عبث الصبيان الذين لا يتورعون عن إتيان بعض المكاره فيها، تليها المدارس النظامية كخطوة متقدمة إلى الأمام حيث كانت نواة للمدارس الثانوية والجامعات بالمفهوم العصري، مروراً بحلقات العلم في بيوت الوزراء والخلفاء ومجالس المناظرة. وكانت الربط والخوانق والزوايا قد أدت دوراً مُهماً أيضاً في حركة التعليم. حيث كان انشاؤها في البداية استجابة لدواعٍ خيرية وفقهية وعبادية وجاء التعليم فيها نتيجة لتلك الدواعي وليس هو الغاية بالأصل.

وتخللت فصول هذا الكتاب آراء بعض التربويين الإسلاميين من الذين أسهموا بقدر بارز في هذا الميدان، ليكون القارىء على إلمام بجهود هؤلاء النفر، وشاهداً على الجهد الذي سبقوا به غيرهم في هذا المضمار، وأعطينا للوقف مساحة لا بأس بها من خلال إيراد حجتين وَقْفِيَّتَيْنْ من

تدبرهما نشاهد أهمية ودور هذا الوقف. في دفع وتطور مسيرة التعليم الأمام، بما وفره للدارسين من أموال وجرايات وأماكن للسكن ومستلزمات الحياة الأخرى، كفتهم عن السؤال وتفرغوا للعلم وألمحنا في الختام إلى بعض مستلزمات التعليم كالوراقة والحبر والأقلام.

راجين أن يكون القارىء قد استفاد من هذا الجهد المتواضع وذلك ما نبتغيه ونأمله خالصاً لوجه الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- آداب المعلمين ، محمد بن سحنون تحقيق محمد العروسي المطوي دار الكتب الشرقية . تونس ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي تحقيق الشيخ أبو الوفا مصطفى القاهرة ١٤٠٣ هـ المراغي ط ٢ .
- الاستيعاب لابن عبد البر ط قديمة بدون تاريخ .
- أيها الولد للغزالي تحقيق علي محيي الدين علي القرەداغي دار الاعتصام ط١ القاهرة ١٩٨٥ .
- أبجد العلوم للقنوجي تحقيق عبد الجبار زكار وزارة الثقافة دمشق ط ١ ١٩٧٨ .
- الأحكام السلطانية للماوردي ط ١ ١٩٨٥ مصورة بدار الكتب العلمية بيروت .
- البيان والتَّبْيين للجاحظ تحقيق محمد عبد السلام هارون ط مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق تحقيق د. علي سامي النشار ط وزارة الثقافة بالعراق ١٩٧٧ .
- التربية عبر التاريخ د. عبد الله عبد الدائم ط دار العلم للملايين ١٩٨٤ ط ٥ بيروت .

- تاريخ التربية الإسلامية د. **أحمد شلبي** ط دار النهضة المصرية، ط ٦ ١٩٧٨ م.
- التربية والتعليم في الإسلام **سعيد الديوجي** ط جامعة الموصل ١٩٨٢.
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم **لابن جماعة** ط دار الكتب العلمية بيروت.
- الترغيب والترهيب في الحديث **للمنذري** **تحقيق محمد علي عمارة** ط ١٩٨٧ مصطفى الحلبي وشركاه.
- تطور الفكر التربوي د. **سعد مرسي أحمد** عالم الكتب القاهرة.
- تقييد العلم **للبغدادي** تحقيق يوسف العش ط مصورة بدار إحياء السنة النبوية ١٩٧٤ القاهرة.
- تخريج الدلالات السمعية للتلمساني **تحقيق الشيخ أحمد محمد أبو سلامة** إصدار لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة ١٩٨٠.
- تهذيب تاريخ دمشق **لابن عساكر** **تحقيق عبد القادر بدران** ط دار المسيرة بيروت، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج١ تحقيق صلاح الدين المنجد ط١ دمشق ١٩٥٦
- تاريخ واسط رواية بحشل **تحقيق كوركيس عواد** ط مكتبة العلوم والحكم في المدينة المنورة.
- تعليم المتعلم طريق التعلم **للزرنوجي** **تحقيق مصطفى عاشور**، مكتبة القرآن القاهرة بدون تاريخ.
- تاريخ بغداد **للخطيب البغدادي** ط دار الكتاب العربي بيروت،
- التكوين التاريخي للأمة العربية د. **عبد العزيز الدوري** مركز دراسات الوحدة العربية ط ١، ١٩٨٤.
- التعريف بالمصطلح الشريف **للقاضي العمري** **تحقيق محمد حسين شمس الدين** نشر مكتبة الباز في مكة ط ١٩٨٨ ودار الكتب العلمية.

- التربية الأخلاقية الإسلامية د. **مقداد يالجن** ط ١٩٧٧ مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة د. **محمد عبد الهادي أبو ريدة** ط دار الكتاب اللبناني ١٩٦٧.
- الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي د. **مريزن عسيري** ط مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة ط أولى ١٩٨٧.
- حضارة الإسلام **لجلال مظهر** ط دار مصر للطباعة، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس د. **حسن علي حسن** ط ١ ١٩٨٠ مكتبة الخانجي القاهرة.
- الحركة الفكرية في مصر د. **عبد اللطيف حمزة** ط ٨، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٨.
- **حضارة العراق ط دار الحرية ١٩٨٥ /١٣/ مجلداً.**
- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، د. **محمد حسين شندب** دار النفائس، رسالة دكتوراه ط ١، ١٩٨٤.
- حجة وقف الأشرف برسباي تحقيق د. **أحمد دراج** مطبعة المعهد العلمي الفرنسي القاهرة ١٩٦٣.
- الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة. **خليل داوود الزرو** دار الأفاق الجديدة ط١، ١٩٧١ بيروت.
- خطط الشام **محمد كردعلي** مكتبة النوري بدمشق ط مصورة ١٩٨٥.
- الخطط والآثار **للمقريزي** ط مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- الدارس في تاريخ المدارس **للنعيمي** ط مصورة في مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. والطبعة الأولى بمطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

- دور القرآن بدمشق. **تحقيق د. صلاح الدين المنجد** ١٩٥٩ م دار الكتاب اللبناني.
- دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية، **عمر رضا كحالة** ط مصورة عن ط المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٣.
- رسائل الجاحظ **تحقيق محمد عبد السلام هارون**، ط مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- الرحلة في طلب الحديث **للبغدادي تحقيق د. نور الدين العتر** دار الكتب العلمية.
- السلوك **للمقريزي تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور**، دار الكتب المصرية ١٩٧٠ م.
- سراج الملوك **للطرطوشي** ط جناب أفندي غندور المطبعة الوطنية بثغر الإسكندرية.
- سيرة عمر بن عبد العزيز **لابن الجوزي** ط المؤيد ١٣٣١ هـ.
- شمس العرب تسطع على الغرب **زيغريد هونكه ترجمة فاروق بيضون وكمال** دسوقي ط ١٩٦٩ منشورات المكتب التجاري بيروت.
- صحيح مسلم **تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي**.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا **للقلقشندي** ط بيروت ١٩٨٧ دار الكتب العلمية وطبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- صناعة الكتب؛ وتطورها في العصور الإسلامية **د. أحمد السيد دراج** إصدار رابطة العالم الإسلامي عدد ٨ مكة.
- عيون الأخبار **لابن قتيبة** ط دار إحياء التراث العربي بيروت.
- علم النفس التربوي. **د. أحمد زكي صالح** ط ٩ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦.

- غاية النهاية في طبقات القراء مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٢.
- فن التعليم عند ابن جماعة د. حسن إبراهيم عبد العال مكتب التربية العربي بدول الخليج ط ١٩٨٥.
- فتوح البلدان للبلاذري تحقيق د. صلاح الدين المنجد ط ١٩٥٦ م مكتبة النهضة المصرية.
- الفكر التربوي عند ابن تيمية د. ماجد عرسان الكيلاني مكتبة الكتاب الحديث، عمان.
- الفرج بعد الشدة للتنوخي تحقيق عبود الشالجي ط دار صادر ١٩٧٨ م.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق د. إحسان عباس طبعة دار صادر.
- كتاب الفتوح لابن الأعثم الكوفي ط مصورة بدار الكتب العلمية، بيروت عن طبعة حيدر أباد الدكن.
- كتاب المنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي تحقيق خورشيد أحمد خان إصدار عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٥ بيروت.
- المنتظم في التاريخ لابن الجوزي ط مصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن، بدار صادر بيروت.
- المدرسة البادرائية فى دمشق، د. محمد سعيد رضا، جامعة الموصل.
- المدرسة النظامية في بغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٣، جـ ١.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ط، مصورة في طهران عن الطبعة المصرية.
- مجلة المنهل السعودية العدد ٤٤١.
- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية محمد عبد الله عنان ط٢ ١٩٦٩ مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- مقدمة ابن خلدون، إصدار مؤسسة الأعلمي بيروت.

- المذهب التربوي عند ابن سحنون، تأليف عبد الرحمن عثمان حجازي، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت ١٩٨٦.
- المجتمع المصري في عهد المماليك د. سعيد عاشور.
- المعارف لابن قتيبة تحقيق د. ثروت عكاشة، سلسلة ذخائر العرب، ط ٤.
- النفقات وإدارتها في الدولة العباسية، د. ضيف الله الزهراني، ط مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط ١، ١٩٨٦.
- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، ط الهيئة المصرية للكتاب.
- نصيحة الملوك للماوردي، ط دار الفلاح بالكويت، ١٩٨٣، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر.
- واسط في العصر العباسي، د. سليمان المعاضيدي، ط دار الحرية، بغداد.
- نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك بمصر علي سالم النباهين ط ١ دار الفكر العربي القاهرة ١٩٨١ م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - منشورات مكتبة المثنى بغداد ط مصورة.
- ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون منشورات مكتبة المثنى بغداد ط مصورة.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط ١ دار إحياء الكتب العربية للسيوطي.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ط مصورة عن دار الكتب المصرية.
- مجلة المنهل السعودية عدد ٤٤١.
- مجلة التراث العربي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق.
- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية محمد عبد الله عنان ط ٢ ١٩٦٩ مكتبة الخانجي بالقاهرة.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث الشريفة

(أ)

(م)

فهارس الأعلام

(أ)

(خ)

(د)

(ذ)

(ز)

(ش)

(ف)

(ن)

فهارس الأماكن

(ت)

(ث)

(ج)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

فهرس الموضوعات

ـ مدارس الطباق:

مؤسسات تعليمية أخرى:

معلمو المدارس: